

التقاط الجُمان

من

محاضرات في علوم القرآن

(٢)

عشرون محاضرة

د. محمد بن رزق بن طرهوني

١٤٢٦ هـ

هذا الكتاب عبارة عن المحاضرات التي سجلها الدكتور محمد طرهوني لطلاب جامعة المدينة العالمية بكلية القرآن الكريم والتي كانت بمعدل ثلاثين محاضرة لكل فصل وأتم في ذلك فصلين كاملين وذلك عام ١٤٢٦هـ

ثم قسمتها الجامعة إلى ثلاثة مستويات كل مستوى خمس وعشرون محاضرة

تتمة المستوى الأول

❋❋❋

المحاضرة الحادية والعشرون

علم أسباب النزول (١)

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

فنبدأ اليوم الحديث عن علم آخر من علوم القرآن وهو علم أسباب النزول وهو من أهم العلوم التي يجب على من تكلم في القرآن أن يحيط بها وسبق أن تكلمنا عنه باختصار في المحاضرة الثالثة وأرجأنا الحديث المفصل لوقته وقد حان .

والقرآن الكريم قسمان قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق وهو كثير ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان

وقسم نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة وهو موضوع بحثنا الآن غير أنا لا نريد أن نستعرض جميع الآيات التي جاءت على أسباب إنما غرضنا في هذا المبحث أن نتكلم بإيجاز عما يتعلق بهذا العلم من أطرافه مثل معنى سبب النزول وفوائد معرفة أسباب النزول وطريق هذه المعرفة والتعبيرات عن سبب النزول وحكم تعدد الأسباب والنازل واحد وتعدد النازل والسبب واحد إلى غير ذلك .

وسبب النزول : هو حادثة أو سؤال يعقبه نزول القرآن .

مثال ذلك نزول سورة تبت يدا أبي لهب فإن رسول الله ﷺ عندما نادى بطون قريش وأنذرهم قال له أبو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا فنزلت هذه السورة . والحديث في الصحيح .

وقد أفرد هذا العلم بالتصنيف جماعة أقدمهم علي بن المديني شيخ البخاري رحمه الله ومن أشهر هذه الكتب كتاب الواحدي وهو مطبوع متداول قال السيوطي : على ما فيه من إعواز وقد اختصره الجعبري فحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئا .

وكذا ألف فيه الحافظ ابن حجر كتابه العجاب في بيان الأسباب وقد طبع ما وجد منه لأنه ناقص وألف فيه السيوطي أيضا كتابا حافلا لم يؤلف مثله في هذا النوع سماه لباب النقول في أسباب النزول وهو أهل لأن يهتم بتحقيقه تحقيقا علميا قويا واطراح الضعيف منه وقد قام

شيخنا أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله بتصنيف رسالة مختصرة سماها الصحيح المسند من أسباب النزول وهي رسالة جيدة مطبوعة إلا أنها ينقصها الكثير مما صح لم يدرجه الشيخ فيها لتشدده في قبول بعض الأسانيد وهي مقبولة عند كثير من أهل العلم وأذكر من ذلك على سبيل المثال : إسناد محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس وصحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وإسناد السدي عن مرة الهمداني عن ابن مسعود حين يتميز .

فمازال هذا العلم بحاجة لمن يقوم بتنقية رواياته باعتدال في النقد واستقراء مستوعب للروايات.

وقد انتقد الدكتور صبحي الصالح الواحدي في بعض المواضع من كتابه ونعى على المصنفات القديمة فبالغ في نقده وإن كان بعض ما ذكره وجيه يستحق التأمل .

وعرف الزرقاني سبب النزول بقوله : هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه مبينة لحكمه أيام وقوعه . والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ أو سؤال وجه إليه فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال سواء أكانت تلك الحادثة :

خصومة دبت كالخلاف الذي شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج بدسيسة من أعداء الله اليهود حتى تنادوا السلاح السلاح ونزل بسببه تلك الآيات الحكيمة في سورة آل عمران من أول قوله سبحانه يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتب يردوكم بعد إيمانكم كافرين .... إلى آيات أخرى بعدها هي من أروع ما ينفر من الانقسام والشقاق ويرغب في المحبة والوحدة والاتفاق

أم كانت تلك الحادثة خطأ فاحشا ارتكب كذلك السكران الذي أم الناس في صلاته وهو في نشوته ثم قرأ السورة بعد الفاتحة فقال قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون وحذف لفظ لا من لا أعبد فنزلت الآية يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون في سورة النساء

أم كانت تلك الحادثة تمنيا من التمنيات ورغبة من الرغبات كموافقات عمر رضي الله عنه التي أفردها بعضهم بالتأليف ومن أمثلتها ما أخرجه البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه

قال قال عمر وافقت ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت واتخذوا من مقام إبرهم مصلى وقلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع على رسول الله نساؤه في الغيرة فقلت لهن عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزوجا خيرا منكن فنزلت كذلك وهذه في سورة التحريم .

قلت : هذا من العلوم التي أفردها السيوطي وسماه : ما أنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة وقال : هو في الحقيقة نوع من أسباب النزول .

وقد أخرج الترمذي رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه . قال ابن عمر : وما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر .

وأخرج مسلم عن ابن عمر عن عمر قال وافقت ربي في ثلاث في الحجاب وفي أسارى بدر وفي مقام إبراهيم .

قال الزرقاني :

وسواء أكان ذلك السؤال المرفوع إلى النبي يتصل بأمر مضى نحو قوله سبحانه في سورة الكهف ويسألونك عن ذي القرنين الخ

أم يتصل بحاضر نحو قوله تعالى في سورة الإسراء ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا

أم يتصل بمستقبل نحو قوله جل ذكره في سورة النازعات يسألونك عن الساعة أيان مرساها الخ

والمراد بقولنا أيام وقوعه الظروف التي ينزل القرآن فيها متحدثا عن ذلك السبب سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة أم تأخر عنه مدة لحكمة من الحكم كما حدث ذلك حين سألت قريش رسول الله ﷺ عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين فقال غدا أخبركم ولم يستثن أي لم يقل إن شاء الله فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوما على ما رواه ابن إسحاق وقيل ثلاثة أيام وقيل أربعين يوما حتى شق عليه ذلك ثم نزلت أجوبة تلك المقترحات وفي طيها يرشد الله تعالى رسوله إلى أدب الاستثناء بالمشيئة ويقول له في سورة الكهف ولا تقولن

لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا

ثم إن كلمة أيام وقوعه في تعريف سبب النزول قيد لا بد منه للاحتراز عن الآية أو الآيات التي تنزل ابتداء من غير سبب بينما هي تتحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو المستقبلة كبعض قصص الأنبياء السابقين وأممهم وكالحديث عن الساعة وما يتصل بها وهو كثير في القرآن الكريم .

قال السيوطي : والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة به فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك وكذلك ذكره في قوله واتخذ الله إبراهيم خليلا سبب اتخاذه خليلا ليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى .

طريق معرفة سبب النزول :

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح روى الواحدي بسنده عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : اتقوا الحديث إلا ما علمتم فإنه من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار .

قال الجعبري : نزول القرآن على قسمين قسم نزل ابتداء وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها .

وقد قال محمد بن سيرين رحمه الله سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال اتق الله وقل سدادا ذهب الذين يعلمون فيم أنزل الله القرآن .

وقال غيره : معرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا وربما لم يجزم بعضهم فقال أحسب هذه الآية نزلت في كذا كما أخرج الأئمة الستة عن عبد الله بن الزبير قال خاصم الزبير رجلا من الأنصار في شراج الحرة فقال النبي ﷺ : اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك فقال الأنصاري يا رسول الله أن كان ابن عمتك فتلون وجهه .... الحديث قال

الزبير : فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم .

قال الحاكم في علوم الحديث إذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند . ومشى على هذا ابن الصلاح وغيره ومثلوه بما أخرجه مسلم عن جابر قال : كانت اليهود تقول من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول فأنزل الله نساؤكم حرث لكم .

وقال ابن تيمية : قولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول عني بهذه الآية كذا .

وقد تنازع العلماء في قول الصحابي نزلت هذه الآية في كذا هل يجري مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند ؟ فالبخاري يدخله في المسند ، وغيره لا يدخله فيه وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره بخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند انتهى

وقال الزركشي : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع .

والذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية جامع للوجهتين والقرائن ترجح أيهما أراد الصحابي والله أعلم .

وما تقدم أنه من قبيل المسند من الصحابي إذا وقع من تابعي فهو مرفوع أيضا لكنه مرسل قال السيوطي : فقد يقبل إذا صح السند إليه وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير أو اعتضد بمرسل آخر ونحو ذلك .

قلت : إذن يعرف سبب النزول بأمرين : بتصريح الصحابي بذلك ، أو بسوق الحادثة أو السؤال وتعقيبه بما يدل على السببية .

وله صيغ :

صيغة صريحة في السببية: وهي أن يذكر الحادثة أو السؤال ويتبع ذلك بلفظ : فنزلت أو فأنزل الله معبرا بفاء السببية أو يصرح بالسببية فيقول: نزلت بسبب كذا

صيغة محتملة للسببية : وهي أن يقول نزلت في كذا وذلك لأنها تحتمل إرادة أن الحكم تشمله تلك الآية لا أن ذلك هو السبب الذي نزلت لأجله وكذلك إذا قال : أحسب هذه الآية نزلت في كذا .

قال الزرقاني : تختلف عبارات القوم في التعبير عن سبب النزول فتارة يصرح فيها بلفظ السبب فيقال سبب نزول الآية كذا وهذه العبارة نص في السببية لا تحتمل غيرها وتارة لا يصرح بلفظ السبب ولكن يؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سرد حادثة وهذه العبارة مثل تلك في الدلالة على السببية أيضا ومثاله رواية جابر الآتية قريبا ومرة يسأل الرسول ﷺ فيوحى إليه ويجيب بما نزل عليه ولا يكون تعبير بلفظ سبب النزول ولا تعبير بتلك الفاء ولكن السببية تفهم قطعا من المقام كرواية ابن مسعود الآتية عندما سئل النبي ﷺ عن الروح وحكم هذه أيضا حكم ما هو نص في السببية ومرة أخرى لا يصرح بلفظ السبب ولا يؤتى بتلك الفاء ولا بذلك الجواب المبني على السؤال بل يقال نزلت هذه الآية في كذا مثلا وهذه العبارة ليست نصا في السببية بل تحتملها وتحتمل أمرا آخر هو بيان ما تضمنته الآية من الأحكام والقرائن وحدها هي التي تعين أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه .

ومن هنا نعلم أنه إذا وردت عبارتان في موضوع واحد إحداهما نص في السببية لنزول آية أو آيات والثانية ليست نصا في السببية لنزول تلك الآية أو الآيات هنالك نأخذ في السببية بما هو نص ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية لأن النص أقوى في الدلالة من المحتمل مثال ذلك :

ما أخرجه مسلم عن جابر قال كانت اليهود تقول من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول فأنزل الله نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين من سورة البقرة وما أخرجه البخاري عن ابن عمر قال أنزلت نساؤكم حرث لكم في إتيان النساء في أدبارهن فالمعول عليه في بيان السبب هو رواية جابر الأولى لأنها صريحة في الدلالة على السبب وأما رواية ابن عمر فتحمل على أنها بيان لحكم إتيان النساء في أدبارهن استنباطا منه .

أما إذا كان الاختلاف دائرا بين عبارتين أو عبارات ليس شيء منها نصا كأن يقول بعض المفسرين نزلت هذه الآية في كذا ويقول الآخر نزلت في كذا ثم يذكر شيئا آخر غير ما ذكره

الأول وكان اللفظ يتناولهما ولا قرينة تصرف إحداهما إلى السببية فإن الروايتين كلتيهما تحملان على بيان ما يتناوله من المدلولات ولا وجه لحملهما على السبب وأما إذا كان الاختلاف دائرا بين عبارتين أو عبارات كلها نص في السببية فهنا يتشعب الكلام ا.هـ

قلت يأتي تفصيل الكلام في ذلك عند حديثنا عن تعدد السبب والنازل واحد .

ومن طريف ما جاء في أسباب النزول نزول آيات بسبب شخص واحد ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال نزلت في أربع آيات من كتاب الله عز وجل كانت أمي حلفت ألا تأكل ولا تشرب حتى أفارق محمدا صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا والثانية أني كنت أخذت سيفا فأعجبني فقلت يا رسول الله هب لي هذا فنزلت يسألونك عن الأنفال والثالثة أنى كنت مرضت فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله إني أريد أن أقسم مالي أفأوصي بالنصف فقال لا فقلت الثلث فسكت فكان الثلث بعد جائزا والرابعة أنى شربت الخمر مع قوم من الأنصار فضرب رجل منهم أنفى بلحى جمل فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل تحريم الخمر.

ولم يذكر في الحديث الآية الرابعة وهي المتعلقة بالوصية .

فوائد أسباب النزول

زعم بعض الناس أنه لا فائدة للإلمام بأسباب النزول وأنها لا تعدو أن تكون تاريخا للنزول أو جارية مجرى التاريخ وقد أخطأ فيما زعم فإن لأسباب النزول فوائد متعددة لا فائدة واحدة

الأولى : معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن أما المؤمن فيزداد إيمانا على إيمانه ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام ومن أجلها جاء هذا التنزيل وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفا حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان .

الثانية : الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها

قال الواحدي : لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها .

وقال ابن دقيق العيد : بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن .

وقال ابن تيمية : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب .

وقال الشيخ أبو الفتح القشيري بيان سبب النزول طريق قوى في فهم معاني الكتاب العزيز وقد أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا الآية وقال لئن كان كل امرئ فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه أخرجه الشيخان .

قال بعضهم : وما أجاب به ابن عباس عن سؤال مروان لا يكفى لأن اللفظ أعم من السبب ويشهد له قوله صلى الله عليه وسلم المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور وإنما الجواب أن الوعيد مرتب على أثر الأمرين المذكورين وهما الفرح وحب الحمد لا عليهما أنفسهما إذ هما من الأمور الطبيعية التي لا يتعلق بها التكليف أمرا ولا نهيا قال الزركشي : لا يخفى عن ابن عباس رضي الله عنه أن اللفظ أعم من السبب لكنه بين أن المراد باللفظ خاص ونظيره تفسير النبي صلى الله عليه وسلم الظلم بالشرك في قوله تعالى : ولم يلبسوا إيمانهم بظلم .

وسوف نفرد هذه الفائدة بمحاضرة خاصة إن شاء الله تعالى .

الثالثة : دفع توهم الحصر عما يفيد بظاهره الحصر نحو قوله سبحانه في سورة الأنعام قل لا أجد في ما أوحي إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ذهب الشافعي إلى أن الحصر في هذه الآية غير مقصود واستعان على دفع توهمه بأنها نزلت بسبب أولئك الكفار الذين أبوا إلا أن يحرموا ما أحل الله ويحلوا ما حرم الله عنادا منهم ومحادة لله ورسوله ﷺ فنزلت الآية بهذا الحصر الصوري محادة من الله ورسوله ﷺ لا قصدا إلى حقيقة الحصر .

قال إمام الحرمين : وهذا في غاية الحسن ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية .

قلت : هذا توجيه للآية ولم يذكر فيه سببا للنزول عمن عاصروا التنزيل . قال الزركشي : وهذا قد يكون من الشافعي أجراه مجرى التأويل .

الرابعة : تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ فآيات الظهار في مفتتح سورة المجادلة وسببها أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت حكيم بن ثعلبة والحكم الذي تضمنته هذه الآيات خاص بهما وحدهما على هذا الرأي أما غيرهما فيعلم بدليل آخر قياسا أو سواه وبدهي أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم ولا القياس عليه إلا إذا علم السبب وبدون معرفة السبب تصير الآية معطلة خالية من الفائدة .

الخامسة : معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها وذلك لقيام الإجماع على أن حكم السبب باق قطعا فيكون التخصيص قاصرا على ما سواه فلو لم يعرف سبب النزول لجاز أن يفهم أنه مما خرج بالتخصيص مع أنه لا يجوز إخراجه قطعا للإجماع المذكور .

وقد حكى الإجماع عليه القاضي أبو بكر في التقريب ولا التفات إلى من شذ فجوز ذلك ولا التفات إلى ما نقل عن بعضهم من تجويز إخراج محل السبب بالتخصيص لأمرين أحدهما أنه يلزم منه تأخير البيان عن وقت الحاجة ولا يجوز والثاني أن فيه عدولا عن محل السؤال وذلك لا يجوز في حق الشارع لئلا يلتبس على السائل واتفقوا على أنه تعتبر النصوصية في السبب من جهة استحالة تأخير البيان عن وقت الحاجة وتؤثر أيضا فيما وراء محل السبب وهو إبطال الدلالة على قول والضعف على قول .

ولهذا يقول الغزالي في المستصفى : غلط أبو حنيفة رحمه الله في إخراج الأمة المستفرشة من قوله الولد للفراش والخبر إنما ورد في وليدة زمعة إذ قال عبد بن زمعة هو أخي وابن وليدة أبي ولد على فراشه فقال عليه الصلاة والسلام الولد للفراش وللعاهر الحجر فأثبت للأمة فراشا وأبو حنيفة لم يبلغه السبب فأخرج الأمة من العموم ا.هـ

قلت : المثال هنا ليس من القرآن بل من الحديث وهو متعلق بعلم آخر مشابه يسمى علم سبب ورود الحديث وقد صنف فيه السيوطي وغيره .

الفائدة السادسة : معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين حتى لا يشتبه بغيره فيتهم البريء ويبرأ المريب ولهذا ردت عائشة على مروان حين اتهم أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر بأنه الذي نزلت فيه آية والذي قال لولديه أف لكما الخ من سورة الأحقاف وقالت والله ما هو به ولو شئت أن أسميه لسميته إلى آخر تلك القصة .

قلت : الصواب ما ذهب إليه مروان لأدلة أخرى ومن حفظ حجة على من لم يحفظ وقد بينت ذلك في صحيح السيرة النبوية .

السابعة : تيسير الحفظ وتسهيل الفهم وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة كل أولئك من دواعي تقرر الأشياء وانتقاشها في الذهن وسهولة استذكارها .

قال الزركشي : وقد جاءت آيات في مواضع اتفقوا على تعديتها إلى غير أسبابها كنزول آية الظهار في سلمة بن صخر وآية اللعان في شأن هلال بن أمية ونزول حد القذف في رماة عائشة رضي الله عنها ثم تعدى إلى غيرهم وإن كان قد قال سبحانه والذين يرمون المحصنات فجمعها مع غيرها إما تعظيما لها إذ أنها أم المؤمنين ومن رمى أم قوم فقد رماهم وإما للإشارة إلى التعميم ولكن الرماة لها كانوا معلومين فتعدى الحكم إلى من سواهم فمن يقول بمراعاة حكم اللفظ كان الاتفاق هاهنا هو مقتضى الأصل ومن قال بالقصر على الأصل خرج عن الأصل في هذه الآية بدليل ونظير هذا تخصيص الاستعاذة بالإناث في قوله تعالى ومن شر النفاثات في العقد لخروجه على السبب وهو أن بنات لبيد سحرن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا قال أبو عبيد وفيه نظر فإن الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم هو لبيد بن الأعصم كما جاء في الصحيح .

قلت : لا يمنع أن يكون لبيدا استعان في سحره بأخواته فكلهم سحرة ملاعين لتلتئم الآثار كلها . وأما نفس المسألة فسوف نتعرض لها عند حديثنا عن الخلاف في قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وهنا أمر ينبغي التنبيه عليه : وهو ما اعتبره بعض أهل العلم ملحقا بأسباب النزول وإن لم يكن منها وهو أنه قد تنزل الآيات لسبب خاص ثم توضع مع ما يناسبها من الآي رعاية لنظم القرآن وحسن السياق فذلك الذي وضعت معه الآية النازلة على سبب خاص للمناسبة ؛ دلالة اللفظ عليه هل هي كالسبب فلا يخرج ويكون مرادا من الآيات قطعا أو لا؟

واختار بعضهم أنه رتبة متوسطة دون السبب وفوق العموم المجرد ومثاله قوله تعالى إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها المشهور أنها نزلت بسبب مفتاح الكعبة فإن مناسبتها للآية التي قبلها وهى قوله تعالى ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أن ذلك إشارة إلى كعب بن الأشرف كان قدم إلى مكة وشاهد قتلى بدر وحرض الكفار على الأخذ بثأرهم وغزو النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه من أهدى سبيلا النبي صلى الله عليه وسلم أو هم فقال أنتم ؛ كذبا منه وضلالة لعنه الله فتلك الآية في حقه وحق من شاركه في تلك المقالة وهم أهل كتاب يجدون عندهم في كتابهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم وصفته وقد أخذت عليهم المواثيق ألا يكتموا ذلك وأن ينصروه وكان ذلك أمانة لازمة لهم فلم يؤدوها وخانوا فيها وذلك مناسب لقوله إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلي إلى أهلها .

قال ابن العربي في تفسيره : وجه النظم أنه أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم وقولهم إن المشركين أهدى سبيلا فكان ذلك خيانة منهم فانجر الكلام إلى ذكر جميع الأمانات انتهى   ولا يرد على هذا أن قصة كعب بن الأشرف كانت عقب بدر ونزول إن الله يأمركم في الفتح أو قريبا منها وبينهما ست سنين لأن الزمان إنما يشترط في سبب النزول ولا يشترط في المناسبة لأن المقصود منها وضع آية في موضع يناسبها والآيات كانت تنزل على أسبابها ويأمر النبي صلى الله عليه وسلم بوضعها في المواضع التي علم من الله تعالى أنها مواضعها .

واعلم أنه جرت عادة المفسرين أن يبدءوا بذكر سبب النزول ووقع البحث أيما أولى البداءة به : بتقدم السبب على المسبب ؟ أو بالمناسبة لأنها المصححة لنظم الكلام ؟ والتحقيق التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفا على سبب النزول كالآية السابقة في إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد وإن لم يتوقف على ذلك فالأولى تقديم وجه المناسبة .

وقد ألحق بعضهم نوعا من علوم القرآن بأسباب النزول وهو تقدم نزول آية على حكمها والصواب أن ذلك لا علاقة له بأسباب النزول وغاية ما فيه أنه متعلق بالأحكام المستنبطة

من القرآن إلا أن الحكم المستنبط لم يظهر إلا متأخرا على النزول وقد ذكرنا نبذة عن هذا النوع في تعريفنا لعلوم القرآن .

هذا ونكتفي بهذا القدر والحمد لله رب العالمين .

الأسئلة :

المجموعة الأولى: ضع علامة صح أمام الجملة الصحيحة

١- ما نزل قرآن إلا على سبب (خطأ)

٢- من فوائد علم أسباب النزول تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ (صح)

٣- مازال علم أسباب النزول بحاجة لمن يقوم بتنقية رواياته باعتدال في النقد (صح)

٤- الاستعانة على فهم الآية، ودفع الإشكال عنها من فوائد أسباب النزول (صح)

٥- بداية سورة المجادلة نزلت في أوس بن الصامت وزوجته خوله بنت حكيم (صح)

٦- آية اللعان نزلت في شأن هلال بن أمية (صح)

٧- حد القذف مقتصر على رماة عائشة لأن الآية نزلت فيهم (خطأ)

٨- يعرف سبب النزول بأمرين : بتصريح الصحابي بذلك ، أو بسوق الحادثة أو السؤال وتعقيبه بما يدل على السببية . (صح)

٩- في معرفة سبب النزول نفع لغير المؤمن أيضا (صح)

١٠- قد تنزل الآية في سبب خاص ثم توضع مع ما يناسبها رعاية لنظم القرآن (صح)

المجموعة الثانية: ضع خطا تحت الإجابة الصحيحة

١- أقدم كتاب في أسباب النزول هو كتاب (الجعبري، الواحدي، ابن المديني)

٢- كتاب العجاب في بيان الأسباب (للسيوطي، للواحدي، لابن حجر)

٣- أجمع كتاب في أسباب النزول كتاب (الواحدي، ابن حجر، السيوطي)

٤- الموافقات العمرية أو غيره من الصحابة صنفه السيوطي تحت عنوان (ما أنزل على لسان بعض الصحابة، أسباب النزول، الموافقات)

٥- قول الصحابي في الآية فأنزل الله كذا من الصيغ (السببية الصريحة، غير الصريحة، المحتملة مع القرائن)

٦- قول الصحابي أنزلت الآية في كذا من الصيغ (الصريحة، غير الصريحة ، المحتملة مع القرائن)

٧- علم ورود الحديث علم يشبه (أسباب النزول، فضائل القرآن، الآثار المروية في التفسير عن الصحابة)

٨- قوله تعالى:{والذي قال لوالديه أف لكما}الصحيح أنها نزلت في (عبد الرحمن بن أبي بكر، مروان بن الحكم، مجهول)

٩- نزل قوله تعالى:{إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات} في (امرأة كانت تستعير الماعون فلا تردها، مفتاح الكعبة، كعب بن الأشرف)

١٠- قوله تعالى:{ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب} نزلت في (كعب بن الأشرف، كعب الأحبار، عبد الله بن أبي بن سلول)

المجموعة الثالثة:ضع خطا تحت الكلمة المناسبة لملأ الفراغ

١- .....هو حادثة أو سؤال يعقبه نزول القرآن (سؤالات القرآن، حوادث القرآن، سبب النزول)

٢- إذا وردت عبارتان في موضوع واحد إحداهما نص في السببية لنزول آية أو آيات والثانية ليست نصا في السببية (قدم النص ، جمع بينهما ، لم يرجح أي منهما)

٣- لباب النقول في أسباب النزول ألفه .... (السيوطي، ابن حجر، الجعدي)

٤- صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس من الأسانيد .... في أسباب النزول (الثابتة ، الواهية ، الباطلة)

٥- لا سبيل إلى معرفة سبب النزول إلا عن طريق ...(النقل الصحيح، القول الصريح من المحدثين، ذكر أكثر المفسرين له)

٦- رسالة الشيخ مقبل الوادعي ينقصها .....(التدقيق في بعض الأحاديث، الكثير مما صح مما لم يدرجه الشيخ، تحقيق بعض الآثار)

٧- إذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث ...... (مقطوع ، ضعيف ، مسند)

٨- من فوائد أسباب النزول معرفة أن سبب النزول .... عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها (غير خارج ، خارج ، بعيد)

٩- إذا وقعت الحادثة ونزل القرآن بعدها بزمان بسببها فإن ذلك ...... أسباب النزول (داخل في ، غير داخل في ، يشبه)

١٠- قد تنزل الآيات لسبب خاص ثم توضع مع ما يناسبها من الآي رعاية لنظم القرآن وهذا يعتبر ..... (من أسباب النزول ، ملحقا بأسباب النزول ، معارضة لسبب النزول)

المحاضرة الثانية والعشرون

علم أسباب النزول (٢)

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

فاليوم نستكمل حديثنا عن بعض من أطراف علم أسباب النزول

ومن ذلك : تعدد سبب النزول لنازل واحد فنقول :

قد تتعدد الروايات الواردة في سبب نزول آية واحدة أو آيات معينة ، والعمل عند ذلك كالآتي:

أولا: قد يكون بعضها ضعيفا وبعضها صحيحا فيقدم الصحيح

مثال ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب قال اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة فقالت يا محمد ما أرى صاحبك إلا قد تركك فأنزل الله والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى .

وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادم رسول الله ﷺ أن جروا دخل بيت النبي ﷺ فدخل تحت السرير فمات فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ ؟ جبريل لا يأتيني فقلت في نفسي لو هيأت البيت وكنسته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة فأنزل الله والضحى إلى قوله فترضى

فنحن بين هاتين الروايتين نقدم الرواية الأولى في بيان السبب لصحتها دون الثانية لأن في إسنادها من لا يعرف . قال ابن حجر قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب وفي إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيح .

قال السيوطي : ومن أمثلته أيضا ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن رسول الله لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبله بضعة عشر شهرا وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو الله وينظر إلى

السماء فأنزل الله فولوا وجوهكم شطره فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فأنزل الله قل لله المشرق والمغرب وقال فأينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله .

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن عمر قال نزلت فأينما تولوا فثم وجه الله أن تصلي حيثما توجهت بك راحلتك في التطوع .

وأخرج الترمذي وضعفه من حديث عامر بن ربيعة قال كنا في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلى كل رجل منا على حياله فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت

وأخرج الدارقطني نحوه من حديث جابر بسند ضعيف أيضا

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال لما نزلت ادعوني أستجب لكم قالوا إلى أين فنزلت مرسل

وأخرج عن قتادة أن النبي ﷺ قال إن أخا لكم قد مات فصلوا عليه فقالوا إنه كان لا يصلي إلى القبلة فنزلت معضل غريب جدا .

فهذه خمسة أسباب مختلفة وأضعفها الأخير لإعضاله ثم ما قبله لإرساله ثم ما قبله لضعف رواته والثاني صحيح لكنه قال قد أنزلت في كذا ولم يصرح بالسبب والأول صحيح الإسناد وصرح فيه بذكر السبب فهو المعتمد

ومن أمثلته أيضا ما أخرجه ابن مردويه وابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال خرج أمية بن خلف وأبو جهل بن هشام ورجال من قريش فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد تعال فتمسح بآلهتنا وندخل معك في دينك وكان يحب إسلام قومه فرق لهم فأنزل الله وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك الآيات

وأخرج ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس أن ثقيفا قالوا للنبي ﷺ أجلنا سنة حتى يهدى لآلهتنا فإذا قبضنا الذي يهدى لها أحرزناه ثم أسلمنا فهم أن يؤجلهم فنزلت .

هذا يقتضي نزولها بالمدينة وإسناده ضعيف والأول يقتضي نزولها بمكة وإسناده حسن وله شاهد عند أبي الشيخ عن سعيد بن جبير يرتقي إلى درجة الصحيح فهو المعتمد .

ثانيا: إذا كانت كلها صحيحة يقدم الصريح في السببية .

مثاله ما أخرجه البخاري عن ابن عمر قال أنزلت نساؤكم حرث لكم في إتيان النساء في أدبارهن .

وتقدم عن جابر التصريح بذكر سبب خلافه فالمعتمد حديث جابر لأنه نقل وقول ابن عمر استنباط منه وقد وهمه فيه ابن عباس وذكر مثل حديث جابر كما أخرجه أبو داود والحاكم .

وقد تقدم في النقطة الأولى مثال لذلك أيضا .

ثالثا: إذا كانت كلها صريحة في السببية ينظر فلعل بعضها قصد به التلاوة وليس النزول وعبر عنه بعض الرواة بالنزول .

فقد يكون في إحدى القصتين فتلا فيهم الراوي فيقول فنزل مثاله ما أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس قال مر يهودي بالنبي ﷺ فقال : كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه والأرضين على ذه والماء على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه فأنزل الله وما قدروا الله حق قدره الآية .

والحديث في الصحيح بلفظ : فتلا رسول الله وهو الصواب فإن الآية مكية

ومن أمثلته أيضا ما أخرجه البخاري عن أنس قال سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ فأتاه فقال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : أخبرني بهن جبريل آنفا قال جبريل ؟ قال : نعم . قال ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك .

قال ابن حجر في شرح البخاري : ظاهر السياق أن النبي ﷺ قرأ الآية ردا على قول اليهود ولا يستلزم ذلك نزولها حينئذ . قال : وهذا هو المعتمد فقد صح في سبب نزول الآية قصة غير قصة ابن سلام .

قلت : وقد بينت ذلك في رسالة الهجرة من صحيح السيرة النبوية .

رابعا: إذا لم يمكن ذلك نقوم بالترجيح فيقدم مثلا الرواية التي كان الصحابي فيها حاضرا على التي لم ينص على حضوره فيها .

مثال ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال كنت أمشي مع النبي بالمدينة   وهو يتوكأ على عسيب فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لو سألتموه   فقالوا حدثنا عن الروح   فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي ثم قال قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا

وما أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس قال قالت قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل فقالوا اسألوه عن الروح فسألوه فأنزل الله ويسئلونك عن الروح

فهذا الخبر الثاني يدل على أنها بمكة وأن سبب نزولها سؤال قريش إياه

أما الأول فصريح في أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إياه وهو أرجح من وجهين أحدهما أنه رواية البخاري أما الثاني فإنه رواية الترمذي ومن المقرر أن ما رواه البخاري أصح مما رواه غيره ثانيهما أن راوي الخبر الأول وهو ابن مسعود كان مشاهد القصة من أولها إلى آخرها كما تدل على ذلك الرواية الأولى بخلاف الخبر الثاني فإن رواية ابن عباس لا تدل الرواية على أنه كان حاضر القصة ولا ريب أن للمشاهدة قوة في التحمل وفي الأداء وفي الاستيثاق ليست لغير المشاهدة ومن هنا أعملنا الرواية الأولى وأهملنا الثانية .

قلت : هكذا مثل به بعض أهل العلم والصواب أن هذه الآية مكية والعجيب اعتماد هذا الترجيح من بعضهم وهو شبه مستحيل إلا إذا رد حديث ابن عباس كلية لأنه حتى وإن سلم بأنه ليس في نزولها إلا أنها مذكورة فيه وهو يحكي قصة مكية ورواية ابن مسعود في المدينة نصا فكيف تليت الآية أو ذكرت قبل نزولها بسنوات ؟؟؟؟؟؟؟

وحديث ابن عباس أخرجه أحمد والترمذي وابن أبي عاصم في السنة والحاكم والبيهقي في الدلائل وقال الترمذي : حسن صحيح غريب من هذا الوجه وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وسكت الذهبي ، وقال في السيرة : هذا إسناد صحيح اه وقال الحافظ ابن حجر :رجاله رجال مسلم وهو عند ابن إسحاق من وجه آخر عن ابن عباس نحوه وقال أحمد شاكر إسناده صحيح وقال الألباني : صحيح على شرط مسلم .

وله شاهد عن ابن جريج مرسلا أخرجه ابن المنذر .

قال الذهبي : حديث ابن مسعود يدل على أن سؤال اليهود عن الروح كان بالمدينة ولعله صلى الله عليه وسلم سئل مرتين .

قلت : لا مانع من حصول السؤال مرتين بل هو المؤكد لكن الصواب نزولها بمكة والذي بالمدينة هو تلاوتها فقط وقد جنح لهذا ابن كثير رحمه الله فقال : فإما أنها نزلت مرة ثانية أو ذكرها جوابا وإن كان نزولها متقدما ومن قال إنها إنما نزلت بالمدينة واستثناها من سورة سبحان ففي قوله نظر .

قلت : وفي القول بنزولها مرة ثانية نظر أيضا وسيأتي الكلام على ذلك بالتفصيل في الفقرة التالية وفحواه أنه لو نزل بها جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم مرة ثانية فإن ذلك لا يعدو التوجيه إلى الجواب بها وليس نزولا جديدا حيث لا معنى للقول بالنزول ثانية وهي قد نزلت قبل ذلك .

خامسا: إذا تعذر كل ذلك وهو شبه مستحيل يقال بتعدد النزول ، وأن الآية نزلت أكثر من مرة بعدد أسباب النزول التي تحدثت عنها الروايات لأنه إعمال لكل رواية ولا مانع منه .

مثال ذلك ما أخرجه البيهقي والبزار عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به إلى آخر السورة وهن ثلاث آيات

وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب قال لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا به فقالت الأنصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين أي لنزيدن عليهم فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله وإن عاقبتم الآية

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد والثانية تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة على حين أن بين غزوة أحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين فبعد أن يكون نزول الآية كان مرة عقيبهما معا وإذن لا مناص لنا من القول بتعدد نزولها مرة في أحد ومرة يوم الفتح

وقد ذهب البعض إلى أن سورة النحل كلها مكية وعليه فتكون خواتيمها المذكورة نزلت مرة بمكة قبل هاتين المرتين اللتين في المدينة وتكون عدة مرات نزولها ثلاثا .

قال ابن الحصار ويجمع بأنها نزلت أولا بمكة قبل الهجرة مع السورة لأنها مكية ثم ثانيا بأحد ثم ثالثا يوم الفتح تذكيرا من الله لعباده .

وبعضهم يقول إن سورة النحل مكية ما عدا خواتيمها تلك فإنها مدنية وعليه فعدة مرات نزولها اثنتان فقط .

قلت : لا يسلم بما ذكر فكل رواية مما سبق لا تخلو من مقال في إسنادها والقول بأن الآيات الثلاثة مكية لا حجة عليه فهي بلا شك مدنية والأقوى نزولها عقب أحد لشواهده الكثيرة .

ومن ذلك أيضا :

ما أخرجه الشيخان عن المسيب قال لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال أي عم قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزالا يكلمانه حتى قال هو على ملة عبد المطلب فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنه فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية .

وأخرج الترمذي وحسنه عن علي قال سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت تستغفر لأبويك وهما مشركان فقال استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن مسعود قال خرج النبي ﷺ يوما إلى المقابر فجلس إلى قبر منها فناجاه طويلا ثم بكى فقال إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي فأنزل علي ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين .

قلت : ذكر هذه الآية في رواية موت أبي طالب ليس على سبيل نزولها بعد ذلك مباشرة والذي نزل بعد موته مباشرة قوله تعالى : إنك لا تهدي من أحببت ... الآية وهي مدنية لاشك بل في سورة هي من أواخر ما نزل فأين هي من مكة ؟ وقد استمر النبي ﷺ والمؤمنون معه زمانا يستغفرون للمشركين حتى نهوا عن ذلك بنزول هذه الآية .

وقد صرح جماعة من أهل العلم بأن من القرآن ما تكرر نزوله قال ابن الحصار قد يتكرر نزول الآية تذكيرا وموعظة .

وقال الزركشي : قد ينزل الشيء مرتين تعظيما لشأنه وتذكيرا عند حدوث سببه خوف نسيانه ثم ذكر منه آية الروح وقوله وأقم الصلاة طرفي النهار الآية

قال السيوطي : وهذا كما قيل في الفاتحة نزلت مرتين مرة بمكة وأخرى بالمدينة وكما ثبت في الصحيحين عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأنزل الله تعالى وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات فقال الرجل ألي هذا ؟ فقال بل لجميع أمتي .

فهذا كان في المدينة والرجل قد ذكر الترمذى أو غيره أنه أبو اليسر وسورة هود مكية بالاتفاق ولهذا أشكل على بعضهم هذا الحديث مع ما ذكرنا ولا إشكال لأنها نزلت مرة بعد مرة .

وكذلك ما ورد في قل هو الله أحد أنها جواب للمشركين بمكة وأنها جواب لأهل الكتاب بالمدينة

والحكمة في هذا كله أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضى نزول آية وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها فتؤدى تلك الآية بعينها إلى النبي صلى الله عليه وسلم تذكيرا لهم بها وبأنها تتضمن هذه والعالم قد يحدث له حوادث فيتذكر أحاديث وآيات تتضمن الحكم في تلك الواقعة وإن لم تكن خطرت له تلك الحادثة قبل مع حفظه لذلك النص .

قلت : هذه الحكمة وغيرها يكفي فيها مجرد تكرار التلاوة لا النزول مرة أخرى .

ويحسن بنا أن تكلم عن موضع من مواضع الخلاف في أسباب النزول لتعلقه بمسألة التكرار هذه وهو ما جاء في سورة الكوثر :

فقد وردت روايات تدل على كونها مدنية ، ومن ذلك حديث أنس عند مسلم والنسائي في التفسير وغيرهما وهو من رواية المختار بن فلفل عن أنس ، وقد تفرد بهذه الرواية عن أنس ، وسائر أصحاب أنس رووا الحديث بلفظ آخر ليس فيه هذه القصة . ومختار بن فلفل تكلم فيه الإمام الحافظ السليماني وعده في رواة المناكير عن أنس ونحن لن نوافقه على ذلك ، لإخراج روايته في الصحيح ، إلا أننا نقول : لعل في اللفظ شيئا من التصرف خاصة وقد جاء بلفظ لا يتعارض مع مكية السورة ؛ ولذا قال السيوطي : وأخرج مسلم والبيهقي من وجه آخر بلفظ ثم رفع رأسه فقرأ إلى آخر السورة ، قال البيهقي : والمشهور فيما بين أهل التفسير والمغازي أن هذه السورة مكية ، وهذا اللفظ لا يخالفه فيشبه أن يكون أولى .

أقول :ويمكن أن يكون هذا فعلا بانتقاء رواية لا إشكال فيها وهي ما أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود من طريق محمد بن فضيل عن المختار بن فلفل عن أنس . وإنما قلت ذلك ؛ لما ثبت عن أنس من طرق في الصحيحين وغيرهما في قصة الإسراء والمعراج قول جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم "هذا الكوثر الذي أعطاكه الله" وهذا يدل على تقدم نزول السورة على حادثة الإسراء والمعراج ، فيكون الأمر هكذا : نزلت السورة على النبي صلى الله عليه وسلم

وأوحي إليه بتفسير الكوثر ، فلما عرج به أراه الله إياه فسأل عنه جبريل فأخبره أنه هو هذا الذي أعطاك الله ووصفته لك .

أما على القول بمدنية نزولها : فيصعب الجمع بين ما تقدم ، وأما القول بأنه صلى الله عليه وسلم تلا السورة مجرد تلاوة بالمدينة ثم سأل الصحابة عن الكوثر فلم يعرفوه مع تقدم نزول السورة بمكة ، وما حصل ليلة المعراج واشتهار ما جرى له فيها من عجائب فأمر مستبعد .

ومن ذلك ما رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير في نزولها يوم الحديبية . ولا يصح عن سعيد وهو معارض بما صح عنه ، ثم هو قول فرد لم يرد أي شيء يؤيده ولو من طرق واهية . ومن ذلك الحديث عن حسن بن علي في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لبني أمية على منبره ونزول سورة الكوثر وسورة القدر وهو منكر بمرة ، وقد تكلم عليه الحفاظ ، ومنهم الحافظ ابن كثير في تفسيره بما يشفي .

ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن أسامة بن زيد في كلام زوجة حمزة بن عبد المطلب وقولها للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرني أبو عمارة أنك أعطيت نهرا في الجنة يدعى الكوثر . وهذا على ضعف إسناده ليس صريحا في النزول .

ومن ذلك بعض الآثار التي لا تصح في قول قريش : بتر محمد (صلى الله عليه وسلم) عندما مات إبراهيم ، كذا جاء فيها ، وهو وهم في التسمية ، وإنما ذلك فيمن مات من ولده بمكة.

وأقوى ما ورد في كونها مدنية بعد حديث مسلم حديث ابن عباس قال : لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش : أنت خير أهل المدينة وسيدهم ، قال :نعم قالوا : ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السدانة ، وأهل السقاية قال : أنتم خير منه ، قال : فنزلت ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ . ونزلت ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ...﴾ إلى قوله ﴿نصيرا﴾ . أخرجه أحمد وابن جرير وابن حبان والبزار وإسناده صحيح ، وليس فيه أن ذلك بعد الهجرة ، ولكن المعنى أن كعبا قدم مكة بعد الهجرة بفترة ويدل على ذلك ما فيه من نزول آية النساء وما جاء في الطرق الأخرى لهذه القصة وهي كثيرة منها عن ابن عباس ومنها عن عكرمة وجميع هذه الطرق لم يذكر فيه قوله : إن شانئك هو الأبتر وما أراها إلا وهما لاسيما وقد روى هذا

الحديث عمرو بن دينار عند ابن أبي حاتم عن عكرمة فأرسله ولم يذكرها فيه ورواه عند الطبراني والبيهقي في الدلائل فأثبت ابن عباس ولم يذكرها فيه وهي على كل مختصرة .

فالحاصل أن ذكر هذه الآية في تلك القصة تفرد به ابن أبي عدي عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس ولا يخلو هذا الإسناد أصلا من بعض مقال ، ولولا معارضته لغيره لاعتمدناه على ما فيه إلا أن مخالفته تجعلنا نضرب صفحا عن هذا الجزء الذي تفرد به .

وقد يقال بتكرر نزول آية إن شانئك هو الأبتر وهو قول لا بأس به إذا قصد به هذه الآية فقط وليس كل السورة لسذاجة المعنى إذا قيل بنزولها كلها مرة ثانية .

ولا أرى أن يقال في شيء من القرآن تكرر نزوله لأنه إذا نزل وتلي فما معنى القول بالنزول مرة ثانية حيث إنه إذا جاء جبريل بما تقدم نزوله فإنما هو للتلاوة والتذكر وليس إنزالا مرة ثانية وقد علمنا انه ﷺ لا ينطق إلا بوحي فمعنى ذلك أنه كلما تلا شيئا من القرآن قيل بنزوله مرة ثانية وبحمد الله لا يوجد رواية صحيحة في أسباب النزول على الرغم من التتبع الشديد تجعلنا نقول بتعدد النزول وما ورد مما يقال فيه ذلك ونظر فيه نظرة فاحصة بعد جمع الطرق والشواهد ظهر أن الخطأ فيه من بعض الرواة المتكلم في حفظهم والله أعلم .

وأما نزولها بمكة فهو المعتمد لإجماع الحجة من أهل التفسير على حد تعبير الطبري رحمه الله على ذلك ويوافقهم أهل المغازي بالإضافة لوفرة الأدلة التي تؤيده مما ذكرناه ومما لم نذكره هنا وينظر في صحيح السيرة النبوية .

ويلاحظ أنه لا مانع من تعدد أسباب النزول لآية واحدة بمعنى حصول أكثر من سبب في وقت متقارب سابق للنزول فتنزل الآية بسبب ذلك جميعا

وهذا إذا ما استوت الروايتان في الصحة ولا مرجح لإحداهما لكن يمكن الجمع بينهما بأن كلا من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معا لتقارب زمنيهما فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد السبب لأنه الظاهر ولا مانع يمنعه . قال ابن حجر : لا مانع من تعدد الأسباب .

مثال ذلك ما أخرجه البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء فقال النبي ﷺ البينة أو حد في ظهرك فقال يا رسول الله إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة وفي رواية أنه قال والذي بعثك بالحق

إني لصادق ولينزلن الله تعالى ما يبرئ ظهري من الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه والذين يرمون أزوجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم حتى بلغ إن كان من الصادقين

وأخرج الشيخان واللفظ للبخاري عن سهل بن سعد أن عويمرا أتى عاصم بن عدي وكان سيد بني عجلان فقال كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع سل لي رسول الله ﷺ عن ذلك فأتى عاصم النبي ﷺ فقال يا رسول الله وفي رواية مسلم فسأل عاصم رسول الله ﷺ فكره رسول الله المسائل وعابها فقال عويمر والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك فجاءه عويمر فقال يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع فقال رسول الله ﷺ قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك فأمرهما رسول الله بالملاعنة بما سمى الله في كتابه فلاعنها .

فهاتان الروايتان صحيحتان ولا مرجح لإحداهما على الأخرى ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما لقرب زمانيهما على اعتبار أن أول من سأل هو هلال بن أمية ثم قفاه عويمر قبل إجابته فسأل بواسطة عاصم مرة وبنفسه مرة أخرى فأنزل الله الآية إجابة للحادثين معا ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع أولى من إعمال إحداهما وإهمال الأخرى إذ لا مانع يمنع الأخذ بهما على ذلك الوجه ثم لا جائز أن نردهما معا لأنهما صحيحتان ولا تعارض بينهما ولا جائز أيضا أن نأخذ بواحدة ونرد الأخرى لأن ذلك ترجيح بلا مرجح فتعين المصير إلى أن نأخذ بهما معا وإليه جنح النووي وسبقه إليه الخطيب فقال لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد .

ويمكن أن يفهم من الرواية الثانية أن آيات الملاعنة نزلت في هلال أولا ثم جاء عويمر فأفتاه الرسول بالآيات التي نزلت في هلال .

قال ابن الصباغ قصة هلال تبين أن الآية نزلت فيه أولا وأما قوله لعويمر إن الله أنزل فيك وفي صاحبتك فمعناه ما نزل في قصة هلال لأن ذلك حكم عام لجميع الناس

وننتقل إلى طرف آخر من أطراف علم أسباب النزول وهو عكس ما سبق ذكره : تعدد النازل والسبب واحد

فقد يكون أمر واحد سببا لنزول آيتين أو آيات متعددة على عكس ما سبق ولا مانع من ذلك لأنه لا ينافي الحكمة في إقناع الناس وهداية الخلق وبيان الحق عند الحاجة بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع وأظهر في البيان :

مثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان ما أخرجه ابن جرير الطبري والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ جالسا في ظل شجرة فقال إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاء فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين فدعاه رسول الله فقال علام تشتمني أنت وأصحابك فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم فأنزل الله يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغنهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير

وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالا فأنزل الله يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون .

ومثال السبب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتين ما أخرجه الحاكم والترمذي عن أم سلمة أنها قالت يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب

وأخرج الحاكم أيضا عنها أنها قالت قلت يا رسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزلت إن المسلمين والمسلمات وأنزلت أني لا أضيع عمل عمل منكم من ذكر أو أنثى

وأخرج الحاكم أيضا أنها قالت تغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض وأنزل إن المسلمين والمسلمات

ومن أمثلته أيضا ما أخرجه البخاري من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله فجاء ابن أم مكتوم وقال يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله غير أولي الضرر

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت أيضا قال كنت أكتب لرسول الله ﷺ فإني لواضع القلم على أذني إذ أمر بالقتال فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال كيف لي يا رسول الله وأنا أعمى فأنزلت ليس على الضعفاء .

قلت : لا شك أن بعض هذه الروايات فيها نظر من جهة ضبط رواتها وربما ظهر عند التحقيق وهم بعضهم في ذكر آية مكان آية لا سيما وبعض الرواة الحفاظ كان لا يحفظ القرآن .

هذا والله تعالى أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الأسئلة :

المجموعة الأولى: ضع علامة صح أمام الجملة الصحيحة

١- إذا كان بعض الروايات في سبب نزول آية ضعيفة والبعض منها صحيحة فإننا نجمع بينها (خطأ)

٢- حديث الجرو الذي كان تحت سرير النبي ﷺ هو سبب نزول سورة والضحى (خطأ)

٣- حديث عامر بن ربيعة في سبب نزول قوله تعالى{فأينما تولوا فثم وجه الله} حديث ضعيف (صح)

٤- نزل قوله تعالى{وإن كادوا ليفتنونك} في عرض بني ثقيف (خطأ)

٥- قوله تعالى{من كان عدوا لجبريل فإنه }صح في سبب نزولها غير قصة بن سلام (صح)

٦- الرواية السببية التي يكون الصحابي فيها حاضرا مقدمة على التي لم ينص على حضوره فيها(صح)

٧- المؤكد أن السؤال عن الروح وقع مرتين (صح)

٨- قوله تعالى{وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به} من أمثلة ما نزل أكثر من مرة

٩- صرح أهل العلم بأن من القرآن ما تكرر نزوله(صح)

١٠- قد يكون أمر واحد سببا لنزول آيتين أو آيات متعددة (صح)

المجموعة الثانية: ضع خطا تحت الإجابة الصحيحة

١- الصحيح في سبب نزول سورة الضحى (الجرو الذي مات تحت السرير، مرض رسول الله، غيرهما)

٢- الصحيح في ما قيل في سبب نزول قوله{فأينما تولوا فثم وجه الله}ما رواه (ابن عباس، ابن عمر، قتادة)

٣- المعتمد في سبب نزول قوله تعالى:{وإن كادوا ليفتنونك}أثر ابن عباس في كفار قريش لأنه(أخرجه البخاري، لأنه الصحيح دون غيره، لأن غيره ضعيف)

٤- حديث جابر في سبب نزول {نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم..}مقدم على حديث ابن عمر لأنه(الصحيح وحده، الصريح في السببية، لأنه متأخر عن حديث عبد الله)

٥- الصحيح في مكان نزول قول الله{وإن عاقبتم}أنها (بمكة، بالمدينة يوم أحد، يوم فتح مكة)

٦- قوله تعالى:{ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين..}نزلت في (أبي طالب، أم النبي، الرجل الذي كان يدعوا لوالديه المشركين)

٧- نزلت {وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل} في (مكة، المدينة، مرتين)

٨- قل هو الله أحد (جواب للمشركين بمكة، جواب لليهود بالمدينة، نزلت مرتين)

٩- نزلت آيات اللعان في(عويمر، هلال، فيهما جميعا)

١٠- الحكمة في تعدد النازل والسبب واحد هو(أن الآية الواحدة لا تكفي في البيان، لأنه أبلغ في الإقناع، في الآيات معنى لا تتضمنه الآية)

المجموعة الثالثة: ضع خطا تحت الكلمة المناسبة لملأ الفراغ

١- خادمة النبي صلى الله عليه وسلم كانت تدعى....(أم أيمن، ثويبة، خوله)

٢- قال ابن حجر"قصة ابطاء جبريل بسبب ...مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب" (المرض، السفر، الجرو)

٣- عن ابن عمر قال أنزلت{نساؤكم حرث لكم}في(إتيان النساء في أدبارهن، إتيان النساء في قبلهن من أدبارهن،إباحة الاستمتاع بالمرأة)

٤- إذا كانت الروايات كلها صريحة في السببية ننظر فلعل بعضها قصد به.... (التكثير، نزولها مرتين، التلاوة)

٥- {ويسئلونك عن الروح}نزلت في.... (سؤال كفار قريش، في اليهود بالمدينة، في نصارى نجران)

٦- قال ابن كثير في آية الروح إنما نزلت...ومن استثناها من سورة سبحان ففي قوله نظر(بالمدينة، بمكة، مرتين)

٧- الرجل الذي أصاب من المرأة القبلة فنزلت فيه{أقم الصلاة}يدعى....(أبو اليسر، ابو التيسير، أبو قتادة)

٨- سورة الكوثر نزلت بـ.....(مكة، المدينة، الحديبية)

٩- من أمثلة السبب الواحد تنزل فيه أكثر من آية (سورة الكوثر، فاتحة المجادلة، قول أم سلمة لاأسمع الله ذكر النساء كثيرا)

١٠- القول بأن سورة الكوثر نزلت في....قول فرد لم يرد أي شيء يؤيده (مكة، المدينة، الحديبية)

المحاضرة الثالثة والعشرون

علم أسباب النزول (٣)

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد

فهذه هي المحاضرة الأخيرة في موضوع أسباب النزول نستعرض فيها أمثلة لآيات لم يتضح معناها إلا بمعرفة سبب نزولها والأمثلة كثيرة منها :

ما أشكل على مروان بن الحكم رحمه الله معنى قوله تعالى ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم من سورة آل عمران وقال لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون وبقي في إشكاله هذا حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه أي طلبوا منه أن يحمدهم على ما فعلوا وهنالك زال الإشكال عنه وفهم مراد الله من كلامه هذا ووعيده .

المثال الثاني : قال الله تعالى في سورة البقرة ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله ولسع عليم فهذا اللفظ الكريم يدل بظاهره على أن للإنسان أن يصلي إلى أية جهة شاء ولا يجب عليه أن يولي وجهه شطر البيت الحرام لا في سفر ولا حضر لكن إذا علم أن هذه الآية نازلة في صلاة النافلة على الدابة خاصة أو فيمن صلى باجتهاده ثم بان له خطؤه تبين له أن الظاهر غير مراد ففي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في صلاة النافلة على الراحلة أينما توجهت وقيل عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعذروا كما رواه الواحدي وقيل في الآية غير ذلك

المثال الثالث أشكل على عروة بن الزبير رضي الله عنه أن يفهم فرضية السعي بين الصفا والمروة مع قول سبحانه إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو أعتمر فلا جناح

عليه أن يطوف بهما وإشكاله نشأ من أن الآية الكريمة نفت الجناح ونفي الجناح لا يتفق والفرضية في رأيه وبقي في إشكاله هذا حتى سأل خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فأفهمته أن نفي الجناح هنا ليس نفيا للفرضية إنما هو نفي لما وقر في أذهان المسلمين يومئذ من أن السعي بين الصفا والمروة من عمل الجاهلية نظرا إلى أن الصفا كان عليه صنم يقال له إساف وكان على المروة صنم يقال له نائلة وكان المشركون إذا سعوا بينهما تمسحوا بهما فلما ظهر الإسلام وكسر الأصنام تحرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك فنزلت الآية روى البخاري عن عروة قال قلت لعائشة أرأيت قول الله تعالى إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما فوالله ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفا والمروة قالت بئسما قلت يا ابن أختي إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح عليه ألا يطوف بهما ولكنها أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل فكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك قالوا يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله إن الصفا والمروة من شعائر الله الآية قالت عائشة وقد سن رسول الله الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما انتهى

وهذه الرواية تدل على أن عروة فهم من جملة فلا جناح عليه أن يطوف بهما أن الجناح منفي أيضا عن عدم الطواف بهما وعلى ذلك تنتفي الفرضية وكأنه اعتمد في فهمه هذا على أن نفي الجناح أكثر ما يستعمل في الأمر المباح أما عائشة رضي الله عنها فقد فهمت أن فرضية السعي بين الصفا والمروة مستفادة من السنة وأن جملة فلا جناح عليه أن يطوف بهما لا تنافي تلك الفرضية كما فهم عروة إنما الذي ينفيها أن يقال فلا جناح عليه ألا يطوف بهما وإنما توجه نفي الحرج في الآية عن الطواف بين الصفا والمروة لأن هذا الحرج هو الذي كان واقرا في أذهان الأنصار كما يدل عليه سبب نزول الآية .

المثال الرابع : حكي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معدي كرب أنهما كانا يقولان الخمر مباحة ويحتجان بقوله تعالى ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا الآية

ولو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك وهو أن ناسا قالوا لما حرمت الخمر كيف بمن قتلوا في سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهي رجس فنزلت أخرجه أحمد والنسائي وغيرهما

المثال الخامس : قوله تعالى واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر فقد أشكل معنى هذا الشرط على بعض الأئمة حتى قال الظاهرية بأن الآيسة لا عدة عليها إذا لم ترتب وقد بين ذلك سبب النزول فقد روي أنه لما نزلت الآية التي في سورة البقرة في عدد النساء قالوا قد بقي عدد من عدد النساء لم يذكرن الصغار والكبار فنزلت أخرجه الحاكم عن أبي . فعلم بذلك أن الآية خطاب لمن لم يعلم ما حكمهن في العدة وارتاب هل عليهن عدة أو لا وهل عدتهن كاللاتي في سورة البقرة أو لا فمعنى إن ارتبتم إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتدون فهذا حكمهن .

المثال السادس : قوله تعالى إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ظاهر الآية اتخاذ الأزواج والأولاد أعداء وهذا المعنى غير مراد فقد روى الترمذي وقال : حسن صحيح والحاكم وقال صحيح الإسناد وغيرهما عن ابن عباس أن رجلا سأله عن هذه الآية فقال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا أصحابهم قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم فأنزل الله الآية ثم أنزل في بقيتها ما يدل على الرحمة وترك المؤاخذة فقال وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم .

بقيت مسألة هامة سبق الإشارة إليها وينبغي لنا أن نفردها بالحديث عنها لأهميتها وبها نختم كلامنا عن أسباب النزول وهي :

اختلاف أهل الأصول هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب والأصح الأول وهو قول الجمهور

قال ابن تيمية قد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم هذه الآية نزلت في كذا لا سيما إن كان المذكور شخصا كقولهم إن آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس وإن آية الكلالة نزلت في

جابر بن عبد الله وإن قوله وأن احكم بينهم نزلت في بني قريظة والنضير ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة أو في قوم من اليهود والنصارى أو في قوم من المؤمنين فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ والآية التي لها سبب معين إن كانت أمرا ونهيا فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته انتهى

وقال الزمخشري في سورة الهمزة يجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد عاما ليتناول كل من باشر ذلك القبيح وليكون ذلك جاريا مجرى التعريض

ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائعا ذائعا بينهم .

عن أبي معشر نجيح سمعت سعيد المقبري يذاكر محمد بن كعب القرظي فقال سعيد إن في بعض كتب الله إن لله عبادا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر لبسوا لباس مسوك الضأن من اللين يجترون الدنيا بالدين فقال محمد بن كعب هذا في كتاب الله ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا الآية فقال سعيد قد عرفت فيمن أنزلت فقال محمد بن كعب إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد

فإن قلت فهذا ابن عباس لم يعتبر عموم لا تحسبن الذين يفرحون الآية بل قصرها على ما أنزلت فيه من قصة أهل الكتاب

قلت أجيب عن ذلك بأنه لا يخفى عليه أن اللفظ أعم من السبب لكنه بين أن المراد باللفظ خاص .

ونظيره تفسير النبي ﷺ الظلم في قوله تعالى ولم يلبسوا إيمانهم بظلم بالشرك من قوله إن الشرك لظلم عظيم مع فهم الصحابة العموم في كل ظلم .

وقد ورد عن ابن عباس ما يدل على اعتبار العموم فإنه قال به في آية السرقة مع أنها نزلت في امرأة سرقت فعن نجدة الحنفي قال سألت ابن عباس عن قوله والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما أخاص أم عام قال بل عام

قال الزرقاني :

اعلم أن لفظ الشارع الوارد جوابا لسؤال أو سبب قد يكون مستقلا أو مفيدا وحده بقطع النظر عن السبب أو السؤال الوارد فيه وقد يكون غير مستقل بمعنى أنه لا يفيد إلا إذا لوحظ معه السبب أو السؤال ولكل من هذين النوعين حكمه

فأما الجواب الذي ليس بمستقل فحكمه أنه يساوي السؤال في عمومه باتفاق الأصوليين ويساويه أيضا في خصوصه على الرأي السائد عندهم ، فلو قال سائل هل يجوز الوضوء بماء البحر فأجيب بلفظ بنعم أو لفظ يجوز كان المعنى يجوز الوضوء بماء البحر لكل من أراد من الناس لا لخصوص هذا السائل وذلك لأن السؤال استفهام عن الجواز مطلقا من غير اعتبار خصوص المتكلم فكذلك جوابه لأنه غير مستقل ولو قال السائل توضأت بماء البحر فأجيب بلفظ يجزئك كان معناه أن الوضوء بماء البحر يجزئ السائل وحده لأن السؤال خاص بالمتكلم فكذلك جوابه غير المستقل ، أما غير المتكلم فلا يعلم حكمه من هذا الجواب بل يعلم من دليل آخر كالقياس أو كما روي في الحديث : حكمي على الواحد حكمي على الجماعة . ذلك كله في الجواب غير المستقل

وأما الجواب المستقل فتارة يكون مثل السبب في أن كلا منهما عام أو خاص وحكمه إذن أنه يساويه ، فاللفظ العام يتناول كل أفراد سببه العام في الحكم ، واللفظ الخاص مقصور على شخص سببه الخاص في الحكم ، وهذا محل اتفاق بين العلماء لمكان التكافؤ والتساوي بين السبب وما نزل فيه .

وأمثلة الأول وهو العام فيهما كثيرة منها الآيات النازلة في غزوة بدر والآيات النازلة في غزوة أحد من سورة آل عمران

ومثال الثاني وهو الخاص فيهما قوله سبحانه في سورة الليل وسيجنبها الأتقى الذي يؤتى ماله يتزكى قال الجلال المحلي هذا نزل في الصديق رضي الله عنه لما اشترى بلالا المعذب على

إيمانه وأعتقه فقال للكفار إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده فنزلت وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى

واعلم أن هذا التمثيل لا يستقيم إلا على اعتبار أن أل في لفظ الأتقى للعهد والمعهود هو الصديق رضي الله عنه كما سيأتي بيانه .

وتارة يأتي الجواب المستقل غير متكافئ مع السبب في عمومه وخصوصه   وتحت ذلك صورتان إحداهما عقلية محضة غير واقعة وهي أن يكون السبب عاما واللفظ خاصا   وإنما كانت عقلية محضة وفرضية غير واقعة لأن حكمة الشارع تجل عن أن تأتي بجواب قاصر لا يتناول جميع أفراد السبب أضف إلى ذلك أنه يخل ببلاغة القرآن القائمة على رعاية مقتضيات الأحوال وهل يعقل أن يسأل سائل فيقول مثلا هل يجوز لجماعة المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم ويقاتلوا من قاتلهم فيأتي الجواب قائلا لك أنت أن تدافع عن نفسك وتقاتل من قاتلك

الصورة الثانية هي عموم اللفظ وخصوص سببه وهذه الصورة هي موضوعنا ومعناه أن يأتي الجواب أعم من السبب ويكون السبب أخص من لفظ الجواب   وذلك جائز عقلا وواقع فعلا لأنه لا محظور فيه ولا قصور بل إن عمومه مع خصوص سببه موف بالغاية ومؤد للمقصود وزيادة بيد أن العلماء اختلفوا في حكمه أعموم اللفظ هو المعتبر أم خصوص السبب

ذهب الجمهور إلى أن الحكم يتناول كل أفراد اللفظ سواء منها أفراد السبب وغير أفراد السبب ولنضرب لك مثلا حادثة قذف هلال بن أمية لزوجته وقد نزل فيها قول الله تعالى والذين يرمون أزواجهم نلاحظ فيها أن السبب خاص وهو قذف هلال هذا لكن جاءت الآية النازلة فيه بلفظ عام كما ترى وهو لفظ والذين يرمون أزواجهم   وهو اسم موصول والموصول من صيغ العموم وقد جاء الحكم بالملاعنة في الآية محمولا عليه من غير تخصيص فيتناول بعمومه أفراد القاذفين في أزواجهم ولم يجدوا شهداء إلا أنفسهم سواء منهم هلال بن أمية صاحب السبب وغيره ولا نحتاج في سحب هذا الحكم على غير هلال إلى دليل من قياس أو سواه بل هو ثابت بعموم هذا النص ومعلوم أنه لا قياس ولا اجتهاد مع النص ذلك مذهب الجمهور

وقال غير الجمهور إن العبرة بخصوص السبب ومعنى هذا أن لفظ الآية يكون مقصورا على الحادثة التي نزل هو لأجلها أما أشباهها فلا يعلم حكمها من نص الآية إنما يعلم بدليل مستأنف آخر هو القياس إذا استوفى شروطه أو قوله حكمي على الواحد حكمي على الجماعة فآية القذف السابقة النازلة بسبب حادثة هلال مع زوجه خاصة بهذه الحادثة وحدها على هذا الرأي أما حكم غيرها مما يشبهها فإنما يعرف قياسا عليها أو عملا بالحديث المذكور

ويجب أن نلاحظ أن هذا الخلاف القائم بين الجمهور وغيرهم محله إذا لم تقم قرينة على تخصيص لفظ الآية العام بسبب نزوله أما إذا قامت تلك القرينة فإن الحكم يكون مقصورا على سببه لا محالة بإجماع العلماء

ولعل ثمرة هذا الخلاف ترجع إلى أمرين :

أحدهما أن الحكم على أفراد غير السبب مدلول عليه بالنص النازل فيه عند الجمهور وذلك النص قطعي المتن اتفاقا وقد يكون مع ذلك قطعي الدلالة أما غير الجمهور فالحكم عندهم على غير أفراد السبب ليس مدللا عليه بذلك النص بل القياس أو الحديث المعروف وكلاهما غير قطعي

الثاني أن أفراد غير السبب كلها يتناولها الحكم عند الجمهور ما دام اللفظ قد تناولها أما غير الجمهور فلا يسحبون الحكم إلا على ما استوفى شروط القياس منها دون سواه إن أخذوا فيه بالقياس

استدل الجمهور على مذهبهم بأدلة ثلاثة :

الأول : أننا نعلم أن لفظ الشارع وحده هو الحجة والدليل دون ما احتف به من سؤال أو سبب فلا وجه إذن لأن تخصص اللفظ بالسبب وكيف يسوغ أن نجعل ما ليس حجة في الشرع متحكما بالتخصيص على ما هو الحجة في الشرع والدليل على أن لفظ الشارع وحده هو الحجة أن الشارع قد يصرف النظر عن السؤال ويعدل بالجواب عن سنن السؤال لحكمة نحو قوله تعالى في سورة البقرة يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللولدين

والأقربين واليتامى والمسكين وابن السبيل فإن ظاهر هذه الآية أن النبي سئل عن بيان ما ينفقونه فجاء الجواب ببيان من ينفقون عليهم وذلك من أسلوب الحكيم لأن معرفة مصارف النفقة والصدقة أهم من معرفة المصروف فيهما فإن إصلاح الجماعة البشرية لا يكون إلا عن طريق تنظيم النفقة والإحسان على أساس توجيههما إلى المستحقين دون سواهم وهذا وجه في الآية نراه وجيها وإن كانت الآية قد أشارت إشارة خفيفة إلى بيان ما ينفقونه بقوله سبحانه من خير غير أنها إشارة إجمالية لا تشبع حاجة السؤال .

الدليل الثاني أن الأصل هو حمل الألفاظ على معانيها المتبادرة منها عند الإطلاق أي عند عدم وجود صارف يصرف عن ذلك المتبادر ولا صارف للفظ هنا عن إرادة العموم فلا جرم يبقى على عمومه أما ما يتوهمه المخالفون من أن خصوص السبب صارف عن إرادة العموم فمدفوع بأن مجرد خصوص السبب لا يستلزم إخراج غير السبب من تناول اللفظ العام إياه فلا يصلح أن يكون قرينة مانعة من إرادة ما وضع له اللفظ العام وهو العموم الشامل لجميع الأفراد

الدليل الثالث : احتجاج الصحابة والمجتهدين في سائر الأعصار والأمصار بعموم تلك الألفاظ الواردة على أسباب خاصة في وقائع وحوادث كثيرة من غير حاجة إلى قياس أو استدلال بدليل آخر فاستدلوا بآية السرقة على وجوب قطع كل يد مع أنها نازلة في خصوص سرقة المجن أو رداء صفوان واحتجوا بآيات الظهار على وجوب الكفارة المذكورة فيها والعمل بأحكامها على كل من ظاهر مع أنها نازلة في خصوص من عرفت قبل وكذلك برهنوا بآيات اللعان على شمول حكمه لكل من قذف زوجته ولم يكن معه شهود على حين أنها نازلة في خصوص من ذكرنا سابقا

استند مخالفو الجمهور إلى شبهات خمس لتأييد مذهبهم :

الشبهة الأولى يقولون إن الإجماع قد انعقد على عدم جواز إخراج السبب من حكم العام الوارد على سبب خاص إذا ورد مخصص وذلك يستلزم أن العام مقصور على أفراد السبب

لا يتناول غيرها لأنه لو لم يكن مقصورا عليها لتساوت هي وغيرها في جواز الإخراج عند المخصص وذلك ممنوع للإجماع المذكور

والجواب أن الإجماع المذكور لا يستلزم قصر العام على إفراد الخاص كما يقولون بل هو واقف عند حدود معناه من أن أفراد السبب لا تخرج بالمخصص وذلك المعنى محقق لعدم التساوي بين أفراد السبب وغيرها في حالة الإخراج بالمخصص لكنه لا يمنع دخول غير أفراد السبب في حكم العام إذا تناوله اللفظ وذلك لأدلة الجمهور السابقة

الشبهة الثانية يقولون إن الرواة نقلوا أسباب النزول واهتموا بها وبتدوينها ولا فائدة لذلك إلا ما نذهب إليه من وجوب قصر العام على أفراد سببه الخاص وهذا معنى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ

والجواب أنه لا وجه لكم في أن تجعلوا فائدة نقل الأسباب هي قصر العام على أفراد سببه فإن لأسباب النزول والإحاطة بها علما عن طريق نقل الرواة فوائد عدة ومزايا جمة قد سبق ذكرها .

الشبهة الثالثة يقولون إن تأخير البيان عن وقوع الواقعة وتوجيه السؤال في العام الوارد على سبب يدل على أن العبرة بخصوص السبب لأن تأخير لفظ الشارع إلى ما بعد حدوث سببه يفهم منه أن السبب هو الملحوظ وحده للشارع في الحكم عليه بهذا اللفظ العام النازل فيه وإلا لما ربطه بالسبب بل لأنزله قبله أو أخره عنه

والجواب أنه يكفي في حكمة تأخير البيان إلى ما بعد السبب أن يكون اللفظ العام بيانا له ولو مع ما يشابهه من كل ما يندرج تحت اللفظ العام ولا يستلزم أن يكون بيانا له وحده كما ذكرتم

الشبهة الرابعة يقولون قد اتفقت كلمة الفقهاء على أنه إذا دعا رجل رجلا آخر إلى طعام الغداء وقال له تغد عندي فرفض وقال والله لا أتغدى ولم يقل عندك ثم تناول الغداء عند غير هذا الداعي فإنه لا يحنث وما ذاك إلا لأن هذا اللفظ العام قد تخصص بسببه وهو كلمة تغد عندي التي خص بها الداعي نفسه فكأن الحالف قال لا أتغدى عندك وحدك ولذلك لا يحنث بغدائه عند غيره

والجواب أن حكم الفقهاء في هذا المثال ليس مبنيا على أن كل عام يتخصص بسببه كما فهمتم بل هو مبني على أن هذا المثال وأشباهه تخصص بقرينة خارجة وهي حكم العرف هنا بأن الحالف إنما يريد ترك الغداء عند داعيه فقط وليس كلامنا فيما تخصص بقرينة خارجة سواء أكانت العرف أم سواه فذلك محل وفاق

الشبهة الخامسة يقولون إن التطابق بين السؤال وجوابه واجب في نظر الحكمة وبحكم قانون البلاغة وهذا التطابق لا يستقيم إلا بالتساوي بين لفظ العام وسببه الخاص والتساوي لا يكون إلا إذا خصصنا اللفظ العام بسببه الخاص لا سيما إذا وقع ذلك في كلام الشارع الحكيم .

والجواب أن طرد العام على عمومه لا يخل بمطابقته لسببه الخاص لأن هذه المطابقة تحصل بكون اللفظ أعم من سببه كما تحصل بمساواته إياه فإن المقصود من المطابقة أن يكون اللفظ مبينا لحكم السبب وغير قاصر عن الوفاء به وهو إذا جاء أعم يكون قد وفى بالمراد وزاد

وأخيرا : يقول الزرقاني : قد علمت مما ذكر أن فرض المسألة في لفظ له عموم أما آية نزلت في معين ولا عموم للفظها فإنها تقصر عليه قطعا كقوله تعالى وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى فإنها نزلت في أبي بكر الصديق بالإجماع وقد استدل بها الإمام فخر الدين الرازي مع قوله إن أكرمكم عند الله أتقاكم على أنه أفضل الناس بعد رسول الله ووهم من ظن أن الآية عامة في كل من عمل عمله إجراء له على القاعدة وهذا غلط فإن هذه الآية ليس فيها صيغة عموم إذ الألف واللام إنما تفيد العموم إذا كانت موصولة أو معرفة في جمع _ زاد قوم : أو مفرد بشرط ألا يكون هناك عهد _ واللام في الأتقى ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعل التفضيل إجماعا والأتقى ليس جمعا بل هو مفرد والعهد موجود خصوصا مع ما يفيده صيغة أفعل من التمييز وقطع المشاركة فبطل القول بالعموم وتعين القطع بالخصوص والقصر على من نزلت فيه رضي الله عنه .

قلت : لا يسلم القطع بالخصوص لأن العهد غير مسلم ولذا ذهب كثير من المفسرين إلى القول بالعموم بل بعضهم لم يذكر نزول ذلك في أبي بكر .

ولو قيل بالخصوص فليس المراد أن هذا الحكم لا ينسحب على كل من اتصف بذلك فإن أبا بكر رضي الله عنه من الأمة وما ينطبق عليه ينطبق على سائر أفرادها فكل من فعل فعله جنب النار ، والدليل على شمولية المعنى قوله لا يصلاها إلا الأشقى ولا يقول أحد بأن النار لا يدخلها إلا واحد وهو أبو جهل بل كل من كذب وتولى مثله .

هذا والله تعالى أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الأسئلة :

المجموعة الأولى: ضع علامة صح أمام الجملة الصحيحة

١- من الآيات ما لا يتضح معناها إلا بمعرفة سبب نزولها (صح)

٢- يحق للإنسان أن يصلي إلى أي جهة شاء لقوله تعالى : {فأينما تولوا فثم وجه الله} (خطأ)

٣- لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا نزلت في اليهود (صح)

٤- نزل قوله تعالى{ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا} في من قتلوا في سبيل الله وكانوا يشربون قبل التحريم (صح)

٥- سبب نزول قوله تعالى:{واللائي يئسن من المحيض من نساءكم} استشكال الصحابة في عدة الآيسة والصغيرة بعد آيات العدة في البقرة (صح)

٦- الصحيح عند الجمهور أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ (خطأ)

٧- لم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين (صح)

٨- في قوله تعالى{ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} فهم الصحابة عموم الظلم قبل البيان (صح)

٩- عموم حكم القذف مستفاد من أدلة أخرى خارجة عن الآية عند الجمهور (خطأ)

١٠- الأصل حمل الألفاظ على معانيها المتبادرة منها عند الإطلاق (صح)

المجموعة الثانية: ضع خطا تحت الإجابة الصحيحة

١- اللام في قوله تعالى{وسيجنبها الأتقى} (موصولة، معرفة ، عهدية)

٢- قوله تعالى{فأينما تولوا فثم وجه الله} أريد به (جواز التوجه إلى أي مكان شاء في الصلاة، جواز صلاة النافلة على الراحلة أينما توجهت ، جواز صلاة المحارب إلى أي جهة)

٣- قوله تعالى : إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما أريد به (جواز الطواف بين الصفا والمروة ، إزالة الإشكال عمن تحرج من الطواف بينهما ، بيان عدم الوجوب)

٤- مذهب الظاهرية في الآيسة إذالم ترتب أنها (لا عدة لها، تعتد ثلاثة أشهر، تعتد حولا كاملا)

٥- معنى{إن ارتبتم}(ارتبتم في عدتها، ارتبتم في حكمها بعد نزول عدة البقرة، ارتبتم في مفهوم الآيسة والصغيرة)

٦-قوله تعالى{والذين يرمون أزواجهم} يقصد به(هلال بن أمية، من رمى زوجته في وقت معين، عموم من يرمي زوجته)

٧- الحجة والدليل في النص الشرعي هو (لفظ الشارع، نص السؤال، حالة السائل)

٨- صرف النظر عن السؤال والعدول بالجواب إلى ما هو أهم للسائل (من أساليب القرآن الخاصة ، يسمى أسلوب الحكيم ، يسمى أسلوب التحقير)

٩- اللفظ العام الوارد في شيء ما لا يصرف عن عموميته إلا (نص شرعي، دليل عقلي منطقي، خصوصية السبب)

١٠- الآية النازلة في معين ولا عموم للفظها تعتبر (عامة، خاصة على النازل فيها، منسوخة)

المجموعة الثالثة:ضع خطا تحت الكلمة المناسبة لملأ الفراغ

١- قوله والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ...... (خاص ، عام مخصوص ، عام)

٢- قوله تعالى {لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا } (مقتصر على السبب ، عام في لفظه ومعناه ، عام والمراد باللفظ خاص)

٣- المراد بالظلم في قوله تعالى : ولم يلبسوا إيمانهم بظلم هو .... (الشرك ، ظلم الرجل لنفسه ، جميع أنواع الظلم)

٤- الجواب الذي ليس بمستقل حكمه أنه ...... السؤال في عمومه (يساوي ، لا يساوي ، يخصص)

٥- ذهب الجمهور إلى أن الحكم يتناول ..... أفراد اللفظ (كل ، بعض ، ما نص السبب عليه من)

٦- قوله تعالى ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا فهم منها البعض..... لعدم معرفتهم بسبب نزولها (جواز كل طعام ، إباحة الخمر ، نفي الجناح عن المؤمنين مطلقا)

٧- قال الزمخشري في سورة الهمزة : يجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد ..... (عاما، غير مراد ، منسوخا)

٨- قال محمد بن كعب القرظي "إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون....بعد (خاصة له، عامة، عامة والمراد هو وحده)

٩- قوله تعالى إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم المراد بالعداوة هنا .... (أنهم سبب تعطيلهم عن المسارعة في الخيرات ، أنهم كفار ولا تؤثر قرابتهم في البراءة منهم ، أن بعضهم أعداء وبعضهم أولياء)

١٠- الأرجح في قوله تعالى : وسيجنبها الأتقى أنها ..... بأبي بكر الصديق (خاصة ، غير خاصة ، لا تتعلق)

المحاضرة الرابعة والعشرون

الحروف المقطّعة التي في أوائل السور (١)

***

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فسيكون حديثنا -إن شاء الله تعالى- في هذه المحاضرة والتي تليها، عن آخر موضوعات هذا الفصل الدراسي الأول، وهو الحروف المقطعة التي في أوائل السور .

والحديث عنها سوف نجعله مرتباً في نقاط معينة:

أولاً: في وقوعها في القرآن.

استفتح الله جل وعلا بعض سور القرآن بحروف التهجي، نحو{ :الم{، }المص{، }المر{، }كهيعص{، }طه{، }طس{، }طسم{،{ حم{، }حمعسق{، }ق{، }ن{، وذلك في تسع وعشرين سورة. قال الزمخشري: وإذا تأملت الحروف التي افتتح الله بها السور، وجدتَّها نصف أسامي حروف المعجم: أربعة عشر: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والخاء، والقاف، والنون، في تسع وعشرين: عدد حروف المعجم. ثم تجدها مشتملة على أصناف أجناس الحروف: المهموسة، والمجهورة، والشديدة، والمطبقة، والمستعلية، والمنخفضة، وحروف القلقلة. ثم إذا استقريت الكلام، تجد هذه الحروف هي أكثر دوراً مما بقي، ودليله: أن الألف واللام لما كانت أكثر تداوراً، جاءت في معظم هذه الفواتح. فسبحان الذي دقّتْ في كل شيء حكمته! انتهى .

قال الزركشي: قيل: وبقي عليه من الأصناف الشديدة، والمنفتحة، وقد ذكر تعالى نصفها. أما حروف الصفير فهي ثلاثة، ليس لها نصف فجاء منها: السين، والصاد، ولم يبق إلا الزاي. وكذلك الحروف اللينة ثلاثة، ذكر منها اثنين: الألف، والياء. أما المكرر: وهو الراء والهاوي- وهو الألف-، والمنحرف -وهو اللام-، فذكرها. ولم يأت خارجاً عن هذا النمط إلا ما بين الشديدة والرخوة، فإنه ذكر فيه أكثر من النصف. وهذا التداخل موجود في كل

قسم قبله، ولولاه لما انقسمت هذه الأقسام كلها. ووهم الزمخشري في عدد حروف القلقلة، إنما ذكر نصفها، فإنها خمسة ذكر منها حرفان: القاف والطاء.

وقال القاضي أبو بكر: إنما جاءت على نصف حروف المعجم، كأنه قيل من زعم أن القرآن ليس بآية، فليأخذ الشطر الباقي ويركب عليه لفظاً معارضة للقرآن.

قال الزركشي: واعلم أن الأسماء المتهجاة في أول السور ثمانية وسبعون حرفاً، فالكاف والنون كل واحد في مكان واحد، والعين والياء والهاء والقاف كل واحد في مكانين، والصاد في ثلاثة، والطاء في أربعة، والسين في خمسة، والراء في ستة، والحاء في سبعة، والألف واللام في ثلاثة عشر، والميم في سبعة عشر .

وجملتها من غير تكرار: أربعة عشر حرفاً، يجمعها قولك :نص حكيم قاطع له سر.، ومنهم من ضبطها بقوله: طرق سمعك النصيحة، وصُنْ سراً يقطعك حمله، وعلى صراط حق يمسكه، وقيل غير ذلك...

ثم بنيتها ثلاثة: حروف موحدة: ص ق ن، وعشرة مثنى{ :طه}،{ طس}،{ يس}، {حم}، واثنا عشر مثلثة الحروف{ :الم{ }الر{ }طسم{، واثنان حروفها أربعة{ :المص{ }المر{، واثنان حروفها خمسة{ :كهيعص{ }حمعسق{.

وأما ما بدئ بحرف واحد فاختلفوا فيه: فمنهم: من لم يجعل ذلك حرفاً، وإنما جعله اسماً لشيء خاص. ومنهم: من جعله حرفاً، وقال: أراد أن يتحقق الحروف مفردها ومنظومها . قال: فأما ما ابتدئ بثلاثة أحرف ففيه سر، وذلك أن الألف إذا بدئ بها أولاً كانت همزة، وهى أول المخارج من أقصى الصدر. واللام من وسط مخارج الحروف، وهى أشد الحروف اعتماداً على اللسان. والميم آخر الحروف، ومخرجها من الفم. وهذه الثلاثة هي أصل مخارج الحروف، أعنى :الحلق واللسان والشفتين، وترتبت في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية. فهذه الحروف تعتمد المخارج الثلاثة التي يتفرع منها ستة عشر مخرجاً ليصير منها تسعة وعشرون حرفاً، عليها مدار كلام الخلق أجمعين، مع تضمنها سراً عجيباً، وهو أن الألف للبداية، واللام للتوسط، والميم للنهاية. فاشتملت هذه الأحرف الثلاثة على: البداية، والنهاية، والواسطة بينهما. وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف، فهي مشتملة على مبدأ الخلق ونهايته وتوسطه، مشتملة على خلق العالم وغايته، وعلى التوسط بين البداية من

الشرائع والأوامر؛ فتأمل ذلك في: البقرة، وآل عمران، وتنزيل السجدة، وسورة الروم.
قال: وتأمل اقتران الطاء بالسين، والهاء في القرآن، فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها، وهى: الجهر والشدة والاستعلاء والإطباق والإصمات، والسين: مهموس رخو مستفل صفير منفتح، فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء، فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف.
وتأمل السورة التي اجتمعت على الحروف المفردة، كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك{ :ق { وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}، فإن السورة مبنية على الكلمات القافيّة من ذكر القرآن، ومن ذكر الخلق، وتكرار القول ومراجعته مراراً، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملَكين، وقول العتيد، وذكر الرقيب، وذكر السابق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرن، والتنقيب في البلاد، وذكر القتل مرتين، وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسى فيها، وبسوق النخل والرزق، وذكر القوم، وخوف الوعيد، وغير ذلك .
وسر آخر: وهو أن كل معاني السورة مناسب لما في حرف القاف من الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح .
وإذا أردت زيادة إيضاح، فتأمل ما اشتملت عليه سورة{ :ص }من الخصومات المتعددة: فأولها خصومة الكفار مع النبي –صلى الله عليه وسلم– وقولهم{ :أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً } إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم، وهو الدرجات والكفارات، ثم تخاصم إبليس واعتراضه على ربه وأمره بالسجود، ثم اختصامه ثانياً في شأن بنيه، وحلفه ليغوينّهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم.

ثانياً :في عدّها آية، وفي قراءاتها، وفي رسمها، وما إلى ذلك...

أخرج وكيع، وعبد بن حميد، عن أبي عبد الرحمن السلمي، أنه كان يعد{ الم }آية، و{حم } آية.
قال الناظم:

ما بدؤه حرف التهجي الكوف عد	لا الوتر مع طاسين مع ذي الرا اعتمد
وأول الشورى لحمصي يعد	موافقا للكوف فيما قد ورد

فالكوفيون يعدّون جميعها آية، مثل{ :الم}،{ المص}،{ يس}،{ حم}، ما عدا المفرد منها مثل{ :ق}،{ ص}،{ ن}، وكذا{ :طس}، وكذا ذوات الراء، مثل{ :الر.}
ووافقهم الحمصيون في عدّ أول الشورى آيتين وهما{ :حم}،{ عسق.}
وقرأ{ :الم }بالسّكت على كل حرف من حروفها الثلاثة: أبو جعفر، من العشرة؛ ووجه ذلك: أنها ليست حروف المعاني، بل هي مفصولة وإن اتصلت رسماً، وفي كل واحد منها سر لله تعالى، أو كل حرف منها كناية عن اسم لله تعالى، كما يأتي في تفسيرها.
ووردت الإمالة، أو التقليل، لجماعة من القراء في الحاء، والراء، والطاء، والهاء، والياء، من هذه الحروف.
وما كان في هذه الحروف به حرف مدّ فيُمد مداً مشبعاً لدى جميع القراء، وفي العين وجهان: التوسط، والإشباع.
وإذا وصل القارئ فاتحة آل عمران بما بعدها، فتح الميم، تخلصاً من التقاء الساكنين، ولا يكسرها حفاظاً على تغليظ اللام في لفظ الجلالة، هكذا{ الٓمٓ } اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .}
وهذه الفواتح الشريفة على ضربين :أحدهما :مالا يتأتى فيه إعراب، نحو{ :كهيعص } و{آلم .}
والثاني :ما يتأتى فيه، وهو إما أن يكون اسماً مفرداً ك{ص }و{ق }و{ن}، أو أسماء عدة، مجموعها على زنة مفرد، مثل{حم }و{طس}و{يس}، فإنها موازنة لقابيل وهابيل، وكذلك{طسم }يتأتى فيها أن تفتح نونها فتصير ميم مضمومة إلى طس فيجعلا اسما واحداً.
فالنوع الأول محكي ليس إلا، وأما النوع الثاني فسائغ فيه الأمران: الإعراب والحكاية .
ويوقف على جميعها وقف التمام، إن حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده؛ وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور، وينعق بها كما ينعق بالأصوات، أو جعلت وحدها أخبار

ابتداء محذوف كقوله تعالى{ :الم الله }أي: هذه السورة{ :الم}، ثم ابتدأ فقال{ :اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .}

كما أنها كتبت في المصاحف الشريفة على صورة الحروف أنفسها، لا على صورة أساميها؛ واتباع خط المصحف سنة لا تخالف.

ثالثاً :في فضل تلاوتها :

وأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي وصححه، وابن الضريس، ومحمد بن نصر، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو ذر الهروي في فضائله، والبيهقي في شُعب الإيمان، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–من قرأ حرفاً من كتاب الله، فله به حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، لا تقول} :الم {حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف .((

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والدارمي، وابن الضريس، والطبراني، ومحمد بن نصر، عن ابن مسعود موقوفاً مثله

وأخرج محمد بن نصر، وأبو جعفر النحاس في كتاب الوقف والابتداء، والخطيب في تاريخه، وأبو نصر السجزي في الإبانة، عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم)) :–اقرؤوا القرآن، فإنكم تؤجرون عليه. أما إني لا أقول} :الم {حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر؛ فتلك ثلاثون .((

وأخرج ابن أبي شيبة، والبزار، والمرهبي في فضل العلم، وأبو ذر الهروي، وأبو نصر السجزي بسند ضعيف، عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم :–))من قرأ القرآن، كتب الله له بكل حرف حسنة. لا أقول} :الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ {حرف، ولكن الألف حرف، والذال والألف والكاف .((

وأخرج محمد بن نصر، والبيهقي في شُعب الإيمان، والسجزي، عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–من قرأ حرفاً من القرآن، كتب الله له به حسنة. لا أقول بسم الله، ولكن باء وسين وميم، ولا أقول} :الم{، ولكن الألف واللام والميم.((

وأخرج محمد بن نصر السلفي في كتاب الوجيز في ذكر المجاز والمجيز، عن أنس بن مالك عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال)) :من قرأ حرفاً من القرآن، كتب الله له عشر حسنات، بالباء والتاء والثاء .((

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف، وأبو نصر السجزي، عن ابن عمر قال: "إذا فرغ الرجل من حاجته، ثم رجع إلى أهله، ليأت المصحف، فليفتحه، فليقرأ فيه؛ فإن الله سيكتب له بكل حرف عشر حسنات. أما أني لا أقول} :الم{، ولكن الألف عشر، واللام عشر، والميم عشر ."

وأخرج أبو جعفر النحاس في الوقف والابتداء، وأبو نصر السجزي عن قيس بن سكن، قال: قال ابن مسعود: "تعلّموا القرآن، فإنه يكتب بكل حرف منه عشر حسنات، ويكفّر به عشر سيئات. أما أني لا أقول} :الم {حرف، ولكن أقول: ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر."

قلت: من الممكن أن تقرأ} :الم {في هذه الآثار، أو في بعضها} :ألم{، كما في افتتاح سورة الشرح وسورة الفيل، فتكون أوضح في الدلالة على أجر الحرف.

قال أبو السعود} :الم {الالفاظ التي يعبر بها عن حروف المعجم التي من جملتها المقطّعات المرقومة في فواتح السور الكريمة أسماء لها، لاندراجها تحت حد الاسم، ويشهد به: ما يعتريها من التعريف والتنكير والجمع والتصغير، وغير ذلك من خصائص الاسم؛ وقد نص على ذلك أساطين أئمة العربية. وما وقع في عبارات المتقدمين، من التصريح بحرفيتها، محمول على المسامحة. وأما ما روي عن ابن مسعود –رضي الله عنه– من أنه –صلى الله عليه وسلم– قال :))من قرأ حرفاً من كتاب الله، فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول} :الم {حرف، بل ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف .((وفي رواية الترمذي والدارمي)) :لا أقول} :الم { حرف، وذلك الكتاب حرف، ولكن الألف حرف، واللام حرف، والميم حرف، والذال حرف، والكاف حرف ((، فلا تعلق له بما نحن فيه قطعاً .فإن إطلاق الحرف على ما يقابل الاسم والفعل، عرف جديد اخترعه أئمة الصناعة، وإنما الحرف عند الأوائل ما يتركب منه الكلم من الحروف المبسوطة، وربما يطلق على الكلمة أيضاً تجوزاً؛ فأريد بالحديث الشريف دفع

توهم التجوز، وزيادة تعيين إرادة المعنى الحقيقي، ليتبين بذلك أن الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية، بل بعدد حروفها المكتوبة في المصاحف.

وقال الآلوسي: يحكى عن الخليل: أنه سأل أصحابه: كيف تنطقون في الباء من ضرب والكاف من لك؟ فقالوا: باء كاف. فقال: إنما جئتم بالاسم لا الحرف، وأنا أقول: بَهْ، كَهْ.

وما روي عن ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه–، قال: سمعت رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم– يقول)) :من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى، فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول} الم {حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف((، فالمراد به غير المصطلح؛ إذ هو عرف جديد، بل المعنى اللغوي، وهو واحد حروف المباني. فمعنى ألف حرف... إلخ: مسمى ألف، وهكذا ...ولعله –صلى الله تعالى عليه وسلم– سمّى ذلك حرفاً باسم مدلوله، فهو معنى حقيقي له... فإن أريد من} أَلَمْ {مفتتح سورة الفيل، يكون المراد أيضاً منه مسماه، وتكون الحسنات ثلاثين. وفائدة النفي دفع توهم أن يكون المراد بالحرف فيمن قرأ حرفاً الكلمة، وإن أريد نحو ما هنا، فالمراد نفسه، ويكون عدد الحسنات حينئذ تسعين.

قلت: ونستخلص من ذلك ويؤكده: الروايات المذكورة لهذه الحديث: أن العشر حسنات على كل حرف لا على قولك: ألف، من قوله تعالى} :الم{، بل قولك: ألف. يقابله ثلاثون حسنة: عشر حسنات لكل حرف من حروفه الثلاث المنطوقة .

وهكذا في بقية الحروف –والله أعلم.–

رابعاً :في معرفة معناها.

اختلف المفسرون في الحروف المقطّعة التي في أوائل السور: فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه، فردوا علمها إلى الله، ولم يفسروها.

ذكره القرطبي عن أبي بكر وعلي، بصيغة التمريض. وذكره الرازي فقال: وقال أبوبكر الصّدّيق –رضي الله عنه–: "في كل كتاب سر، وسره في القرآن: أوائل السور". وقال علي– رضي الله عنه–: "إن لكل كتاب ،صفوة وصفوة هذا الكتاب :حروف التهجي ."

ولم أقف له على إسناد، ولا أراه إلا موضوعاً .

وأما عمر، وعثمان، وابن مسعود، فذكره القرطبي قائلاً :وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، أنهم قالوا: "الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسّر ."اهـ. هكذا بدون إسناد، ولا أراه يصح.

وقال القرطبي أيضاً: قال عامر الشعبي، وسفيان الثوري، وجماعة من المحدِّثين: "هي سر الله في القرآن. ولله في كل كتاب من كتبه سر. فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه؛ ولا يجوز أن تكلم فيها، ولكن نؤمن بها وتقرأ كما جاءت". اهـ. وليس في تفسير سفيان شيء من ذلك.

أما الشعبي فقد روى ذلك عنه ابن المنذر، وأبو الشيخ في التفسير من طريق داود بن أبي هند قال: "كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور، قال: يا داود إن لكل كتاب سراً، وإن سر هذا القرآن فواتح السور فدعها، وسل عما بدا لك."

ولم أقف على بقية سنده، للنظر فيه. وهذا يعارض ما صح عن الشعبي في تفسيرها، وسوف يأتي. أما سفيان فلم أر من أسند ذلك عنه .

وقد ذكر ابن كثير أن القرطبي نقله عن الربيع بن خثيم، وليس كما ذكر، وإنما ذكر عنه أثراً في المتشابه، وهو ما رواه أبو بكر الأنباري بسنده عنه قال: "إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر عنه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء. فأما ما استأثر به لنفسه، فلستم بنائلين فلا تسألوا عنه، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه وتخبرون به. وما بكل القرآن ما تعلمون تعملون". وإسناده صحيح .

فالقول الأول :لم يثبت فيه شيء عن أحد من السلف. وأخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان، قال: "المتشابهات فيما بلغنا{ :الم }و{المص }و{المر }و{الر"}

وأصحاب هذا القول اعتبروا ذلك من المتشابه المذكور في قوله{مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ.}

فإن قيل: ما الحكمة في إنزال المتشابه ممن أراد لعباده به البيان والهدى؟

قلت: إن كان مما يمكن علمه، فله فوائد .

منها :الحث للعلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه، والبحث عن دقائقه؛ فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب .

ومنها :ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات، إذ لو كان القرآن كله محكماً لا يحتاج إلى تأويل ونظر، لاستوت منازل الخلق، ولم يظهر فضل العالِم على غيره .

وإن كان مما لا يمكن علمه، فله فوائد .

منها :ابتلاء العباد بالوقوف عنده، والتوقف فيه، والتفويض والتسليم والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة، كالمنسوخ. وإن لم يجز العمل بما فيه، وإقامة الحجة عليهم، لأنه لما نزل بلسانهم ولغتهم، وعجزوا عن الوقوف على معناه مع بلاغتهم وأفهامهم، دل على أنه نزل من عند الله، وأنه الذي أعجزهم عن الوقوف على معناه.

وقد اختاره أبو حاتم ابن حبان، وكأن الحافظ ابن كثير مال إليه حيث قال، بعد أن ذكر الخلاف: من ها هنا لحظ بعضهم في هذا المقام كلاماً، فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدًى. ومن قال من الجهلة: إنه في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية، فقد أخطأ خطأ كبيراً؛ فتعيّن أن لها معنى في نفس الأمر. فإن صح لنا عن المعصوم فيها شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا{ :آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا] }آل عمران:٧]. ولم يجمع العلماء فيها (على) شيء معين، وإنما اختلفوا؛ فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبيّن .

القول الثاني :هي اسم من أسماء الله تعالى، وألفاظ الروايات تحتمل أن الاسم يتكون من حروفها، أو أن كل حرف منها يشير لاسم من الأسماء، أو أنها يركّب منها اسم الله الأعظم .

ثبت ذلك عن ابن عباس وعن ابن مسعود.

رواه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس" :هو قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله تعالى ."وإسناده حسن.

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس{ :الم}، قال: "أنا الله أعلم" . وفي إسناده عطاء بن السائب، ويشهد له بقية الطرق.

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره، من طريق أبي الضحى، عن ابن عباس في قوله{ :الم}، قال: "أنا الله أعلم"، وفي قوله{ :المص}، قال: "أنا الله أفصل"، وفي قوله{ :الر" }أنا الله أرى ."

وأخرج من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله{ :الم }و{حم }و{ن}، قال: "اسم مقطع ."

وأخرج من طريق عكرمة، عن ابن عباس، قال{" :الر }و{حم }و{ن :}حروف الرحمن مفرقة ."

ورواه ابن جرير عن شعبة، قال: سألت السدي عن{ :حم }و{طس }و{الم}، فقال: قال ابن عباس: "هي اسم الله الأعظم". وهو منقطع.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، من طريق سعيد بن جبير عنه، قال{ :الم}،{ حم}، {ن}، قال: "اسم مقطع ."وأخرج ابن مردويه عنه، قال: "فواتح السور كلها من أسماء الله تعالى ."

ورواه ابن جرير عن مرة الهمداني، قال: قال عبد الله ... :فذكر نحوه. وإسناده جيد. وقال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم{ :–الم}، قال)) :أما{ الم}، فهي حروف استفتحت من حروف هجاء اسم الله تعالى .((وهو إسناد فيه خلط، وبالنسبة لابن عباس وابن مسعود فقد مر ما يشهد له .

وحكي عن علي، فقال الرازي: روي عن علي –عليه السلام– أنه كان يقول" :يا كهيعص، يا حم عسق "

قلت: أخرج ابن جرير، وابن ماجة في تفسيره، عن فاطمة بنت علي، قالت: كان علي يقول: "يا كهيعص، اغفر لي. وإسناده ضعيف .

وقد سبق النقل عن علي أنه كان لا يفسرها، ولا يصح أيضاً.

وأخرج الحاكم وغيره من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس في{ :كهيعص}، قال: "الكاف من كريم، والهاء من هاد، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق ."

وأخرج الحاكم أيضاً، من وجه آخر، عن سعيد عن ابن عباس، في قوله{ :كهيعص}، قال : "كاف هاد أمين عزيز صادق ."

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وناس من الصحابة، في قوله{ :كهيعص }قال: "هو هجاء مقطع: الكاف من الملك، والهاء من الله، والياء والعين من العزيز، والصاد من المصوِّر ."

وأخرج عن محمد بن كعب مثله، إلا أنه قال: والصاد من الصمد .

وأخرج سعيد بن منصور، وابن مردويه من وجه آخر، عن سعيد، عن ابن عباس، في قوله : {كهيعص}، قال: "كبير هاد أمين عزيز صادق ."

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، في قوله{ :كهيعص}، قال: "الكاف الكافي، والهاء الهادي، والعين العالم، والصاد الصادق ."

وأخرج من طريق يوسف بن عطية، قال: سئل الكلبي عن{ :كهيعص}، فحدث عن أبي صالح عن أم هانىء عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :كاف هاد أمين عالم صادق .((

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله{ :كهيعص}، قال: "يقول أنا الكبير الهادي، عليٌّ أمين صادق."

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير، في قوله{ :حم}، قال: "حاء اشتقت من الرحمن، وميم اشتقت من الرحيم."

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس في قوله{ :كهيعص}، قال: "يا من يجير ولا يجار عليه ."

وأخرج عن أشهب قال: "سألت مالك بن أنس: أينبغي لأحد أن يتسمى ب"يس"؟ فقال: ما أراه ينبغي، لقول الله{ :يس } وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ}، يقول: هذا اسم تسميت به."

وقال الشعبي: فواتح السور من أسماء الله تعالى، أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم؛ وهو صحيح .

وكذلك قال سالم بن عبد الله، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير.

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال{ :الر }من الرحمن .

وأخرج عنه أيضاً قال{ :المص :}الألف من الله، والميم من الرحمن، والصاد من الصمد.

وأخرج عن محمد بن كعب، في قوله{ :حم عسق}، قال: الحاء والميم من الرحمن، والعين من العليم، والسين من القدّوس، والقاف من القاهر .

وأخرج أيضاً عن الضحاك في قوله{ :المص}، قال: أنا الله الصادق، وقيل{ :المص }معناه: المصوِّر، وقيل{ :الر }معناه: أنا الله أعلم وأرفع. حكاهما الكرماني في غرائبه .

وأخرج عن محمد بن كعب، في قوله{ :طه}، قال: "الطاء من ذي الطول". وأخرج عنه أيضاً في قوله{ :طسم}، قال" :الطاء في ذي الطول، والسين من القدوس، والميم من الرحمن ".

وأخرج عن سعيد بن جبير في قوله{ :حم}، قال: "حاء اشتقت من الرحمن، وميم اشتقت من الرحيم"،

وأخرج عن محمد بن كعب، في قوله{ :حمعسق }قال: "الحاء والميم من الرحمن، والعين من العليم، والسين من القدوس، والقاف من القاهر ."

وأخرج عن مجاهد، قال: "فواتح السور كلها هجاء مقطع ."

وأخرج عن سالم بن عبد الله قال{" :الم }و{حم }و{ن}، ونحوها: اسم الله مقطعة."

وأخرج عن السدي، قال: "فواتح السور أسماء من أسماء الرب جل جلاله، فرقت في القرآن "

وحكى الكرماني في قوله{ :ق :}إنه حرف من اسمه قادر وقاهر .

وحكى غيره في قوله{ :ن :}إنه مفتاح اسمه تعالى نور وناصر .

القول الثالث :هو قسم أقسم الله به:

تقدم في رواية علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وقد جمع فيه بين كونه من أسماء الله، وبين كونه قسماً، ولا يمتنع ذلك.

وروى ابن أبي حاتم، وابن جرير، عن عكرمة أنه قال{" :الم }قسم". وإسناده صحيح .

القول الرابع :أسماء للسور:

قال ابن كثير: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "إنما هي أسماء السور."

قلت: أخرجه ابن جرير بإسناد صحيح، عنه رواية عن أبيه، عندما سئل عنها، وليس قولاً عنه مجرداً. وروايته عن أبيه ضعيفة.

وقال الزمخشري في تفسيره: وعليه إطباق الأكثر، ونقله عن سيبويه أنه نص عليه.

قال ابن كثير: ويعتضد هذا بما ورد في الصحيحين، عن أبي هريرة)) :أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة،{ الم }السجدة و{هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ .((}

قلت: وهذا ليس بمتجه، فإنه سمّى سورة الإنسان بجزء من أول آياتها، ولم يقل أحد بأن ذلك اسم للسورة، كما أنه قال{ :الم }السجدة، ولم يجتزئ بالحروف فقط، للاشتباه.

وعن مجاهد أنه قال{ :الم }و{حم }و{المص }و{ص}؛ فواتح افتتح الله بها. أخرجه ابن جرير، وإسناده صحيح.

وفي رواية عنه أنه قال{ :الم :}اسم من أسماء القرآن. وإسنادها صحيح أيضاً.

وهكذا قال قتادة .

قال ابن كثير: "ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه اسم من أسماء السور، فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن، فإنه يبعد أن يكون{ المص }اسماً للقرآن كله، لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت{ المص}، إنما ذلك عبارة) عن سورة الأعراف، لا لمجموع القرآن –والله أعلم .–

ونكتفي بهذا القدر في هذه المحاضرة، ونستكمل البقية في المحاضرة القادمة –إن شاء الله تعالى.–

الأسئلة :

المجموعة الأولى: ضع علامة صح أمام الجملة الصحيحة

١– الحروف التي افتتح الله بها السور نصف أسامي حروف المعجم (صح)

٢– فواتح السور تشتمل على أصناف أجناس الحروف كالجهر والهمس وغير ذلك (صح)

٣– الجيم من الحروف المقطعة في أوائل السور(خطأ)

٤– قولك : صن سرا يقطعك حمله . جمعت فيه حروف فواتح السور (صح)

٥– فواتح السور تعتبر آية عند جميع أهل العلم (خطأ)

٦– الفواتح الشريفة على ضربين ما يتأتى فيه إعراب ومالا يتأتى فيه (صح)

٧– حث العلماء على النظر في فوائد المتشابه الذي يمكن معرفته (صح)

٨– في كل كتاب سر وقيل إن سر الله في القرآن فواتح السور (صح)

٩– "حم" قيل اشتقت الحاء من الرحمن واشتقت الميم من الرحيم (صح)

١٠- مما ثبت عن جماعة من السلف في معاني الحروف المقطعة أنها اسم من أسماء الله تعالى (صح)

المجموعة الثانية: ضع خطا تحت الإجابة الصحيحة

١- قرأ ألم بالسكت على كل حرف من حروفها الثلاثة أبو جعفر ووجه ذلك أنها (ليست حروف المعاني ، ليست مفصولة ، غير متصلة رسما)

٢- من قال : إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية (فهو مصيب ، فهو مخطئ ، فقد ذهب لقول معتبر عند أهل العلم)

٣- الحكمة في كون عدد الحروف المقطعة نصف حروف الهجاء قيل إنه (وقع عرضا، للتجميل والزينة ، لتحدي المعارض أن يأتي بمثل القرآن من النصف الباقي)

٤- إذا وصل القارئ فاتحة آل عمران بما بعدها ..... الميم تخلصا من التقاء الساكنين (فتح ، كسر ، ضم)

٥- الفواتح المفردة في أوائل السور من حيث الإعراب وعدمه (معربة، محكية، يجوز فيها الإعراب والحكاية)

٦- ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه من فوائد (المحكم ، المتشابه الذي لا يمكن معرفته، المتشابه الذي يمكن معرفته)

٧- قيل في معنى فواتح السور أنها (مما استأثر الله بعلمه ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، أسماء الملائكة)

٨- الراجح أن قول القارئ الم في فواتح السور يأخذ عليه من الأجر (ثلاثين حسنة ، تسعين حسنة ، عشر حسنات)

٩- "أنا الله أفصل" مما روي عن ابن عباس في معنى (الم، المص، طسم)

١٠- حديث : من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشرة أمثالها (صحيح ، ضعيف ، لا يثبت سندا ومعناه صحيح)

المجموعة الثالثة: ضع خطا تحت الكلمة المناسبة لملأ الفراغ

١- الحروف المقطعة في أوائل السور ....حروف المعجم (نصف، ثلث، ربع)

٢- القول بأن فواتح السور مما استأثر الله بعلمه ...... عن جماعة من السلف (لم يثبت فيه شيء ، قول ثابت ، هو الراجح)

٣- قيل إن كل سورة استفتحت بـ ...... فهي مشتملة على مبدأ الخلق ونهايته وتوسطه (الم ، حم ، الر)

٤- " نص حكيم قاطع له سر"جمعت فيه....(أسماء السور المقطعة، أحرف الحروف المقطعة، الحروف الباقية من حروف الهجاء سوى فواتح السور)

٥- السورة التي افتتحت بحرف مفرد يلاحظ أن هذا الحرف ..... فيها (لا يتكرر ، يتكرر ، لا يكاد يوجد)

٦- "كهيعص" من حيث الإعراب ....(معربة، محكية، يجوز فيها الإعراب والحكاية)

٧- إنزال المتشابه في القرآن ...... فله فوائد (إن كان مما يمكن علمه ، إن كان مما لا يمكن علمه ، سواء أكان مما يمكن علمه أم لا)

٨- إطلاق الحرف على ما يقابل الاسم والفعل ..... (ثابت في الحديث النبوي ، عرف جديد اخترعه أئمة الصناعة ، اصطلاح من المصطلحات الشرعية)

٩- قيل إن من معاني فواتح السور أنها من أسماء السور وهو قول ...... (فيه نظر، قوي متجه ، باطل)

١٠- مما ثبت عن ابن عباس في الحروف المقطعة أنها ..... (قسم أقسم الله به ، مما استأثر الله بعلمه ، اسم للسورة)

المحاضرة الخامسة والعشرون

الحروف المقطّعة التي في أوائل السور (٢)

***

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فنستكمل حديثنا عن أقوال العلماء في الحروف المقطّعة في أوائل السوَر وقد مضى معنا في المحاضرة الفائتة أربعة أقوال :

تابع رابعاً: الأقوال في معرفة معناها .

القول الخامس :أنها للدلالة على مدة:

فالعرب لهم حساب يسمى حساب الجمل، وذلك أنهم يحسبون كل حرف من حروف أبي جاد بما يقابله من العدد، ابتداء من واحد إلى عشرة، ثم عشرين إلى مائة، ثم مائتين... إلخ .

فمن: أ، ب، ج، د، هـ، و، ز، ح، ط، ي: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠. ك، ل، م، ن، ص: ٢٠، ٣٠، ٤٠، ٥٠، ٦٠، وهكذا...

فروى محمد بن إسحاق بن يسار –صاحب المغازي–، قال: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رياب، قال)) :مرّ أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود، برسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو يتلو فاتحة سورة البقرة} :الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ{، فأتى أخاه حيي بن أخطب في رجال من اليهود، فقال: تعلمون والله، لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله عليه} :الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ{، فقال: أنت سمعته؟ قال: نعم. قال: فمشى حيي بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا محمد، ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك} :الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ{؟ فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: بلى. فقالوا: جاءك بهذا جبريل من عند الله؟ فقال: نعم. قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء، ما نعلمه بيّن لنبيّ منهم ما مدة ملكه، وما أجل أمته غيرك. فقال حيي بن أخطب –وأقبل على من كان معه– فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون؛ فهذه إحدى وسبعون سنة. أفتدخلون في دين نبي إنما مدة مُلكه وأجل أمّته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فقال: يا محمد. هل مع هذا غيره؟ فقال: نعم. قال: ما ذاك؟ قال} :المص .{قال: هذا

أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد ستون؛ فهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة. هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: نعم. قال: ما ذاك؟ قال} :الر .{قال: هذا أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مئتان؛ فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. فهل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: نعم} .المر .{قال: فهذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان؛ فهذه إحدى وسبعون ومائتان. ثم قال: لقد لبّس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندري أقليلاً أُعطيتَ أم كثيراً. ثم قال: قوموا عنه. ثم قال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الأحبار :ما يدريكم؟ لعله قد جمع هذا لمحمد كله: إحدى وسبعون، وإحدى وثلاثون ومائة، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع سنين، فقالوا: لقد تشابه علينا أمره. فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم} :هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ] .({آل عمران:٧ .[

هكذا ذكره ابن كثير، بعد أن قال :وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادّعى ما ليس له، وطار في غير مطاره. وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته .

ثم قال عقِبه: فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به. ثم كان مقتضى هذا المسلك -إن كان صحيحاً- أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها، وذلك يبلغ منه جملة كثيرة. وإن حسبت مع التكرر، فأطم وأعظم، والله أعلم.

قال السيوطي: وقد استخرج بعض الأئمة من قوله تعالى} :الم * غُلِبَتِ الرُّومُ{، أن البيت المقدس تفتحه المسلمون في سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة، ووقع كما قاله .

وقال السهيلي: لعل عدد الحروف التي في أوائل السوَر، مع حذف المكرر، للإشارة إلى مدة بقاء هذه الأمة.

قال ابن حجر: وهذا باطل لا يعتمد عليه؛ فقد ثبت عن ابن عباس –رضي الله عنه– الزجر عن عدّ أبي جاد، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر، وليس ذلك ببعيد؛ فإنه لا أصل له في الشريعة.

وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي في فوائد رحلته: ومن الباطل: علْم الحروف المقطّعة في أوائل السور. هكذا نقل السيوطي.

قلت: الحديث المذكور أخرجه ابن إسحاق في السيرة، وضعفه السيوطي أيضاً من هذه الطريق. وقول الحافظ ابن كثير :مداره على محمد بن السائب، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به، منتقض بروايته من طريق أخرى في مغازي يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس وجابر بن رئاب به نحوه؛ وهذا إسناد حسن، فصّلتُ القول فيه في صحيح السيرة، وله شاهد عن ابن جريج مرسلاً، أخرجه ابن المنذر في تفسيره.

ولا مانع من ذلك شرعاً أو عقلاً، إلا أن الحديث لا دلالة فيه على معنى الحروف المقطّعة، وإنما ذلك فهم فهمه اليهود من عند أنفسهم، ربما كان صحيحاً، وربما كان خطأ –والله أعلم.–

وقال ابن فارس: وهو قول حسن لطيف، لأن الله تعالى أنزل على نبيه الفرقان، فلم يدع نظماً عجيباً ولا علماً نافعاً إلا أودعه إياه، علِم ذلك مَن علِمه، وجهله مَن جهله.

القول السادس :أنها هجاء موضوع، وأظنه يعود إلى أنه من المتشابه لا يُعلم معناه، فهو كمن فسّر الماء بالماء:

عن مجاهد أنه قال: فواتح السور كلها} :ق {و}ص {و}حم {و}طسم {و}الر{، وغير ذلك: هجاء موضوع. أخرجه ابن جرير، وإسناده ضعيف. وقد تقدم عن مجاهد غير هذا القول بسند صحيح.

قال ابن كثير: وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السوَر عن ذكر بواقيها، التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما يقول القائل: ابني يكتب في ا ب ت ث، أي: في حروف المعجم الثمانية والعشرين، فيستغني بذكر بعضها عن مجموعها. حكاه ابن جرير .

وقد سبق ذكر بعض ذلك في بداية حديثنا عنها.

القول السابع :قول جامع:

عن أبي العالية، في قوله تعالى} :الم{، قال: هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفاً، دارت فيها الألسن كلها، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وآجالهم. قال عيسى بن مريم –عليه السلام– وعجِب، فقال :وأعجب أنهم ينطقون بأسمائه، ويعيشون في رزقه، فكيف يكفرون به؟! فالألف مفتاح اسم: الله، واللام مفتاح اسمه :لطيف، والميم مفتاح اسمه: مجيد. فالألف آلاء الله، واللام لطف الله، والميم مجد الله. فالألف سَنَة، واللام ثلاثون (سنة)، والميم أربعون (سنة).

رواه ابن أبي حاتم، وإسناده حسن. وما رواه عن عيسى –عليه السلام– يبدو أنه أخذه من بعض أهل الكتاب، وهو غريب وفيه ركاكة.

قال ابن كثير، بعد أن عزاه لابن جرير: وليس فيه عن أبي العالية، وإنما عن الربيع بن أنس. ثم شرع يوجّه كل واحد من هذه الأقوال، ويوفّق بينها، وأنه لا منافاة بين واحد منها وبين الآخر، وأن الجمع ممكن: فهي أسماء للسوَر، ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السوَر، فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه، وصفة من صفاته، كما افتتح سوراً كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه. قال: ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله، وعلى صفة من صفاته، وعلى مدة، وغير ذلك... (كما ذكره) الربيع بن أنس عن أبي العالية، لأن الكلمة الواحدة تطلق على معانٍ كثيرة، كلفظة "الأمّة"، فإنها تُطلق ويُراد بها: الدّين، كقوله : }إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ] {الزخرف:٢٢،٢٣]. وتُطلق ويُراد بها: الرجل المطيع لله، كقوله} :إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] {النحل:١٢٠]. وتُطلق ويُراد بها: الجماعة، كقوله} :وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ] {القصص:٢٣]، وقوله : }وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً] {النحل:٣٦]. وتُطلق ويُراد بها :الحين من الدهر، كقوله : }وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ] {يوسف:٤٥]، أي: بعد حين –على أصح القولين–. قال: فكذلك هذا .

هذا حاصل كلامه موجّهاً، ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية؛ فإن أبا العالية زعم أن الحرف دل على هذا، وعلى هذا، وعلى هذا معاً، ولفظة "الأمّة" وما أشبهه من الألفاظ المشتركة (في الاصطلاح)، إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام، فأما حمله على مجموع محامله إذا أمكن، فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول، ليس هذا موضع البحث فيها –والله أعلم.–

ثم إن لفظ "الأمة" يدل على كل (من) معانيه في سياق الكلام بدلالة الوضع، فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أوْلى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره، فهذا) مما) لا يُفهم إلا بتوقيف. والمسألة مختلف فيها، وليس فيها إجماع حتى يحكم به .

وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة، فإن في السياق ما يدل على ما حذف، بخلاف هذا، كما قال الشاعر :

قلنا لها: قفي فقالت: قافْ	لا تحسبي أنا نسينا الإيجافْ

تعني: وَقَفتُ .

وقال الآخر :

ما للظليم عال كيف لا يا	ينقدّ عنه جلده إذا يا

قال ابن جرير: كأنه أراد أن يقول :إذا يفعل كذا وكذا، فاكتفى بالياء من يفعل.

وقال الآخر :

بالخير خيرات وإن شراً فا	ولا أريد الشر إلا أن تا

يقول: وإن شراً فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء؛ فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما، ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام –والله أعلم .–

) قال القرطبي: وفي الحديث)) :من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة ((...الحديث. قال شقيق: هو أن يقول في اقتل: اقْ .(

واختار ابن فارس وغيره أن تجعل هذه التأويلات كلها تأويلاً واحداً، فيقال: إن الله جل وعلا افتتح السور بهذه الحروف، إرادة منه للدلالة بكل حرف منها على معانٍ كثيرة، لا على معنى

واحد؛ فتكون هذه الحروف جامعة لأن تكون افتتاحاً، وأن يكون كل واحد منها مأخوذاً من اسم من أسماء الله تعالى، وأن يكون الله -عز وجل- قد وضعها هذا الوضع فسمّى بها، وأن كل حرف منها في آجال قوم وأرزاق آخرين. وهي مع ذلك مأخوذة من صفات الله تعالى في إنعامه وإفضاله ومجده، وأن الافتتاح بها سبب لأن يسمع القرآن من لم يكن سمع، وأن فيها إعلاماً للعرب أن القرآن الدال على نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- بهذه الحروف، وأن عجزهم عن الإتيان بمثله مع نزوله بالحروف المتعالمة بينهم دليلٌ على كفرهم وعنادهم وجحودهم، وأن كل عدد منها إذا وقع أول كل سورة، فهو اسم لتلك السورة .قال: وهذا القول الجامع للتأويلات كلها. والله أعلم بما أراد من ذلك.

خامساً :في الحكمة مِن ذكرها.

ويعرض لنا سؤال، وهو، بغض النظر عن معاني هذه الحروف: ما هي الحكمة من إيرادها، غير ما قدمناه في حكمة المتشابه؟

قال بعضهم: إنما ذُكرت لنعرف بها أوائل السور. حكاه ابن جرير .

قال ابن كثير: وهذا ضعيف، لأن الفصل حاصل بدونها، فيما لم تذكر فيه، وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة .

وقال آخرون: بل ابتُدِئ بها لتَفتح لاستماعها أسماعَ المشركين، إذ تواصَوا بالإعراض عن القرآن؛ حتى إذا استمعوا له، تلا عليهم المؤلف منه. حكاه ابن جرير أيضاً .

قال ابن كثير: وهو ضعيف أيضاً، لأنه لو كان كذلك، لكان ذلك في جميع السوَر، لا يكون في بعضها؛ بل غالبها ليس كذلك، ولو كان كذلك أيضاً لا نبغي الابتداء بها في أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك .ثم إن هذه السورة والتي تليها -أعني: البقرة وآل عمران- مدنيتان، ليستا خطاباً للمشركين، فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه .

ومثل ذلك، من قال: هي فواتح للسوَر، كما يقولون في أول القصائد: بل، ولا بل .

وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها، بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلْق عاجزون عن معارضته بمثله. هذا مع أنه (رُكّب) من هذه الحروف المقطّعة التي يتخاطبون بها .

قال ابن كثير: وقد حكى هذا المذهب: الرازي في تفسيره عن المبرّد، وجمع من المحققين. وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب، نحو هذا. وقرره الزمخشري في كتابه، ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الشيخ العلامة أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، وشيخنا الحافظ الجهبذ الإمام أبو الحجاج المزي، وحكاه لي عن أبي العباس .

قال الزمخشري: ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت، ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت، كما كررت قصص كثيرة، وكرر التحدي بالصريح في أماكن .

وقد جاء منها على حرف واحد، وحرفين، وثلاثة، وأربعة، وخمسة، كما سبق أن فصّلناه، لأن تركيب كلام العرب على هذا: من الكلمات ما هو على حرف، وعلى حرفين، وعلى ثلاثة، وعلى أربعة، وعلى خمسة، لا أكثر من ذلك .

قال ابن كثير: ولهذا، كل سورة افتتحت بالحروف، فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته؛ وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع؛ ولهذا يقول تعالى} :الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ] {البقرة:١،٢} .[الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ] {آل عمران:١-٣[،} المص *كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ] {الأعراف:١-٢[،} الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ] {إبراهيم:١[،} الم * تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين] {السجدة:١،٢[،} حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] {فصلت:١-٢[،} حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] {الشورى:١-٣]، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم .

وقال غيره: لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولاً متداولاً بينهم، لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي -صلى الله عليه وسلم-، بل تلا عليهم} :حم {فصلت و}ص{، وغيرهما، فلم ينكروا ذلك، بل صرّحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة، مع تشوّفهم إلى عثرة وغيرها، وحرصهم على زلة؛ فدل على أنه كان أمراً معروفاً بينهم، لا إنكار فيه.

وقيل: وهي تنبيهات كما في النداء؛ عدّه ابن عطية مغايراً للقول بأنها فواتح، والظاهر أنه بمعناه .

وقال بعضهم: القول بأنها تنبيهات جيّد، لأن القرآن كلام عزيز، وفوائده عزيزة، فينبغي أن

يرِد على سمع متنبّه؛ فكان من الجائز أن يكون الله قد علم في بعض الأوقات كون النبي –صلى الله عليه وسلم– في عالم البشر مشغولاً، فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله} :الم { و}الر {و}حم{، ليسمع النبي صوت جبريل، فيقبل عليه ويصغي إليه.

قال: وإنما لم تستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه، كـ"ألا "و"أما"، لأنها من الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم، والقرآن كلام لا يشبه الكلام، فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تُعهد، لتكون أبلغ في قرع سمعه .

وقيل: إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغَوْا فيه، فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه، ويكون تعجّبهم منه سبباً لاستماعهم، واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده، فترقّ القلوب وتلين الأفئدة .

وقيل: هي أمارة جعلها الله لأهل الكتاب، أنه سينزل على محمد كتاباً في أوّل سوَر منه حروف مقطّعة.

وقد أطال الآلوسي في ذكر كثير من الغرائب حول هذه الحروف، ولا نطيل بذكر شيء منها، لعدم اعتبارها في الحقيقة.

سادساً: في شبهات حولها.

يقولون: إن القسم المكّيّ من القرآن، قد اشتمل على لغو من الكلام في كثير من فواتح السوَر، مثل} :الم {و}كهيعص{، وذلك يبطل دعوى المسلمين: أن القرآن بيان للناس وهدى، وأنه كلام الله؛ وأي بيان وأي هدى في قوله} :الم{، وقوله} :كهيعص{؟ بل هذه الأحرف وأمثالها في غاية البُعد عن الهُدى، بدليل أنه لم يهتدِ أحد منهم، ولا الراسخون في العلم لإدراك معناها؛ فالخطاب بها كالخطاب بالمهمَل. وإنما هذه الألفاظ مِن وضع كتبه محمد –صلى الله عليه وسلم– من اليهود، تنبيهاً على انقطاع كلام واستئناف آخر، ومعناها أوعز إلي محمد، أو أمرني محمد، يشيرون بذلك إلى براءتهم من الإيمان بما يأمرهم بكتابته .

وقريب من هذا: قول بعضهم: إن الحروف العربية غير المفهومة، المفتتح بها أوائل بعض السور، إما أن يكون قصَد منها التعمية، أو التهويل، أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف، أو هي رمز للتمييز بين المصاحف المختلفة، ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت

قرآنا.

وننقض هذه الشبهة بأمور :

أولها :أنه لم يكن للرسول –صلى الله عليه وسلم– كتبة من اليهود أبداً .

ثانياً :أنه لا دليل لهم أيضاً على أن فواتح هذه السور تُستعمل في تلك المعاني التي زعموها، وهي: أوعز إلي محمد، أو أمرني محمد، لا عند اليهود، ولا عند غيرهم، في أية لغة من لغات البشر .

ثالثها :أن اليهود لم يُعرف عنهم الطعن في القرآن بمثل هذا، ولو كان هذا مطعناً عندهم، لكانوا أول الناس جهراً به وتوجيهاً له، لأنهم كانوا أشد الناس عداوة للنبي –صلى الله عليه وسلم– والمسلمين.

رابعها :أن اشتمال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى، لا ينافي وصف القرآن بأنه بيان للناس وهدى ورحمة؛ فإن هذه الأوصاف يكفي في تحققها: ثبوتها للقرآن باعتبار جملته ومجموعه، لا باعتبار تفصيله وعمومه الشامل لكل لفظ فيه .

وهذا الجواب مبني على أحد الرأيين في فواتح تلك السوَر، وهو: أن المعنى المقصود غير معلوم لنا، بل هو من الأسرار التي استأثر الله بعلمها، ولم يطلع عليها أحد من خلقه، وذلك لحكمة من حِكَمه تعالى السامية، وهي ابتلاؤه سبحانه وتمحيصه لعباده حتى يميز الخبيث من الطيب وصادق الإيمان من المنافق، بعد أن أقام لهم أعلام بيانه، ودلائل هدايته، وشواهد رحمته، في غير تلك الفواتح من كتابه، بين آيات وسوَر كثيرة لا تعتبر تلك الفواتح في جانبها إلا قطرة من بحر، أو غيضاً من فيض. فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذه الفواتح حق من عند ربهم، ولو لم يفهموا معناها، ولم يدركوا مغزاها، ثقةً منهم بأنها صادرة من لدن حكيم عليم، عمّت حكمته ما خفي وما ظهر من معاني كتابه، ووسع علمه كلّ شيء عرفه الخلق أو لم يعرفوه من أسرار تنزيله} .وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ] {البقرة:٢٥٥} .[فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ] {آل عمران:٧ .[

ونظير ذلك: أن يكون لك أصدقاء تريد أن تعرفهم، أو تعرف منهم مدى صداقتهم لك، فتبتليهم بأمور يزلّ عندها المزيّفون، ويظهر الصادقون، على حد قول القائل، وعلى حد المثل القائل: "إن أخاك من واساك."

ابْلُ الرجال إذا أردت إخاءَهمْ	وتوسّمنّ فعالهمْ وتفقّدِ
فإذا ظفرتَ بذي الديانة والتّقَى	فبه اليدين قرير عينٍ فاشدُدِ

ونظير ذلك أيضاً :أن تكون أستاذاً معلماً، وتريد أن تقف على مدى انتباه تلاميذك، ومبلغ ثقتهم فيك وفي علمك، بعد أن زودتهم منك بدراسات واسعة وتعاليم واضحة، فإنك تختبرهم في بعض الأوقات بكلمات فيها شيء من الإلغاز والخفاء، ليظهر الذكي من الغبي، والواثق بك الوامق لك من المتشكك فيك المتردد في علمك وفضلك. فأما الواثق فيك، فيعرف أن تلك الألغاز والمعمّيات صدرت عن علم منك بها، وإن لم يعلم هو تفسيرها، ويعرف أن لك حكمة في إيرادها على هذه الصورة من الخفاء، وهي: الاختبار والابتلاء. وأما المتشكك فيك، فيقول: ماذا أراد بهذا؟ وكيف ساغ له أن يورده؟ وما مبلغ العلم الذي فيه؟ ثم ينسى تلك المعارف الواسعة الواضحة التي زودتَه بها من قبْلِ ذلك، وكلها من أعلام العلم وآيات الفضل. ولا يفوتنك في هذا المقام، أن تعرف أن ابتلاء الله لعباده ليس المراد منه: أن يعلم سبحانه ما كان جاهلاً منهم، حاشاه حاشاه! فقد وسع كل شيء علماً. إنما المقصود منه: إظهار مكنونات الخلق، وإقامة الحجج عليهم من أنفسهم، فلا يتهمون الله في عدله وجزائه إذا جعل من الناس أهلاً لثوابه وآخرين لعقابه،} وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً] {الكهف:٤٩ .[
والرأي الثاني في فواتح السور: أن لها معنى مقصوداً معلوماً، قالوا: لأن القرآن كتاب هداية، والهداية لا تتحقق إلا بفهم المعنى، خصوصاً أننا أُمرنا بتدبّر القرآن والاستنباط منه، وهذا لا يكون إلا إذا فُهم المعنى أيضاً .غير أن أصحاب هذا الرأي تشعبت أقوالهم في بيان هذا المعنى المقصود بفواتح تلك السور .
وقد تقدم ذكر أوجه كلامهم فلا نعيده.

سابعاً :في غرائب تتعلق بها.

فقيل: إن} طه {و}يس {بمعنى: يا رجل، أو يا محمد، أو يا إنسان؛ وقد تقدم في المعرب .
وقيل: هما اسمان من أسماء النبي –صلى الله عليه وسلم .–
قال الكرماني في غرائبه: ويقوّيه في} :يس :{قراءة "يسينَ" –بفتح النون–، وقوله} :آل ياسين .{
وقيل} :طه{، أي: طإِ الأرض، أو اطمئن، فيكون فعل أمر، والهاء مفعول، أو للسكت، أو مبدلة من الهمزة.
أخرج ابن أبي حاتم، من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله} :طه :{هو كقولك : افعل. وقيل} :طه{، أي: يا بدر، لأن الطاء بتسعة، والهاء بخمسة؛ فذلك أربعة عشر، إشارة إلى البدر، لأنه يتم فيها. ذكره الكرماني في غرائبه .
وقيل، في قوله} :يس{، أي :يا سيد المرسلين، وفي قوله} :ص{، معناه: صدق الله .
وقيل: أقسم بالصمد الصانع الصادق. وقيل: معناه: صاد يا محمد عملك بالقرآن، أي عارضه به، فهو أمر من المصادّة .
وأخرج عن الحسين، قال: صاد حادِثِ القرآن. يعني: انظر فيه .
وأخرج عن سفيان بن حسين، قال: كان الحسن يقرؤها: صادِ والقرآن، يقول: عارض القرآن .
وقيل} :ص :{اسم بحر عليه عرش الرحمن. وقيل: اسم بحر يحيي به الموتى .
وقيل: معناه: صاد محمد قلوب العباد. حكاها الكرماني كلّها .
وحكى في قوله} :المص{، أن معناه} :أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ{، وفي} :حمعسق{، أنه جبل قاف .
وقيل} :ق :{جبل محيط بالأرض. أخرجه عبد الرزاق عن مجاهد .
وقيل: أقسم بقوة قلب محمد. وقيل: هي القاف من قوله :قُضي الأمر، دلت على بقية الكلمة. وقيل: معناها: قف يا محمد على أداء الرسالة والعمل بما أمرت. حكاهما الكرماني .
وقيل} :ن {هو: الحوت .أخرج الطبراني عن ابن عباس، مرفوعاً)) :أول ما خلق الله القلم

والحوت .قال: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: كل شيء كائن إلى يوم القيامة .ثم قرأ} :ن وَالْقَلَمِ .{فالنون الحوت، والقاف القلم .((

وقيل: هو اللوح المحفوظ. أخرجه ابن جرير من مرسل ابن قرة، مرفوعاً .

وقيل: هو الدواة. أخرجه عن الحسن وقتادة.

وقيل: هو المداد. حكاه ابن قرصة في غريبه.

وقيل: هو القلم. حكاه الكرماني عن الجاحظ.

وقيل: هو اسم من أسماء النبي –صلى الله عليه وسلم–. حكاه ابن عساكر في مبهماته.

وفي المحتسب لابن جني: أن ابن عباس قرأ} :حمسق {بلا عين، ويقول :السين كل فرقة تكون، والقاف كل جماعة تكون .

قال ابن جني: وفي هذه القراءة دليل على أن الفواتح فواصل بين السوَر، ولو كانت أسماء الله، لم يجز تحريف شيء منها، لأنها لا تكون حينئذ أعلاماً، والأعلام تؤدّى بأعيانها ولا يحرّف شيء منها .

وقال الكرماني في غرائبه، في قوله تعالى} :الم أَحَسِبَ النَّاسُ :{الاستفهام هنا يدل على انقطاع الحروف عما بعدها، في هذه السورة وغيرها .

وقال طنطاوي جوهري، في تفسيره لسورة آل عمران، ما نصه :اعلم أن القرآن كتاب سماوي، والكتب السماوية تصرّح تارة، وترمز تارة أخرى، والرمز والإشارة من المقاصد السامية والمعاني والمغازي الشريفة، وقديماً كان ذلك في أهل الديانات. ألم تر إلى اليهود الذين كانوا منتشرين في المدينة وفي بلاد الشرق أيام النبوة، كيف كانوا يصطلحون فيما بينهم على أعداد الجمل المعروفة اليوم في الحروف العربية، فيجعلون الألف بواحد، والباء باثنين، والجيم بثلاثة، والدال بأربعة، وهكذا... مارين على الحروف الأبجدية إلى الياء بعشرة، والكاف بعشرين، وهكذا إلى القاف بمائة، والراء بمائتين، وهكذا إلى الغين بألف ...كذلك ترى أن النصارى في إسكندرية ومصر، وبلاد الروم، وفي سوريا، قد اتخذوا الحروف رموزاً دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن. وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في مصر، وكانوا يرمزون بلفظ "إكسيس: لهذه الجملة: يسوع المسيح ابن الله المخلص، فالألف من إكسيس هي الحرف

الأول من لفظ إيسوس يسوع، والكاف منها هي الحرف الأول من كرستوس المسيح... إلى آخر ما ذكر. ثم قال :

ولفظ "إكسيس" اتفق أنه يدل على معنى سمكة، فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمزاً لإلههم؛ فانظر كيف انتقلوا من الأسماء إلى الرمز بالحرف، ومن الرمز بالحرف إلى الرمز بحيوان دلت عليه الحروف. قال:... فإذا كان ذلك من طبائع الأمم التي أحاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها، ونزل القرآن لجميع الناس من عرب وعجم، كان لا بد أن يكون على منهج يلذه الأمم، ويكون فيه ما يألفون .

ثم ذكر بعضاً مما قيل فيها، فقال:

الطريقة الأولى :أن تكون هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله، كما روي عن ابن عباس –رضي الله عنهما–... أقول :إنما أراد ابن عباس بذلك أن تكون الحروف مذكِّرة بالله– عز وجل– في أكثر الأحوال، وذكر الله أجل شيء. ويرجع الأمر إلى أنها أسماء مرموز لها بالحروف، كما تقدم عن الأمم السالفة من النصارى في إسكندرية ورومة، ولكن لا بد أن يكون هناك ما هو أعلى وأجل.

الطريقة الثانية :أن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق النبي –صلى الله عليه وسلم–، وهذا مما ترضاه النفوس. ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا مَن تعلم القراءة، وهذا النبي الأمي قد نطق بها .والذي في أول السور: أربعة عشر حرفاً منها، وهي كلها ثمانية وعشرون حرفاً –إن لم تعدّ الألف حرفاً برأسه .–فالأربعة عشر نصفها، وقد جاءت في تسع وعشرين سورة، وهي :عدد الحروف الهجائية –إذا عُدّت فيها الألف–. وقد جاءت من الحروف المهموسة العشرة –وهي: (فحثه شخص سكت)– بنصفها، وهي: الحاء، والهاء، والصاد، والسين، والكاف. ومعلوم أن الحروف إما مهموسة، أي: يضعف الاعتماد عليها –وهي ما تقدم–، وإما مجهورة، وهي: ثمانية عشر، نصفها وهو: تسعة، ذكرت في فواتح السوَر، ويجمعها: (لن يقطع أمر). والحروف الشديدة: ثمانية –وهي: (أجدت طبقك)–، أربعة منها في الفواتح، وهي: (أقطك). والحروف الرخوة: عشرون، وهي الباقية، نصفها عشرة، وهي في هذه الفواتح يجمعها: (حمس على نصره). والحروف المطبقة: أربعة: الصاد والضاد والطاء والظاء، وفي الفواتح نصفها: الصاد والطاء. وبقية الحروف –وهي

أربعة وعشرون حرفاً- تسمى منفتحة، نصفها وهو: اثنا عشر في الفواتح المذكورة. فانظر كيف أتى في هذه الفواتح بنصف الحروف الهجائية -إن لم تعدّ الألف-، وجعلها في تسع وعشرين سورة -عدد الحروف وفيها الألف .-وكيف أتى بنصف المهموسة، ونصف المجهورة، ونصف الشديدة، ونصف الرخوة، ونصف المطبقة، ونصف المنفتحة.

قال: وإني موقن أن المتعلّم لو طُلب منه أن يأتي بهذه الحروف منصفة على هذا الوجه، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ فإنه إن راعى نصف الحروف المطبقة، فكيف يراعي الحروف الشديدة؟ وكيف يراعي نصف المجهورة في نفس العدد؟ إن ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة .

قال: ففيه إعجاز للعقول وحيرة؛ فيقال: كيف تنصّف الحروف الهجائية، وتنصّف أنواعها -من مهموسة، وشديدة... إلخ-، وهذه الأنواع لم يدرسها أحد في العالم أيام النبوة؟ ثم لما ظهرت تلك الدراسات، وافقت تلك الحروف بأنصافها.

الطريقة الثالثة :أن الله تعالى خلق العالم منظماً محكماً متناسقاً متناسباً، والكتاب السماوي إذا جاء مطابقاً لنظامه، موافقاً لإبداعه، سائراً على منهاجه، دل ذلك على أنه من عنده. وإذا جاء الكتاب السماوي مخالفاً لنهجه، منافراً لفعله، منحرفاً عن سننه، كان ذلك الكتاب مصطنعاً مفتعلاً منقولاً مكذوباً} .وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً {]النساء: ٨٢[. والعالم المشاهد فيه عدد الثمانية والعشرين، وذلك فيما يأتي :

-مفاصل اليدين، في كل يد أربعة عشر .

-خرزات عمود ظهر الإنسان، منها أربع عشرة في أسفل الصلب، وأربع عشرة في أعلاه .

-خرزات العمود التي في أصلاب الحيوانات التامة الخلقة، كالبقر، والجمال، والحمير، والسباع، وسائر الحيوانات التي تلد أولادها، منها: أربع عشرة في مؤخر الصلب، وأربع عشرة في مؤخر البدن .

وذكر أمثلة أخرى، ثم قال :

عدد الحروف التي في لغة العرب التي هي أتم اللغات: ثمانٍ وعشرون حرفاً، منها أربعة عشر يدغم فيها لام التعريف، وهي: ت، ث، د، ذ، ر، ز، س، ش، ص، ض، ط، ظ، ل، ن.

وأربعة عشر لا تدغم اللام فيها، وهي: أ، ب، ج، ح، خ، ع، غ، ف، ق، ك، م، ه، و، ي .

والحروف التي تخط بالقلم قسمان: منها أربعة عشر معلّمة بالنقط، وهي: ب، ت، ث، ج، خ، ذ، ز، ش، ض، ظ، غ، ف، ق، ن. وأربعة عشر غير معلمة، وهي: ا، ح، د، ر، س، ص، ط، ع، ك، و، ه، ل، م، لا. وهذا الحرف هو الألف التي هي من حروف العلة، أما الأولى فهي الهمزة؛ فهذه أربعة عشر حرفاً. وبقيت الياء، وهي تنقط في وسط الكلمة، ولا تنقط في آخرها، فأصبحت الحروف المعلّمة أربعة عشر، وغير المعلّمة أربعة عشر. والحرف التاسع والعشرون معلّم وغير معلّم، لتكون القسمة عادلة .

ثم قال: وكأنه تعالى يقول: أي عبادي! فلتعلموا أن هذا القرآن هو تنزيل مني، لأني نظمت حروفه على هذا النمط الذي اخترته في صنع المنازل والأجسام الإنسانية والأجسام الحيوانية، ونظام الحروف الهجائية، فمن أين لبشر كمحمد -صلى الله عليه وسلم- أو غيره، أن ينظم هذا النظام، ويجعل هذه الأعداد موافقة للنظام الذي وضعته، والسنن الذي رسمته؟

ولا شك أن ما ذكره الجوهري فيه توسع وإغراب، كعادته في كتابه، إلا أنه لا مانع من ذكر بعض ذلك استكمالاً لما قيل في هذه الفواتح، وللاستفادة ببعض ما قيل.

وبهذا، نكون قد أتينا على جل أطراف هذا الموضوع، وبه نختتم دراستنا في الفصل الأول لهذا العام. أسأل الله تعالى لكم التوفيق والنجاح في دنياكم وأخراكم، واستودعكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأسئلة :

المجموعة الأولى: ضع علامة صح أمام الجملة الصحيحة

١- ماذكره طنطاوي جوهري في تفسيره عن الحروف المقطعة فيه توسع وإغراب كعادته في كتابه إلا أنه حوى فوائد طيبة تذكر له (صح)

٢- ورد حديث صحيح في أن الفواتح للدلالة على المدد (خطأ)

٣- القول بأن الفواتح لمعرفة المدد فهم فهمه اليهود من عند أنفسهم (صح)

٤- الكلمة الواحدة قد تطلق على عدة معان ومنها لفظة "الأمة " (صح)

٥- القول بأن الفواتح للفصل بين السور قوي جدا لأنه لا يتأتى بدونها (خطأ)

٦- قيل في الحروف المقطعة إنها فواتح للسور كما يقولون في أول القصائد بل ولا بل (صح)

٧- قال المغرضون إن القسم المكي من القرآن قد اشتمل على لغو في فواتحه وهذا ينافي كونه بيانا للناس وقد رد عليهم من أوجه كثيرة (صح)

٨- قيل إن معنى طه طأ الأرض ، أو اطمئن (صح)

٩- قيل إن "المص" معناها "الم نشرح لك صدرك" (صح)

١٠- في الفواتح نصف الحروف المهموسة، والمهجورة، والشديدة، والرخوة(صح)

المجموعة الثانية ضع خطا تحت الإجابة الصحيحة

١- ثبت عن ابن عباس الزجر عن عد أبي جاد لأنه (لا دليل عليه، من السحر، من وحي شياطين الجن)

٢- مما قيل في معاني الحروف المقطعة أنها هجاء موضوع وهو يرجع إلى (أنها من المتشابه، أنها أسماء السور، أسماء النبي)

٣- قال ابن كثير : ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته ، وهذا معلوم (بالاستقراء ، بالنقل الصحيح ، بالبداهة)

٤- مما قيل في الحكمة من الحروف المقطعة أنها (لتعرف بها أوائل السور، لتجزئة القرآن، للتمويه)

٥- المذهب المختار لدى المحققين من أهل العلم في الحروف المقطعة (أنها فواتح للسور، أنها للفصل بين السور، أنها لبيان إعجاز القرآن)

٦- قال الزمخشري"ولم ترد كلها _ أي الحروف المقطعة _ مجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في.....(التحدي والتبكيت، إمتاع السامع، في الوصول للمطلوب)

٧- من غرائب ما قيل في طه ويس أنهما (من أسماء النبي ﷺ ، بمعنى يا ابن آدم، حروف مقطعة)

٨- قال بعض أهل العلم في الحروف المقطعة : لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولا متداولا بينهم لكانوا أول ...... (من آمن بالقرآن ، من أنكر ذلك ، من عارضها)

٩- دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الإضمار فهذا (مما) لا يفهم إلا .... (بتتبع واستقراء ، بتوقيف ، من سياق الكلام)

١٠- قد استخرج بعض الأئمة من قوله تعالى الم غلبت الروم أن البيت المقدس تفتحه المسلمون في سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة ..... (ووقع كما قاله ، ولم يقع كما قاله ، وهو من الخرافات)

المجموعة الثالثة: ضع خطا تحت الكلمة المناسبة لملأ الفراغ

١- العرب لهم حساب يسمى حساب .... يحسبون أعدادا مقابل الحروف (الحروف ، الأعداد ، الجمل)

٢- الحديث الوارد في استدلال اليهود بالحروف على مدة أمة الإسلام الصواب أنه حديث ..... (ضعيف ، لا أصل له ، حسن)

٣- في حساب الجمل يحسبون كل حرف من حروف ..... بما يقابله من العدد ابتداء من واحد إلى عشرة ثم عشرين إلى مائة وهكذا (أبي جاد ، أ ب ت ث ، فواتح السور)

٤- ..... اعتبار الحروف المقطعة للدلالة على المدد شرعا أو عقلا (لا مانع من ، لا يجوز ، من الباطل)

٥- ما نقل عن عيسى ابن مريم أنه قال : فالألف مفتاح اسم الله ، واللام مفتاح اسمه لطيف ، والميم مفتاح اسمه مجيد إلخ .... (قول ثابت ، يبدو أنه منقول عن أهل الكتاب وفيه ركاكة ، ليس بثابت ولكن أسلوبه قوي)

٦- ...... قال ابن فارس فيه : وهو قول حسن لطيف لأن الله تعالى أنزل على نبيه الفرقان فلم يدع نظما عجيبا ولا علما نافعا إلا أودعه إياه . (دلالة الحروف على المدد ، اعتبار الحروف إعجازا لغويا ، دلالة الحروف على معان غريبة)

٧- قال ابن كثير : وأما من زعم أنها دالة على ...... ، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ماليس له ، وطار في غير مطاره (إعجاز القرآن ، معرفة المدد ، أسماء السور)

٨- لفظ الأمة ونحوه يدل على ...... معانيه في سياق الكلام بدلالة الوضع (كل من ، كل ، أفراد من)

٩- قيل إن .....جبل محيط بالأرض (ق، حم عسق، طه)

١٠- ما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فإن ..... ما يدل على ما حذف (في السياق ، في لاحقه ، في أصل وضع الحرف)

نهاية المستوى الأول والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المستوى الثاني

❋❋❋

المحاضرة الأولى

معرفة أول ما نزل من القرآن مطلقا

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

موعدنا في هذه المحاضرة مع علم من علوم القرآن أشرنا إليه باختصار في الفصل السابق وحان موعد الحديث عنه بالتفصيل الآن وهو معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم.

فائدة معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل.

قال الزرقاني:

مدار هذا المبحث على النقل والتوقيف ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة أو الجمع بينها فيما ظاهره التعارض منها.

ومن فوائد الإلمام بأول ما نزل وآخره :تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات على موضوع واحد وكان الحكم في إحدى هذه الآيات يغاير الحكم في الأخرى.

ومن فوائده أيضا :معرفة تاريخ التشريع الإسلامي ومراقبة سيره التدريجي والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام وسياسته في أخذه الناس بالهوادة والرفق والبعد بهم عن غوائل الطفرة والعنف سواء في ذلك هدم ما مردوا عليه من باطل وبناء ما لم يحيطوا بعلمه من حق.

قلت: هذه الفائدة لا تظهر في معرفة أول ما نزل فقط وإنما في معرفة ترتيب نزول السور والآيات فبدهي أنه إذا عرف فقط أن سورة كذا هي أول سورة أنزلت فلن يستفيد من ذلك ما تقدم في كلام الزرقاني –رحمه الله.–

قال: يضاف إلى هاتين الفائدتين فائدة ثالثة هي :إظهار مدى العناية التي أحيط بها القرآن الكريم حتى عرف فيه أول ما نزل وآخر ما نزل كما عرف مكيه ومدنيه وسفريه وحضريه إلى غير ذلك ولا ريب أن هذا مظهر من مظاهر الثقة به ودليل على سلامته من التغيير والتبديل.

قلت: لم يتعرض الزرقاني –رحمه الله –للفائدة الأساس من معرفة هذا العلم والذي يظهر لي أن الوصول لأول ما نزل يبين مدى أهمية هذا المنزل الذي افتتح به التنزيل للبحث عن حكمة تقديمه على غيره ولتكمل العناية به والاهتمام بما جاء فيه.

وأما معرفة آخر مانزل فلما تقدم من معرفة آخر التشريعات وما استقر عليه الأمر فيها.

قال الزرقاني:

وليس من غرضنا في هذا الباب أن نتحدث عن أول ما نزل وآخر ما نزل في كل تعليم من تعاليم الإسلام فتلك غاية بعيدة المدى ومجهود طويل جدير أن يفرد بالتأليف وله مواضع أخرى يمكن طلبه منها.

إنما الميسور لنا أن نحدثك عن أمرين :

أحدهما :أول ما نزل من القرآن على الإطلاق وآخر ما نزل منه على الإطلاق وهذا هو المقصود المهم

الثاني :نماذج من أول ما نزل في بعض الأحكام التشريعية وآخر ما نزل منها أي أوائل وأواخر إضافية مخصوصة ومقيدة ببعض الأحكام .

الخلاف في أول ما نزل والآثار الواردة في ذلك.

اختلف العلماء في أول ما نزل على أربعة أقوال:

الأول: صدر سورة العلق:

قال الزركشي:

أما أوله ففى صحيح البخارى فى حديث بدء الوحى ما يقتضى أن أول ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ {ثم} :الْمُدَّثِّرِ.{

وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث عائشة– رضي الله عنها –صريحا، وقال صحيح الإسناد ولفظ مسلم :أول ما نزل من القرآن} اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ {إلى قوله} :عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {ووقع في صحيح البخاري إلى قوله} :وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ {وهو مختصر وفى الأول زيادة وهى من الثقة مقبولة.

وقال الآلوسي: قيل أول ما نزل صدرها إلى} :مَا لَمْ يَعْلَمْ {في غار حراء ثم نزل آخرها بعد ذلك بما شاء الله تعالى وهو ظاهر ما أخرجه الإمام أحمد والشيخان وعبد بن حميد وعبد الرزاق وغيرهم عن عائشة.

وقال الزرقاني: القول الأول وهو أصحها أنه صدر سورة} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {]العلق [١:إلى قوله سبحانه} :عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ] {العلق.[٥ :

وقال الشنقيطي:

لما كانت هذه السورة هي أول سورة نزلت من القرآن وكانت تلك الآيات الخمس أول ما نزل منها على الصحيح فهي بحق افتتاحية الوحي فكانت موضع عناية المفسرين وغيرهم والكلام على ذلك مستفيض في كتب التفسير والحديث والسيرة.

وقد قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية :إنها من السور التي فيها العجائب وذلك لما جاء فيها من التأسيس لافتتاحية تلك الرسالة العظيمة.

وأما ما ورد من آثار تدلل على ذلك:

فأخرج ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال :أول ما نزل من القرآن بمكة} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ.{

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال :أول سورة نزلت على محمد} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ.{

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال :أول شيء أنزل من القرآن خمس آيات : }اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {إلى قوله} :مَا لَمْ يَعْلَمْ.{

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس وابن الأنباري في المصاحف والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية قال السيوطي: بسند على شرط الصحيح عن أبي رجاء العطاردي قال :كان أبو موسى يقرئنا فيجلسنا حلقا عليه ثوبان أبيضان فإذا تلا هذه السورة اقرأ باسم ربك الذي خلق قال هذه أول سورة أنزلت على محمد –صلى الله عليه وسلم.–

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وصححه عن عائشة قالت :أول ما نزل من القرآن} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ .{

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن عائشة قالت :كان أول ما نزل عليه بعد} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} {ن {و}القلم {و}يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} {وَالضُّحَى.{

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه والبيهقي من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت :أول ما بدئ به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه– وهو التعبد الليالي ذوات العدد –قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال)) :اقرأ قال :قلت ما أنا بقارئ .قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ .فقلت :ما أنا بقارئ .قال :فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد .ثم أرسلني فقال :اقرأ .فقلت :ما أنا بقارئ .فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : }اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {الآية فرجع بها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي .فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى – ابن عم خديجة – وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمي فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى يا ليتني أكون فيها جذعا يا ليتني أكون فيها حيا إذا يخرجك قومك فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–أو مخرجي هم ((قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي .

قال ابن شهاب وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه)) :بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني؛ فأنزل الله} :يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ] {سورة المدثر [٥-١:فحمي الوحي وتتابع.

وأخرج سعيد بن منصور عن عبيد بن عمير قال :جاء جبريل إلى النبي –صلى الله عليه وسلم)) :–فقال له اقرأ قال وما أقرأ فوالله ما أنا بقارئ فقال} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ { فكان يقول هو أول ما أنزل.((

وأخرج ابن أشتة في كتاب المصاحف عن عبيد بن عمير قال جاء جبريل إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– بنمط)) .فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ قال} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ (({فيرون أنها أول سورة أنزلت من السماء.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبيد بن عمير قال :أول ما نزل من القرآن} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {ثم} ن.{

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو عبيد في فضائله عن مجاهد قال :أول ما نزل من القرآن} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ {ثم} ن {والقلم.

وأخرج البيهقي في الدلائل عن محمد بن عباد بن جعفر المخزومي أنه سمع بعض علمائهم يقول كان أول ما أنزل الله على نبيه} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ {إلى} :مَا لَمْ يَعْلَمْ {فقالوا :هذا صدرها الذي أنزل يوم حراء ثم أنزل الله آخرها بعد ذلك ما شاء الله

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن الزهري وعمرو بن دينار أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان بحراء إذ أتاه ملك بنمط من ديباج فيه مكتوب} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ { إلى} :مَا لَمْ يَعْلَمْ.{

وأخرج ابن أشتة عن الزهري مثله .

وأخرج الواحدي عن علي بن الحسين قال أول سورة نزلت بمكة} اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ.{

وأخرج أبو بكر ابن أبيض في جزئه المشهور عن جابر بن زيد قال :أول ما أنزل الله من القرآن بمكة} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ .{

وأخرج الحاكم من طريق عمرو بن جابر أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان بحراء إذ أتاه ملك بنمط من ديباج فيه مكتوب} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {إلى} :مَا لَمْ يَعْلَمْ.{

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن شداد قال)) :أتى جبريل محمدا –صلى الله عليه وسلم– فقال يا محمد اقرأ قال وما أقرأ فضمه ثم قال يا محمد اقرأ قال وما أقرأ قال} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {حتى بلغ} :مَا لَمْ يَعْلَمْ {فجاء إلى خديجة فقال يا خديجة ما أراه إلا قد عرض لي .قالت :كلا والله ما كان ربك يفعل ذلك بك وما أتيت فاحشة قط فأتت خديجة ورقة فأخبرته الخبر قال لأن كنت صادقة إن زوجك لنبي وليلقين من أمته شدة ولئن أدركته لأومنن به قال ثم أبطأ عليه جبريل فقالت خديجة ما أرى ربك إلا قد قلاك .فأنزل الله} :وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى .((}

وأخرج ابن مردويه عن عائشة)) :أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– اعتكف هو وخديجة شهرا فوافق ذلك رمضان فخرج رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وسمع السلام عليكم . قالت :فظننت أنه فجأة الجن .فقال ابشروا فإن السلام خير ثم رأى يوما آخر جبريل على الشمس له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب قال فهبت منه فانطلق يريد أهله فإذا هو بجبريل بينه وبين الباب قال فكلمني حتى أنست منه ثم وعدني موعدا فجئت لموعده واحتبس علي جبريل فلما أراد أن يرجع إذا هو به وبميكائيل فهبط جبريل إلى الأرض وميكائيل بين السماء والأرض فأخذني جبريل فصلقني لحلاوة القفا وشق عن بطني فأخرج منه ما شاء الله ثم غسله في طست من ذهب ثم أعاد فيه ثم كفأني كما يكفأ الإناء ثم ختم في ظهري حتى وجدت مس الخاتم ثم قال لي} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {ولم أقرأ كتابا قط فأخذ بحلقي حتى أجهشت بالبكاء ثم قال لي} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {إلى قوله} :مَا لَمْ يَعْلَمْ {قال فما نسيت شيئا بعده ثم وزنني جبريل برجل فوازنته ثم وزنني بأخر فوازنته ثم وزنني بمائة فقال ميكائيل تبعته أمته ورب الكعبة قال ثم جئت إلى منزلي فلم يلقني حجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله حتى دخلت على خديجة فقالت السلام عليك يا رسول الله.((

وهناك آثار أخرى قد ذكرناها في صحيح السيرة النبوية تؤيد ذلك أيضا.

الثاني: المدثر:

حجة ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال :سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبل؟ قال} :يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ {قلت :أو} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ {قال : أحدثكم ما حدثنا به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–إني جاورت بحراء فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي ثم نظرت إلى السماء فإذا هو يعني جبريل فأخذتني رجفة فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني فأنزل الله} :يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ .(({

الثالث: الفاتحة:

قال في الكشاف :أكثر المفسرين على أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب.

وحجته :ما أخرجه البيهقي في الدلائل والواحدي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال لخديجة)) :إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا .فقالت :معاذ الله ما كان الله ليفعل بك فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له وقالت اذهب مع محمد إلى ورقة فانطلقا فقصا عليه فقال :إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد فأنطلق هاربا في الأفق .فقال :لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني فأخبرني .فلما خلا ناداه يا محمد قل} بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {حتى بلغ} :وَلا الضَّالِّينَ.(({

وهذا الحديث مرسل رجاله ثقات .

الرابع: البسملة:

حكاه ابن النقيب في مقدمة تفسيره قولا زائدا.

وحجته :ما أخرجه الواحدي بإسناده عن عكرمة والحسن قالا :أول ما نزل من القرآن : }بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {وأول سورة} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ .{

وما أخرجه ابن جرير وغيره من طريق الضحاك عن ابن عباس قال :أول ما نزل جبريل على النبي –صلى الله عليه وسلم– قال :يا محمد استعذ ثم قل} :بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.{

وروى عن ابن عباس أنه قال :أول ما نزل جبريل على محمد –صلى الله عليه وسلم– قال له قل يا محمد أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال :قل} بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.{

ولقائل أن يقول: أول ما نزل الاستعاذة بناء على ذلك ولكن كما قال ابن عطية: أجمع العلماء على أن قول القارئ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ليس بآية من كتاب الله.

وروى عمرو بن شرحبيل كما سبق في القول الثالث أن جبريل أول ما جاء النبي –صلى الله عليه وسلم –قال له قل} بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.{

وفي بعض طرق حديث خديجة وحملها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى ورقة أن جبريل قال للنبي عليهما السلام قل} :بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {فقالها فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ الحديث.

قول يعتبر خامسا:

ورد في أول ما نزل حديث آخر روى الشيخان عن عائشة قالت :إن أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام

مناقشة الأقوال وبيان الراجح.

أما القول الأول:

فهو القول الصحيح الذي لا ينبغي خلافه وأدلته كثيرة متضافرة وثابتة وليس عليه أي استشكال.

قال النووي: الصواب أن أول ما نزل اقرأ أي مطلقا.

وقال ابن حجر ردا على قول الزمخشري في الفاتحة: والذي ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول.

وقال السيوطي: وهو الصحيح.

وقال الآلوسي: وبالجملة الصحيح كما قال البعض وهو الذي أختاره أن صدر هذه السورة الكريمة هو أول ما أنزل من القرآن على الإطلاق كيف وقد ورد حديث بدء الوحي المروي عن عائشة من أصح الأحاديث وفيه فجأه الملك فقال اقرأ فقال قلت ما أنا بقارئ ؟

وأما القول الثاني :

فيرد عليه أمور عدة:

قال الزركشي: جمع بعضهم بين الأول والثاني بأن جابرا سمع النبي- صلى الله عليه وسلم - يذكر قصة بدء الوحي فسمع آخرها ولم يسمع أولها فتوهم أنها أول ما نزلت وليس كذلك نعم هي أول ما نزل بعد سورة اقرأ وفترة الوحي لما ثبت في الصحيحين أيضا عن جابر - رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم -كان يحدث عن فترة الوحي قال فى حديثه)) :بينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء ((...وذكر الحديث .

قال: فقد أخبر في هذا الحديث عن الملك الذي جاءه بحراء قبل هذه المرة وأخبر في حديث عائشة أن نزول اقرأ كان في غار حراء وهو أول وحي ثم فتر بعد ذلك وأخبر في حديث جابر أن الوحي تتابع بعد نزول} يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ {فعلم بذلك أن اقرأ أول ما نزل مطلقا وأن سورة المدثر بعده وكذلك قال ابن حبان في صحيحه لا تضاد بين الحديثين بل أول ما نزل} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {بغار حراء فلما رجع إلى خديجة- رضي الله عنها -وصبت عليه الماء البارد أنزل الله عليه في بيت خديجة} يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ {فظهر أنه لما نزل عليه اقرأ رجع فتدثر فأنزل عليه} يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ.{

وقال السيوطي:

أجيب عن هذا الحديث بأجوبة:

أحدها :أن السؤال كان عن نزول سورة كاملة فبين أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة اقرأ فإنها أول ما نزل منها صدرها ويؤيد هذا ما في الصحيحين أيضا عن أبي سلمة عن جابر سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه)) :بينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء ((...الحديث.

ثانيها :أن مراد جابر بالأولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي لا أولية مطلقة .

ثالثها :أن المراد أولية مخصوصة بالأمر بالإنذار وعبر بعضهم عن هذا بقوله أول ما نزل للنبوة }اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ {وأول ما نزل للرسالة} يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ.{

رابعها :أن المراد أول ما نزل بسبب متقدم وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب وأما اقرأ فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم ذكره ابن حجر.

خامسها :أن جابرا استخرج ذلك باجتهاده وليس هو من روايته فيقدم عليه ما روته عائشة قاله الكرماني.

وأحسن هذه الأجوبة الأول والأخير.

قلت: بل الأرجح الثاني لما يأتي.

وقال الآلوسي: اختلف في أول ما نزل منه ففي صحيح مسلم أنه} يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ {وتعقبه النووي في شرحه فقال إنه ضعيف بل باطل والصواب أن أول ما نزل على الإطلاق} اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ {كما صرح به في حديث عائشة وأما} يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ {فكان نزولها بعد فترة الوحي كما صرح به في رواية الزهري عن أبي سلمة عن جابر.

قال: ويعلم منه ضعف الاستدلال على كون سورة المدثر أول نازل من القرآن على الإطلاق بما روي أولا عن جابر كما لا يخفى على الواقف عليه لقوله فيه وهو يحدث عن فترة الوحي وقوله فإذا الملك الذي جاءني بحراء وقوله فحمي الوحي وتتابع أي بعد فترته.

وقال بعضهم: الوجه حمل قول جابر على السورة الكاملة.

وقال النووي: الصواب أن أول ما نزل بعد فترة الوحي يا أيها المدثر.

وقال الزرقاني: فظاهر هذه الرواية يدل على أن جابرا استند في كلامه على أن أول ما نزل من القرآن هو المدثر إلى ما سمعه من رسول الله –صلى الله عليه وسلم –وهو يحدث عن فترة الوحي وكأنه لم يسمع بما حدث به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن الوحي قبل فترته من نزول الملك على الرسول– صلى الله عليه وسلم –في حراء بصدر سورة اقرأ كما روت عائشة فاقتصر في إخباره على ما سمع ظانا أنه ليس هناك غيره اجتهادا منه غير أنه أخطأ في اجتهاده بشهادة الأدلة السابقة في القول الأول ومعلوم أن النص يقدم على الاجتهاد وأن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال فبطل إذا القول الثاني وثبت الأول.

وأما القول الثالث:

فقال البيهقي تعقيبا على مرسل الفاتحة: إن كان محفوظا يحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعدما نزلت عليه اقرأ والمدثر.

وقال الزركشي: قال القاضي أبو بكر في الانتصار وهذا الخبر منقطع.

وقال ابن حجر ردا على قول الزمخشري :أما الذي نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول.

وقال الآلوسي: أما قول من قال من المفسرين أول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر .

وقال: أجيب عن الأثر بأن ما فيه يحتمل أن يكون خبرا عما نزل بعد اقرأ ويا أيها المدثر مع أن غيره أقوى منه رواية وجزم جابر بن زيد بأن أول ما نزل اقرأ ثم} ن {ثم} يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ { ثم} يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ {ثم الفاتحة.

وقال الزرقاني: ولكن هذا الحديث لا يصلح للاحتجاج به على أولية ما نزل مطلقا وذلك من وجهين أحدهما أنه لا يفهم من هذه الرواية أن الفاتحة التي سمعها الرسول –صلى الله عليه وسلم– كانت في فجر النبوة أول عهده بالوحي الجلي وهو في غار حراء بل يفهم منها أن الفاتحة كانت بعد ذلك العهد وبعد أن أتى الرسول– صلى الله عليه وسلم –إلى ورقة وبعد أن سمع النداء من خلفه غير مرة وبعد أن أشار عليه ورقة أن يثبت عند هذا النداء حتى يسمع ما يلقى إليه وليس كلامنا في هذا إنما هو فيما نزل أول مرة.

الثاني أن هذا الحديث مرسل سقط من سنده الصحابي فلا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق في بدء الوحي وهو مرفوع إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فبطل إذا هذا الرأي الثالث وثبت الأول أيضا.

قلت: يأتي الكلام عنه في الترجيح إن شاء الله تعالى.

وأما القول الرابع:

قال السيوطي في البسملة: وعندي أن هذا لا يعد قولا برأسه فإنه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها فهي أول آية نزلت على الإطلاق.

وقال الآلوسي: وبعضهم استدل على أنها– أي الفاتحة –ليست بقرآن في أوائل السور بأنها لم تذكر فيما صح من أخبار بدء الوحي الحاكية لكيفية نزول هذه الآيات كذا أفاده النووي عليه الرحمة ثم قال وجواب المثبتين أنها لم تنزل أولا بل نزلت في وقت آخر كما نزل باقي السورة كذلك وهذا خلاف ما أخرج الواحدي...فذكر الآثار في أولية نزولها.

قال الزرقاني: وهذا الاستدلال مردود من ناحيتين أيضا إحداهما أن الحديث مرسل كسابقه فلا يناهض المرفوع.

الثانية أن البسملة كانت بطبيعة الحال تنزل صدرا لكل سورة إلا ما استثني إذن فهي نازلة مع ما نزل من صدر سورة اقرأ فلا يستقيم اعتبار الأولية في نزولها قولا مستقلا برأسه .

قلت: كذا قال تبعا للسيوطي، والصواب كما سيأتي أن البسملة نزلت للفصل بين السورتين ولم يثبت نزولها في صدر العلق لأنها لم يتقدمها سورة والله أعلم.

وأما القول الخامس:

قال السيوطي تعقيبا على حديث عائشة :قد استشكل هذا بأن أول ما نزل اقرأ وليس فيها ذكر الجنة والنار وأجيب بأن من مقدره أي من أول ما نزل والمراد سورة المدثر فإنها أول ما نزل بعد فترة الوحي وفي آخرها ذكر الجنة والنار فلعل آخرها نزل قبل نزول بقية اقرأ .

الخلاصة:

قال الزركشي: وأثبت الأقاويل} اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ {ويليه في القوة} يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ.{

وطريق الجمع بين الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات} اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ {وأول ما نزل من أوامر التبليغ} يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ {وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة.

وهذا كما ورد في الحديث أول ما يحاسب به العبد الصلاة وأول ما يقضى فيه الدماء وجمع بينهما بأن أول ما يحكم فيه من المظالم التي بين العباد الدماء وأول ما يحاسب به العبد من الفرائض البدنية الصلاة.

وقيل أول ما نزل للرسالة} يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ {وللنبوة} اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ {فإن العلماء قالوا قوله تعالى} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ {دال على نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم– لأن النبوة عبارة عن الوحي إلى الشخص على لسان الملك بتكليف خاص وقوله تعالى} :يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ { دليل على رسالته صلى الله عليه وسلم لأنها عبارة عن الوحي إلى الشخص على لسان الملك بتكليف عام.

قلت: وخلاصتي التي توصلت إليها خلال بحثي في السيرة واشدد عليها بنواجذك :أن أول ما نزل مطلقا صدر سورة العلق من قوله} :اقْرَأْ {إلى قوله} :مَا لَمْ يَعْلَمْ .{وليس في ذلك بسملة وكان ذلك مناما أتاه جبريل بنمط كتبت فيه هذه الآيات تمهيدا لما حصل في اليقظة وكان ذلك في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول على رأس أربعين سنة من مولده صلى الله عليه وسلم.

ودل على ذلك مرسل عبيد بن عمير الذي رواه ابن إسحق مطولا بسند صحيح عنه وذكره بحضرة عبد الله بن الزبير ومن معه فلم ينكر عليه أحد وكما ذهب إلى ذلك ابن كثير والسهيلي.

ودل على ذلك أيضا مرسل سليمان التيمي عند أبي نعيم وغيره وإسناده صحيح وغير ذلك من الآثار الأخرى التي لا نطيل بذكرها.

ثم بعدها بستة أشهر وهي مدة الوحي بالرؤيا وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين من رمضان ليلة الخامس والعشرين وهو معتكف في غار حراء فجأه الملك يقظة بنفس هذه الآيات على ما ثبت في الصحيحين وغيرهما.

وأما بقية السورة فنزلت متأخرة بعد سنوات في قصته صلى الله عليه وسلم مع أبي جهل بعد هجرة الحبشة والإسراء والمعراج وموت أبي طالب.

وفي صبيحة اليوم التالي الثلاثاء الخامس والعشرين من رمضان أتاه جبريل فعلمه الوضوء والصلاة كما دلت عليه أحاديث عدة فصلناها في صحيح السيرة وقال له :قل: بسم الله الرحمن الرحيم.... إلخ الفاتحة. وفقا لما جاء في مرسل أبي ميسرة وهو تابعي مخضرم يقبل مرسله جماعة من أهل العلم وإسناده إليه صحيح وقد قال ابن عطية وغيره: لا يعلم في الإسلام صلاة بغير فاتحة.

فنزلت البسملة معها ليعرف النبي- صلى الله عليه وسلم -فصل هذه السورة عما سبقها وأنها سورة أخرى. لما ثبت عن ابن عباس أن النبي- صلى الله عليه وسلم -لم يكن يعرف فصل السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم كما أخرجه الحاكم وغيره.

ثم انقطع عنه جبريل ثلاث ليال على ما ثبت في عدة روايات وذلك يوم السابع والعشرين والثامن والعشرين والتاسع والعشرين من رمضان لم يأته فيها حتى انقضى الشهر فلما قضى جواره واستبطن الوادي أتاه جبريل بعد هذه المدة التي فتر فيها الوحي بصدر سورة المدثر على ما ثبت في حديث جابر في الصحيح ولم تنزل كلها بل إن في بداياتها قوله: ذرني ومن خلقت وحيدا.... إلخ الآيات ومعلوم سبب نزولها في كلام الوليد بن المغيرة وتأخر ذلك كثيرا.

إذن أول ما نزل مطلقا صدر سورة العلق بدون بسملة.

ثم نزلت البسملة آية مستقلة للفصل بين السور

ثم كانت أول سورة كاملة نزلت بعد ذلك الفاتحة.

ثم فتر الوحي فكان أول ما نزل بعد فترة الوحي صدر سورة المدثر. والله تعالى أعلم.

وللاستزادة لمن يريد يراجع كتابي صحيح السيرة النبوية والله الموفق .

المحاضرة الثانية

معرفة آخر ما نزل من القرآن مطلقا

***

تطرقنا في المحاضرة السابقة إلى معرفة أول ما نزل مطلقا من القرآن وموعدنا اليوم مع معرفة آخر ما نزل مطلقا من القرآن.

الأقوال والآثار في آخر ما نزل مطلقا.

قال الزرقاني:

اختلف العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق واستند كل منهم إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- فكان هذا من دواعي الاشتباه وكثرة الخلاف على أقوال شتى :

الأول :

أن آخر ما نزل قول الله تعالى في سورة البقرة} : وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ] {البقرة .[٢٨١:أخرجه النسائي عن ابن عباس .

وأخرج ابن مردويه نحوه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بلفظ آخر :آية نزلت .

وأخرجه ابن جرير من طريق العوفي والضحاك عن ابن عباس

وقال الفريابي في تفسيره :حدثنا سفيان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال :آخر آية نزلت} :وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ {الآية، وكان بين نزولها وبين موت النبي- صلى الله عليه وسلم- واحد وثمانون يوما.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال :آخر ما نزل من القرآن كله} :وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ {الآية وعاش النبي- صلى الله عليه وسلم- بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول

وأخرج ابن جرير مثله عن ابن جريج .

وأخرج من طريق عطية عن أبي سعيد قال آخر آية نزلت} وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ {الآية.

الثاني:

أن آخر ما نزل هو قول الله تعالى في سورة البقرة أيضا} :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] {البقرة.[٢٧٨:

أخرج البخاري عن ابن عباس قال آخر آية نزلت آية :الربا .

وروى البيهقي عن عمر مثله والمراد بها قوله تعالى} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {وعند أحمد وابن ماجه عن عمر من آخر ما نزل آية الربا.

وعند ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال خطبنا عمر فقال إن من آخر القرآن نزولا آية : الربا .

الثالث:

أن آخر ما نزل آية الدين في سورة البقرة أيضا وهي قوله سبحانه} :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ {إلى قوله سبحانه} :وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {]البقرة[٢٨٢:، وهي أطول آية في القرآن .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن عهدا بالعرش آية الدين.

قال السيوطي: مرسل صحيح الإسناد .

وأخرج أبو عبيد في الفضائل عن ابن شهاب قال آخر القرآن عهدا بالعرش آية :الربا وآية الدين .

الرابع:

أن آخر القرآن نزولا قول الله تعالى في سورة آل عمران :فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ٣ آل عمران ١٩٥ الآية

ودليل هذا القول ما أخرجه ابن مردويه من طريق مجاهد عن أم سلمة أنها قالت آخر آية نزلت هذه الآية} :فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ {إلى آخرها وذلك أنها قالت :يا رسول الله أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت} :وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ] {النساء [٣٢:ونزل} :إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ] {الأحزاب [٣٥:ونزلت هذه الآية فهي آخر الثلاثة نزولا وآخر ما نزل بعد ما كان ينزل في الرجال خاصة.

الخامس:

أنه آية} :وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً] {النساء .[٩٣:

واستدلوا بما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس قال :هذه الآية} :وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ {هي آخر ما نزل وما نسخها شيء .

وعند أحمد والنسائي عنه :لقد نزلت في آخر ما نزل ما نسخها شيء .

السادس:

أن آخر آية نزلت} :يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ] {النساء [١٧٦:وهي خاتمة سورة النساء وأن آخر سورة نزلت سورة براءة.

واستند صاحب هذا الرأي إلى ما يرويه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب أنه قال :آخر آية نزلت} :يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ {وآخر سورة نزلت براءة.

وفي حديث عثمان المشهور :براءة من آخر القرآن نزولا.

السابع:

أن آخر ما نزل :سورة المائدة.

أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة قالت :آخر سورة نزلت المائدة فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه الحديث .

وأخرج الترمذي والحاكم عن عبد الله بن عمرو قال آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح .

قال السيوطي: يعني} :إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ.{

الثامن :

قوله} :فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ {من سورة براءة.

أخرج ابن جرير عن أنس قال قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم)) :–من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض ((قال أنس :وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما نزل} :فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ {الآية.

قال السيوطي: يعني في آخر سورة نزلت .

التاسع :

أن آخر ما نزل هو خاتمة سورة براءة} :لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ] {التوبة [١٢٨:إلى آخر السورة.

رواه الحاكم وابن مردويه عن أبي بن كعب قال :آخر آية نزلت} :لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ {إلى آخر السورة .

وروى عبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن مردويه عن أبي أنهم جمعوا القرآن في خلافة أبي بكر وكان رجال يكتبون فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة} :ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ {ظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن .فقال لهم أبي بن كعب : إن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– أقرأني بعدها آيتين} لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ { إلى قوله} :وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {وقال :هذا آخر ما نزل من القرآن قال :فختم بما فتح به بالله الذي لا إله إلا هو وهو قوله} :وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ.{

وأخرج ابن مردويه عن أبي أيضا قال :آخر القرآن عهدا بالله هاتان الآيتان} :لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ {وأخرجه ابن الأنباري بلفظ أقرب القرآن بالسماء عهدا.

وأخرج أبو الشيخ في تفسيره من طريق علي بن زيد عن يوسف المكي عن ابن عباس قال آخر آية نزلت}:لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ.{

العاشر:

أن آخر ما نزل هو آخر سورة الكهف} :فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً] {الكهف.[١١٠:

قال السيوطي :ومن غريب ما ورد في ذلك ما أخرجه ابن جرير عن معاوية بن أبي سفيان أنه تلا هذه الآية} :فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ {الآية .وقال إنها آخر آية نزلت من القرآن.

الحادي عشر :

أن آخر ما نزل هو سورة} :إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْح] {النصر:١.[

أخرج مسلم عن ابن عباس قال :آخر سورة نزلت}:إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْح] {النصر:١ .[

وأخرج الترمذي والحاكم عن عبد الله بن عمرو قال آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح.

قال السيوطي كما تقدم: يعني} :إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ.{

وأخيرا: جاء في البرهان لإمام الحرمين أن قوله تعالى} :قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً { الآية من آخر ما نزل.
وتعقبه ابن الحصار بأن السورة مكية باتفاق ولم يرد نقل بتأخر هذه الآية عن نزول السورة بل هي في محاجة المشركين ومخاصمتهم وهم بمكة .

مناقشة الأقوال وبيان الراجح.

قال البيهقي :يجمع بين هذه الاختلافات إن صحت بأن كل واحد أجاب بما عنده.
وقال القاضي أبو بكر في الانتصار :هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- وكل قاله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي- صلى الله عليه وسلم- في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو ويحتمل أيضا أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول- صلى الله عليه وسلم- مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب انتهى
قال الزرقاني :وكأنه يشير إلى الجمع بين تلك الأقوال المتشعبة بأنها أواخر مقيدة بما سمع كل منهم من النبي- صلى الله عليه وسلم- وهي طريقة مريحة غير أنها لا تلقي ضوءا على ما عسى أن يكون قد اختتم الله به كتابه الكريم
وأما من حيث المناقشة:
فالأقوال الثلاثة الأولى :يمكن الجمع بينها بما قاله السيوطي- رحمه الله –قال: ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا واتقوا يوما وآية الدين لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ولأنها في قصة واحدة فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر وذلك صحيح.
وقال ابن حجر في شرح البخاري طريق الجمع بين القولين في آية الربا واتقوا يوما أن هذه الآية هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن.
قال الزرقاني :ولكن النفس تستريح إلى أن آخر هذه الثلاثة نزولا هو قول الله تعالى} :وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ] {البقرة .[٢٨١:

وذلك لأمرين:

أحدهما :ما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي والدين بسبب ما تحث عليه من الاستعداد ليوم المعاد وما تنوه به من الرجوع إلى الله واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها .

ثانيهما :التنصيص في رواية ابن أبي حاتم السابقة على أن النبي– صلى الله عليه وسلم– عاش بعد نزولها تسع ليال فقط ولم تظفر الآيات الأخرى بنص مثله.

وأما الرابع :فمن السهل رد الاستدلال بهذا الخبر على آخر ما نزل مطلقا وذلك لما يصرح به الخبر نفسه من أن الآية المذكورة آخر الثلاثة نزولا وآخر ما نزل بالإضافة إلى ما ذكر فيه النساء أي فهي آخر مقيد لا مطلق وليس كلامنا فيه.

وأما الخامس :فلا يخفى عليك أن كلمة وما نسخها شيء تشير إلى أن المراد من كونها آخر ما نزل أنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمدا لا آخر ما نزل مطلقا.

وأما السادس :فيمكن نقض هذا الاستدلال بحمل الخبر المذكور على أن الآية آخر ما نزل في المواريث وأن السورة آخر ما نزل في شأن تشريع القتال والجهاد فكلاهما آخر إضافي لا حقيقي.

قال ابن حجر :ويجمع بين ذلك وبين قول البراء بأن الآيتين نزلتا جميعا فيصدق أن كلا منهما آخر بالنسبة لما عداهما ويحتمل أن تكون الآخرية في آية النساء مقيدة بما يتعلق بالمواريث بخلاف آية البقرة ويحتمل عكسه والأول أرجح لما في آية البقرة من الإشارة إلى معنى الوفاء المستلزمة لخاتمة النزول انتهى.

وأما السابع :فيمكن رده بأن المراد أنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام فلم تنسخ فيها أحكام وعليه فهي آخر مقيد كذلك.

وأما الثامن :فالمراد واضح من كونها من آخر ما نزل وليست الآخر مطلقا ولأنها في سورة براءة وهي من آخر ما نزل كما تقدم.

وأما التاسع :فيمكن نقضه بأنها آخر ما نزل من سورة براءة لا آخر مطلق ويؤيده ما قيل من أن هاتين الآيتين مكيتان بخلاف سائر السورة ولعل قوله سبحانه} :فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ

اللَّهُ] {التوبة [١٢٩:الخ، يشير إلى ذلك من حيث عدم الأمر فيه بالجهاد عند تولي الأعداء وإعراضهم .

وأما العاشر :فقال ابن كثير هذا أثر مشكل ولعله أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها بل هي مثبتة محكمة .ا هـ .وهو يفيد أنها آخر مقيد لا مطلق.

وأما الحادي عشر :فتستطيع أن تحمل هذا الخبر على أن هذه السورة آخر ما نزل مشعرا بوفاة النبي –صلى الله عليه وسلم.–

ويؤيده ما روي من أنه– صلى الله عليه وسلم)) :–قال حين نزلت نعيت إلي نفسي ((وكذلك فهم بعض كبار الصحابة كما ورد أن عمر– رضي الله عنه– بكى حين سمعها وقال : الكمال دليل الزوال.

ويحتمل أيضا أنها آخر ما نزل من السور فقط ويدل عليه رواية ابن عباس آخر سورة نزلت من القرآن جميعا} :إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ] {النصر .[١:

فتلك أحد عشر قولا عرفتها وعرفت توجيهها ورأيت أن الذي تستريح إليه النفس منها، هو : أن آخر القرآن نزولا على الإطلاق قول الله في سورة البقرة} :وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ] {البقرة [٢٨١:وأن ما سواها أواخر إضافية أو مقيدة بما علمت.

هذا من ناحية آخر مانزل مطلقا من الآيات وأما آخر مانزل مطلقا من السور فالراجح فيه أنها سورة إذا جاء نصر الله والفتح كما تقدم في القول الحادي عشر ومناقشته والله سبحانه وتعالى اعلم

نكتفي بهذا القدر في هذه المحاضرة وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

المحاضرة الثالثة

أوائل وأواخر مخصوصة وما نزل موافقا لبعض الصحابة

***

في هذه المحاضرة نضع بين يديك هنا أمثلة من أوائل وأواخر مخصوصة ببعض الأحكام الشرعية لنلحظ فيهما سير التشريع الإسلامي وتدرجه الحكيم ثم نعرج على مبحث في الآيات التي نزلت موافقة لبعض الصحابة :

أوائل مخصوصة.

أول ما نزل في القتال:

لم يشرع الجهاد دفاعا في صدر الإسلام على الرغم من أن الأذى كان يصب على المسلمين من أعدائهم صبا بل كان الله يأمر بالعفو والصفح، ومن ذلك قوله سبحانه في سورة البقرة : }وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {]البقرة [١٠٩:فكانت أمرا صريحا لهم بالعفو والصفح حتى يأتي الله بأمره فيهم من القتال ويتضمن ذلك النهي عن القتال حتى يأتي أمر الله.

ثم شرع القتال دفاعا في السنة الثانية من الهجرة بقوله تعالى في سورة الحج} :أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ {]الحج.[٤١-٣٩:

ثم حض الله على القتال حضا شديدا في آخر الأمر وأمر بالنفير للغزو ومقاتلة المشركين كافة فنزلت سورة براءة وهي من آخر ما نزل من القرآن.

وفيها قوله سبحانه} :وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً] {التوبة [٣٦:وقوله : }انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ] {التوبة [٤١:وقوله} :إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] {التوبة.[٣٩:

روى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس قال :أول آية نزلت في القتال} :أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا.{

وعن أبي العالية قال :أول آية نزلت في القتال بالمدينة} :وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ {وفي الإكليل للحاكم إن أول ما نزل في القتال} :إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.{أول ما نزل في الخمر:

وكذلك تدرج الله سبحانه وتعالى في تحريم الخمر وقد كان العرب مولعين بها قالت عائشة – رضي الله عنه–ا: ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا :لا ندع الخمر أبدا.

فروى الطيالسي في مسنده عن ابن عمر قال نزل في الخمر ثلاث آيات فأول شيء : }يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ {الآية .فقيل :حرمت الخمر فقالوا يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله)) فسكت عنهم ((ثم نزلت هذه الآية} :لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى { فقيل :حرمت الخمر فقالوا يا رسول الله :لا نشربها قرب الصلاة)) .فسكت عنهم ((ثم نزلت} :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ {فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم :–))حرمت الخمر.((

أول ما نزل في شأن القتل:

عن الضحاك أول ما نزل في شأن القتل آية الإسراء} :وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً {الآية.

أول آية نزلت في الأطعمة بمكة:

آية الأنعام} :قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً {ثم آية النحل} :فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً {إلى آخرها وبالمدينة آية البقرة} :إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ {الآية ثم آية المائدة} :حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ {الآية قاله ابن الحصار.

أول سورة فيها سجدة:

وروى البخاري عن ابن مسعود قال أول سورة أنزلت فيها سجدة النجم.

أول ما نزل من سورة براءة:

عن مجاهد في قوله} :لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ {قال :هي أول ما أنزل الله من سورة براءة.

وعن أبي الضحى قال :أول ما نزل من براءة} :انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً {ثم نزل أولها ثم نزل آخرها.

وعن أبي مالك قال كان أول براءة} :انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً {سنوات.

وعن عامر الشعبي في قوله} :انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً {قال هي أول آية نزلت في براءة في غزوة تبوك فلما رجع من تبوك نزلت براءة إلا ثمان وثلاثين آية من أولها.

أول مانزل من آل عمران:

عن سعيد بن جبير قال :أول ما نزل من آل عمران} :هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ {ثم أنزلت بقيتها يوم أحد.

وعن علي بن الحسين يقول :أول سورة نزلت بمكة :اقرأ باسم ربك، وآخر سورة نزلت بها : المؤمنون .ويقال :العنكبوت،، وأول سورة نزلت بالمدينة :ويل للمطففين، وآخر سورة نزلت بها براءة وأول سورة أعلنها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بمكة النجم.

وفي شرح البخاري لابن حجر :اتفقوا على أن سورة البقرة أول سورة أنزلت بالمدينة وفي دعوى الاتفاق نظر لقول علي بن الحسين المذكور.

أواخر مخصوصة.

تقدم أن آخر ما نزل في الخمر} :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ.{

وسبق في محاضرة فائتة أن آخر ما نزل في القتل} :وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً .{

واختلفوا في آخر ما نزل بمكة فقال ابن عباس العنكبوت وقال الضحاك وعطاء المؤمنون.

وقال مجاهد المطففين.

وعن علي بن الحسين: آخر سورة نزلت بها المؤمنون ويقال العنكبوت.

والمطففين قال ابن عباس مدنية إلا قوله تعالى} :إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا {إلى آخرها.

وقيل مكية إلا قوله تعالى} :إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ.{

وقيل نزلت بالهجرة بين مكة والمدينة.

نصفها يقارب مكة ونصفها الآخر يقارب المدينة.

شبهة تعرض لها السيوطي وتبعه غيره كالزرقاني حول تعيين آخر ما نزل من القرآن.

قالوا لماذا لا تكون آية المائدة آخر ما نزل من القرآن وهي قوله سبحانه} :الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً] {المائدة [٣:مع أنها صريحة في أنها إعلام بإكمال الله لدينه في ذلك اليوم المشهود الذي نزلت فيه وهو يوم عرفة في حجة الوداع بالسنة العاشرة من الهجرة والظاهر أن إكمال دينه لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن وإتمام جميع الفرائض والأحكام. وقد صرح بذلك جماعة منهم السدي فقال لم ينزل بعدها حلال ولا حرام مع أنه وارد في آية الربا والدين والكلالة أنها نزلت بعد ذلك.

والجواب :أن هناك قرآنا نزل بعد هذه الآية حتى بأكثر من شهرين وقد سبق أن آية} :وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ] {البقرة [٢٨١:كانت آخر الآيات نزولا على الإطلاق وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- عاش بعدها تسع ليال فقط وتلك قرينة تمنعنا أن نفهم إكمال نزول القرآن من إكمال الدين في آية المائدة المذكورة والأقرب أن يكون معنى إكمال الدين فيها يومئذ هو إنجاحه وإقراره وإظهاره على الدين كله ولو كره الكافرون ولا ريب أن الإسلام في حجة الوداع كان قد ظهرت شوكته وعلت كلمته وأديل له على الشرك وحزبه والكفر وجنده والنفاق وحسراته حتى لقد أجلي المشركون عن البلد الحرام ولم يخالطوا المسلمين في الحج والإحرام.

قال ابن جرير في تفسير الآية المذكورة :الأولى أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون وأيد هذا التأويل بما رواه عن ابن عباس قال كان المشركون والمسلمون يحجون جميعا فلما نزلت سورة براءة نفي المشركون عن البيت وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين فكان ذلك من تمام النعمة وأتممت عليكم نعمتي.

خاتمة:

قال الإمام أبو القاسم بن حبيب :من أشرف علوم القرآن علم نزوله وترتيب ما نزل بمكة ابتداء ووسطا وانتهاءا وما نزل بالمدينة كذلك... إلخ كلامه- رحمه الله.-

ومما يتعلق بذلك في موضوعنا.

ذكر ترتيب ما نزل بمكة من السور ونذكر منه بعض الأوائل فقط:

فقيل أول ما نزل بعد ما تقدم الخلاف فيه من أقوال أهل العلم:

نون ثم المزمل ثم المدثر ثم تبت ثم التكوير ثم سبح ثم الليل ثم الفجر ثم الضحى ثم ألم نشرح ثم العصر ثم العاديات ثم الكوثر ثم التكاثر ثم الماعون ثم الكافرون... وهكذا.

وقال القاضي في الانتصار: نزل بعد سورة اقرأ ثلاث آيات من أول نوح وثلاث آيات من أول المدثر.

وعن مجاهد قال أول سورة أنزلت اقرأ ثم نوح.

وفي ترتيب ما أنزل بالمدينة.

أول ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الفتح ثم التوبة ثم المائدة.

ومنهم من يقدم المائدة على التوبة.

وعن الواقدي إن أول سورة نزلت بالمدينة سورة القدر.

وعن جابر بن زيد قال أول ما أنزل الله من القرآن بمكة اقرأ باسم ربك ثم ن والقلم ثم يا أيها المزمل ثم يا أيها المدثر ثم الفاتحة.... إلخ.

قال: وأنزل بالمدينة سورة البقرة ثم آل عمران ثم الأنفال ثم الأحزاب ثم المائدة ثم الممتحنة ثم إذا جاء نصر الله... إلخ.

قال السيوطي: هذا سياق غريب وفي هذا الترتيب نظر وجابر بن زيد من علماء التابعين بالقرآن.

قلت: الحق مع السيوطي والروايات الثابتة تأبى كثيرا مما في هذا الترتيب.

ما أنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة.

هكذا سماه السيوطي- رحمه الله -والأولى فيه أن يسمى ما أنزل من القرآن موافقة لما جاء على لسان بعض الصحابة.

وهو في الحقيقة نوع من أسباب النزول والأصل فيه موافقات عمر قال السيوطي: وقد أفردها بالتصنيف جماعة.

أخرج الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم -قال)) :إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ((قال ابن عمر وما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر.

وأخرج ابن مردويه عن مجاهد قال :كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن.

وأخرج البخاري ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم عن أنس قال قال عمر" :وافقت ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت} :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً {وقلت :يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله- صلى الله عليه وسلم -نساؤه في الغيرة فقلت لهن :عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن .فنزلت كذلك."

وأخرج مسلم عن ابن عمر عن عمر قال" :وافقت ربي في ثلاث في الحجاب وفي أسارى بدر وفي مقام إبراهيم."

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال قال عمر" :وافقت ربي أو وافقني ربي في أربع نزلت هذه الآية} :وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ {الآية فلما نزلت قلت أنا فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت} :فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.{

وأخرج عن عبد الرحمن بن أبي ليلى :أن يهوديا لقي عمر بن الخطاب فقال إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا فقال عمر} :مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ {قال فنزلت على لسان عمر.

هذا ماورد موافقة لعمر وأم غيره من الصحابة:

فأخرج سنيد في تفسيره عن سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل في أمر عائشة قال} :سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {فنزلت كذلك.

وأخرج ابن أخي ميمي في فوائده عن سعيد بن المسيب قال كان رجلان من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم -إذا سمعا شيئا من ذلك قالا} :سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {زيد بن حارثة وأبو أيوب فنزلت كذلك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال لما أبطأ على النساء الخبر في أحد خرجن يستخبرن فإذا رجلان مقبلان على بعير فقالت امرأة ما فعل رسول الله- صلى الله عليه وسلم -قال حي

قالت فلا أبالي يتخذ الله من عباده الشهداء فنزل القرآن على ما قالت} وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ. {

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن محمد بن شرحبيل العبدري قال حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول} :وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ {ثم قطعت يده اليسرى فحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول} :وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ{الآية ثم قتل فسقط اللواء قال محمد بن شرحبيل وما نزلت هذه الآية} :وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ { يومئذ حتى نزلت بعد ذلك.

قال السيوطي: تذنيب :

يقرب من هذا ما ورد في القرآن على لسان غير الله كالنبي- صلى الله عليه وسلم -وجبريل والملائكة غير مصرح فإضافته إليهم ولا محكي بالقول كقوله} :قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ { الآية فإن هذا ورد على لسانه صلى الله عليه وسلم لقوله آخرها} وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ. {

وقوله} :أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً {الآية فإنه أوردها أيضا على لسانه.

وقوله} :وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ {الآية وارد على لسان جبريل.

وقوله} :وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ {وارد على لسان الملائكة.

وكذا} :إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ {وارد على ألسنة العباد إلا أنه يمكن هنا تقدير القول أي قولوا وكذا الآيتان الأوليان يصح أن يقدر فيهما قل بخلاف الثالثة والرابعة.

قلت: يمكن أن يأتي أحد يلحق بهذا التذنيب ما كان مصرحا بإضافته لقائله أو محكيا بالقول لنه لا فرق جوهري بين ما ذكره السيوطي وبين ذلك والذي يظهر أنه ليس من باب الموافقة في شيء وإنما هو من باب القص والحكاية والله أعلم.

المحاضرة الرابعة

مناسبات الآيات والسور (١)

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

ففي هذه المحاضرة وما يليها سوف نعرض لعلم هام من علوم القرآن قد أشرنا إليه عند تقديمنا لعلوم القرآن ألا وهو علم مناسبات السور والآيات.

التعريف بهذا العلم وموضوعه وثمرته.

تعريف المناسبة:

والمناسبة في اللغة :المشاكلة والمقاربة، وفلان يناسب فلانا أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل، كالأخوين وابن العم ونحوه وكانا متناسبين لمعنى رابط بينهما وهو القرابة، ومنه المناسبة في العلة في باب القياس: الوصف المقارب للحكم، لأنه إذا حصلت مقاربته له، ظن عند وجود ذلك الوصف، وجود الحكم.

ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول.

والتناسب :هو ترتيب المعاني المتآخية التي تتلازم ولا تتنافر، والقرآن العظيم كله متناسب؛ لا تنافر فيه ولا تباين.

والمناسبة في الاصطلاح:

مما سبق يتبين أن المناسبة هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه، ويعنى بها في كتاب الله –تعالى :–إدراك أوجه الارتباط بين السور وما قبلها وما بعدها، وبين الآية وما قبلها وما بعدها .

وقد تعددت تعاريف علماء القرآن لعلم مناسبات القرآن وللمناسبة اصطلاحا

يقول البقاعي: فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه،وهو سر البلاغة، لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال.

وعرفه غيره بأنه :ارتباط آي القرآن بعضها ببعض؛حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني.

والمناسبة في فواتح الآي وخواتمها مرجعها إلى معنى ما رابط بينها عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه، أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر ونحو ذلك مما يربط أجزاء الكلام ويجعل بعضه آخذاً بأعناق بعض،فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المترابط الأجزاء.

موضوع علم المناسبة:

هو أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الوقوف على طرق الترتيب وعلله، وهو هنا آيات القرآن وسوره.

ثمرة هذا العلم :

الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له وما وراءه وما أمامه، من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب، هذا بالنسبة لعلم المناسبة بشكل عام.

وهو هنا بالنسبة للقرآن الاطلاع على سر البلاغة وإدراك مقصود السورة في كل جملها القرآنية. ومن أجل ذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة.

ونسبته من علم التفسير، نسبة البيان من علم النحو.

وعلم المناسبات علم دقيق، يعتمد على العقلية ذات التفكير الكلي، أي التي تربط الأشياء بعضها وتكشف وجه العلاقة بينها، وهو علم يعرف به قدر القائل فيما يقول

وعلم المناسبة على نوعين:

الأول: مناسبة الآيات :وهو بيان ارتباط الآي بعضها ببعض وتناسقها كأنها جملة واحدة، ومرجعها إلى معنى رابط بينها، ويدخل في ذلك مناسبة مفردات الآية لبعضها ومناسبة جمل الآية لبعضها ومناسبة الفاصلة للآية.

الثاني: مناسبة السور، وهو ثلاثة أنواع:

-أحدها :التناسب بين السورتين في موضوعهما، وهو الأصل والأساس.

-ثانيهما :التناسب بين فاتحة السورة والتي قبلها كالحواميم.

-ثالثها :مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها، مثل} :وَإِدْبَارَ النُّجُومِ.... وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى.{

-رابعها :مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها، وقد أفرده السيوطي بالتأليف فكتب فيه جزءا صغيرا سماه" :مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع."

أول من تكلم في علم المناسبات وتحقيق ظهوره وتطوره والمصنفات فيه.

صرح (البقاعي) بقدم علم المناسبات القرآنية، وانتشاره بين الصحابة والتابعين، واعتمادهم إياه في فهم آي الكتاب الحكيم، فقال في كتابه" :مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور" :"وقد كان أفاضل السلف يعرفون هذا بما في سليقتهم من أفانين العربية، ودقيق مناهج الفكر البشرية، ولطيف أساليب النوازع العقلية، ثم تناقص هذا العلم حتى انعجم على الناس، وصار إلى حد الغرابة كغيره من الفنون. قال (أبو عبيد) في" كتاب الفضائل :"حدثنا معاذ بن عوف عن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه، قال: إذا حدثتَ عن الله حديثاً فقف حتى تنظر ما قبله، وما بعده.

وروى عبد الرزاق عن ابن عيينة عن الأعمش عن إبراهيم قال: قال ابن مسعود- رضي الله عنه :-إذا سأل أحدكم صاحبه كيف يقرأ آية كذا وكذا، فلْيَسألْه عما قبلها. يريد- والله أعلم -أن ما قبلها يدله على تحرير لفظها بما تدعو إليه المناسبة .

وروى الحارث بن أبي أسامة عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه -أنه حدّث أن قوماً يدخلون النار، ثم يخرجون منها، فقال له القوم: أوَ ليس الله- تعالى -يقول} :يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ] {المائدة:٣٧] ؟ فقال لهم أبو سعيد- رضي الله عنه :-اقرؤوا ما فوقها} :إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] {المائدة:٣٦.[

وروي أن أعرابياً- لم يكن قرأ القرآن -سمع قارئاً يقرأ آية} :فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] {البقرة:٢٠٩]، فأبدله القارئ بأن قال} :غَفُورٌ رَّحِيمٌ {]البقرة:١٩٢]، فقال الأعرابي مصوباً: "إن الحكيم لا يَذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه .

وذكر الأستاذ الدكتور نور الدين عتر في مذكرته" :علم المناسبات "أن أول ظهور هذا الفن مسجلاً كان عند الإمام أبي جعفر الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ في تفسيره.

وقال الشيخ أبو الحسن الشهراباني: "أول من أظهر علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري.

قلت: هو الفقيه الشافعي الحافظ، رحل في طلب العلم إلى العراق والشام، ومصر وقرأ على المزني، ثم سكن بغداد، وصار إماما للشافعية بالعراق، وتوفي عام ٣٢٤هـ.

قال أبو الحسن: وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه الآية؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة."

ثم جاء الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ وجعل للمناسبة حظاً في كتابه الكشاف.

ثم أكثر الفخر الرازي (٦٠٦هـ) النظر فيه، فقال: "أكثر لطائف القرآن مودعه في الترتيبات، والروابط "وقال من تأمل في لطائف نظام السور، وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين مُعرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار صورته	والذنب للطرف لا للنجم في الصغرِ

وزاد: "علم المناسبات علم عظيم أُودِعَت فيه أكثر لطائف القرآن وروائعه "

وشرع في كتابة سِفْر بعنوان" :أسرار التنزيل "لكنه توفي قبل أن يتم جزأه الأول .

وممن اعتنى بالمناسبة الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن اليمني الحرالّي- نسبة إلى حرالة من أعمال الأندلس -نزيل حماة من بلاد الشام ت ٦٣٧هـ في تفسيره مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل الذي يقول فيه البقاعي:"... فرأيته عديم النظير، وقد ذكر فيه المناسبات، وقد ذكرت ما أعجبني منها وعزوته إليه."

وهذا التفسير هو عمدة البقاعي في كلامه في نظم الدرر الآتي ذكره.

وتنبه ولي الدين الملوي شيخ الزركشي لذلك العلم فقال والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسباتها لما قبلها؛ ففي ذلك علم جم. وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها، وما سيقت له"

وقال بدر الدين الزركشي (٧٩٤هـ): "من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، لئلا يكون منقطعاً، وهو مبني على أن ترتيب السور توفيقي، وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة؛ لما خُتمت به السور قبلها، ثم هو قد يخفي تارة، ويظهر أخرى."

ثم إنه عقد فصلاً بتمامه في كتابه (البرهان في علوم القرآن) تحت عنوان" :معرفة المناسبات بين الآيات "تعقب فيه هذا العلم الجليل من جهة التعريف، والنشأة، والمصادر، ومن كتب فيه. ثم أطال النفس في عرض أمثلة على المناسبات القرآنية بين السور المتجاورة، وبين الآيات في السورة الواحدة.

وسار (الشيخ كمال الدين الزملكاني) سيراً حثيثاً في الخروج بعلم المناسبات إلى حيز الظهور، فعقد دروساً لتبيانه وشرحه، وربط بين السورة وافتتاحيتها، وأبان عن مناسبات الاستهلال .

على أن أول من أفرد علم المناسبات القرآنية بالتصنيف هو (أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي الأندلسي) النحوي الحافظ المتوفي (٧٠٨هـ) صاحب[ملاك التأويل]، وهو: شيخ أبي حيان (٧٥٤هـ) صاحب [البحرالمحيط] فقد ألف في ذلك كتابا سماه البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن وذكره الزركشي في البرهان وكذا السيوطي في الإتقان وذكر في نشرة أخبار التراث العربي الكويت ع١٣ ص١٥ سنة١٤٠٤

وقام بتحقيقه شعباني محمد في رسالة ماجستير مقدمة لدار الحديث الحسنية بالرباط .

وفي ذلك يقول الغماري الحسني نظماً:

وابن الزبير في برهانه	قد كان أول من سطرْ
إذ جاء فيه مُجَلِّيًّا	يتلوه بحر قد زخرْ

ثم جاء دور الإمام إبراهيم بن عمر برهان الدين البقاعي ت٨٨٥ هـ فكتب سِفْره" نظم الدرر في تناسب الآي والسور "وهو تفسير التزم فيه بيان مناسبة الآي والسور، وقال في مقدمته: وسميته: نظم الدرر في تناسب الآي والسور، ويناسب أن يسمى: فتح الرحمن في تناسب أجزاء القرآن. وأنسب الأسماء له: ترجمان القرآن ومبدي مناسبات الفرقان .

وهو كتاب عظيم ضخم مطبوع في اثنين وعشرين مجلدا في مكتبة ابن تيمية بالقاهرة وطبعته دار الكتاب الإسلامي القاهرة ١٩٩٢ في ستة مجلدات .

وهو لا يقتصر فقط على المناسبات وإنما يفسر الآيات.

. واختصر البقاعي كتابه نظم الدرر في كتاب سماه (دلالة البرهان القويم على تناسب آي القرآن العظيم وألف أيضا" مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور."

وذكر في كتابه الذي رد به على الحافظ السخاوي: "أنه ألفه في مدى أربع عشرة سنة."

ويعد كتاب" نظم الدرر "أوسع مصادر هذا العلم ذكراً للمناسبات القرآنية بين آيات القرآن الكريم سورة سورة

وقد أطال البقاعي النفس في كتابه "مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور" في وصف علم المناسبات، فذكر أصله وسره، وحقيقته، وبيان الداعي إليه، وتعريفه، ونسبته، وكيفيته، والإجادة فيه، وعرّج على كتابة "نظم الدرر" فربط بينه وبين علم المناسبات .

ثم كتب (جلال الدين السيوطي) ت ٩١١هـ" أسرار التنزيل "ووصفه بأنه الباحث عن أساليب القرآن، المبْرِز أعاجيبه، المبَيِّن لفصاحة ألفاظه وبلاغة تراكيبه، الكاشف عن وجه إعجازه، الداخل إلى حقيقته من مجازه،المطلع على أفانينه، المبدع في تقرير حججه وبراهينه، فإنه اشتمل على بضعة عشر نوعاً.

الأول :بيان مناسبات ترتيب سوره، وحكمة وضع كل سورة منها.

الثاني :بيان أن كل سورة شارحة لما أجمل في السورة التي قبلهاز

الثالث :وجه اعتلاق فاتحة الكتاب بخاتمة التي قبلها.

الرابع :مناسبات مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له، وتلك براعة الاستهلال.

الخامس :مناسبة أوائل السور لأواخرها.

السادس :مناسبات ترتيب آياته، واعتلاق بعضها ببعض، وارتباطها وتلاحمها وتناسقها.

السابع :بيان أساليبه في البلاغة، وتنوع خطاباته وسياقاته

الثامن :بيان ما اشتمل عليه من المحسنات البديعية علىكثرتها، كالاستعارة، والكناية، والتعريض، والالتفات، والتورية، والاستخدام، واللف،والنشر، والطباق، والمقابلة، وغير ذلك، والمجاز بأنواعه، وأنواع الإيجاز والإطناب.

التاسع :بيان فواصل الآي، ومناسباتها للآي التي ختمت بها

العاشر :مناسبة أسماء السور لها.

الحادي عشر :بيان أوجه اختيار مرادفاته دون سائرها

الثاني عشر :بيان القراءات المختلفة، مشهورها، وشاذها ،وما تضمنته من المعاني والعلوم، فإن ذلك من جملة وجوه إعجازه.

الثالث عشر بيان وجه تفاوت الآيات المتشابهات في القصص وغيرها بالزيادة والنقص، والتقديم والتأخير وإبدال لفظة مكان أخرى، ونحو ذلك.

قال الغُماري: وللحافظ السيوطي كتاب في أسرار التنزيل وصفه بأنه جامع لمناسبات السور والآيات مع ما تضمنه من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة سماه" قطف الأزهار في كشف الأسرار ."

ثم خص السيوطي نوع "مناسبات ترتيب السور" من بين هذه الأنواع بمزيد عناية لما لاحظ قلة من تكلم فيه فقال: "وقد أردت أن أفرد جزءاً لطيفاً في نوع خاص من هذه الأنواع، هو: (مناسبات ترتيب السور ليكون عجالة لمريده، وبغية لمستفيده، وأكثره من نتاج فكري، وولاد نظري، لقلة من تكلم في ذلك، أو خاض في هذه المسالك، وما كان فيه لغيري صرحت بعزوه إليه، ولا أذكر منه إلا ما أستحسن ولا انتقاد عليه، وقد كنت أولاً سميته" نتائج الفِكَر في تناسب السور "لكونه من مستنتجات فكري كما أشرت إليه، ثم عدلت وسميته (تناسق الدرر في تناسب السور) لأنه أنسب بالمسمى، وأزيد بالجناس.

وقد طبع عدة طبعات:

طبع بدار الاعتصام بالقاهرة ١٩٧٦، وطبع بتحقيق عبد الله محمد الدرويش، ط عالم التراث في دمشق ١٩٨٣،وأعيد تصويره في دار الكتاب العربي في سورية.

وطبع بتحقيق سعيد محمد لحام مع كتاب فيض الرحيم في قراءات القرآن الكريم، القراءات السبع بروايات عدة و المفيد في فن التجويد و لباب النقول في أسباب النزول في مجلد واحد ببيروت .

وطبع باسم أسرار ترتيب القرآن بتحقيق: عبد القادر أحمد عطا دار الكتب العلمية. وذكر الشيخ الجديع في كتابه" المقدمات :"أن اسم الكتاب هو" تناسق الدرر في تناسب السور."

والاسم الصحيح للكتاب هو كما ذكره الشيخ (الجُديع) وبذلك سَمَّاه مؤلفه في المقَدِّمَة، وفي «الإتقان في علوم القرآن وكذا (حاجي خليفة) في» كَشف الظُّنون عَن أسامي الكُتب والفُنون»، و(صديق حسن خان القنوجي) في كِتابه" أبجد العلوم ."

أما الاسم الذي طُبِع به الكتاب" أسرار ترتيب القرآن "فقد سَمَّاه به الشيخ (عبد القادر أحمد عطا) -رحمه الله تعالى-، وغَير اسم الكتاب وعَلَّل ذلك بقوله: غيرنا عنوان الكتاب بما يتناسب مع العصر، وبُعدًا عن الأسجاع المألوفة في عصر المؤلف"! وهذا صَنيع مِنه غير مرضي، وهل سَجْع المؤلِّف لا يتناسَب مع عصرنا ؟

وللأسف؛ فقد تابعه على هذا كلٌّ مِن: عبد الله محمد الدرويش، الذي حقق الكتاب لدى دار الكتاب العربي بسوريا عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م. وأيضًا مرزوق علي إبراهيم، الذي حقق الكتاب لدى دار الفضيلة بمصر، سنة ٢٠٠٢م

وللسيوطي أيضاً: مراصد المطالع في تناسب المقاصد والمطالع، كما أشرنا إلى ذلك سابقا وقد ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ١٦٥٢/٢، وذكر المرعشلي أنه مخطوط وله نسخة في جامعة برنستون رقم .(٤٧٤٦)

وخص السيوطي النوع الثاني والستين من كتابه (الإتقان في علوم القرآن بالحديث عن [مناسبات الآيات والسور]، ذكر فيه أغلب ما ذكره الزركشي في) البرهان،وزاد عليه في الأمثلة.

وذكر المرعشلي أيضاً في تحقيقه على البرهان من الكتب" نهر النجاة في بيان مناسبات آيات أم الكتاب "لساجقلي زادة المرشي توفي سنة ١١٥٠هـ .

ثم كتب الشيخ أبو الفضل عبد الله بن محمد الصديقي الغماري" جواهر البيان في تناسب سور القرآن"، ط عالم الكتب في بيروت. تابع فيه جهود من قبله وقال عنه نظماً:

وكتبت مثل كتابهم	بحثاً يؤيده النظر
أعملت فيه قريحتي	واخترت أنسب ذا الفكر
وفتحت بعض المغلقات من	آي الكتاب ومن سور
وأتيت من عين المسا	ئل بالبدائع والغرر
أُلْهِمْتُ من فيض الإله	بفيض فضل مُدَّخر
حمداً لواهب فضله	وله التطوُّل إذ ستر
وصلاته دوما على	خير البرية من مُضَر

وقال في مقدمته: "أما بعد: فقد أردت بمشيئة الله– تعالى –أن أبيِّن في هذا الكتاب مناسبات سور القرآن الكريم بعضها لبعض، حسب ترتيبها في المصحف الشريف. وهذا فن عزيز، قلَّ من تعرض له من العلماء على كثرة من تعرض منهم لفنون القرآن المتنوعة مثل تفسيره، وإعرابه، وقراءاته، وتجويده، واستنباط أحكامه، وقصصه،وغير ذلك؛ سميته" جواهر البيان في تناسب سور القرآن "والله أسأل، وإليه بكتابه العزيز أتوسل أن يوفقني ويلهمني رشدي، وأن يفرج كربتي، ويذهب عني غمتي، إنه قريب مجيب."

وللمولوي أشرف علي التهانوي كتاب أسماه" :سبق الغايات في نسق الآيات ."

وكذا المعلم الفراهي وهو حميد الدين ابن أحمد عبد الحميد الأنصاري توفي عام١٣٤٩ هـ في كتابيه" :فاتحة نظام القرآن و تأويل الفرقان بالفرقان"،" ودلائل النظام."

ثم إن علم المناسبات القرآنية قد عرف طريقه إلى اهتمامات البحاثة المتأخرين بعد أن قرر الأزهر مادة التفسير الموضوعي على طلبته؛ إذ لا تستقيم دراسة التفسير الموضوعي إلا أن ترتبط بدراسة علم المناسبات القرآنية لما بينهما من لُحمة وارتباط وثيق صلة؛ فكلاهما متمم للآخر ودال عليه وسوف نعرج على ذلك قريبا إن شاء الله تعالى.

فكتب (د محمد عبد الله دراز) في التناسب القرآني، وأطال النفس في مناسبات السورة الواحدة،وألح على ضرورة التعرض لذلك على الخصوص؛ تحقيقاً لمفهوم التناسب الكلي للسورة القرآنية فخرج كتاب (النبأ العظيم) مثالاً موفقاً في بيان جلالة (علم المناسبات) وضرورته في فهم كتاب الله الحكيم

ومن الأبحاث القيمة في ذلك:

أثر المناسبة في كشف إعجاز القرآن، أ. د: نور الدين عتر، مذكرة مطبوعة.

علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن،.د: نور الدين عتر، مذكرة مطبوعة أيضا .

علم المناسبات القرآنية موضوعه . تطوره . مكانته بحث ماتع استفدنا منه هنا في عدة مواضع كتبه الدكتور: عبد الحميد محمود غانم في مجلة البيان – السنة التاسعة عشرة * العدد ٢٠٢* جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ* يوليو / أغسطس ٢٠٠٤م

الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم د. حكمت الحريري رئيس قسم القرآن وعلومه،كلية التربية- جامعة إب، باليمن نشره في مجلة السنة العدد ١٣٠- رمضان ١٤٢٤ -هـ -تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٣ م الركن الشرعي .

وكتب في مناسبات الآيات والسور الشيخ أحمد حسن المدرس بأحد المعاهد الثانوية.

والأستاذ مرهف سقا له بحث في موضوع المناسبة نشره في بعض منتديات الإنترنت.

وهناك كتب علوم القرآن التي اعتنت بهذا النوع وإن لم تكن مفردة فيه ومنها البرهان والإتقان كما تقدم وكذلك كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن قيم الجوزية.

وأما من عرض له من المفسرين فجمع كبير تقدم ذكر بعضهم:

ومنهم أيضا ابن النقيب الحنفي في تفسيره، وهو في نحو ستين مجلدا، يذكر فيه المناسبات بالنسبة إلى الآيات لا جملها وإلى القصص لا جميع آياتها.

وابن قيم الجوزية ٧٥١ هـ في (التفسير القيم) الذي جمعه: محمد أويس الندوي.

وأبو السعود في تفسيره، والمراغي في تفسيره، والسيد رشيد رضا في تفسير المنار، والمخدوم المهايمي الهندي في تفسيره: (تبصير الرحمن وتيسير المنان)، وسيد قطب في كتابه: (في ظلال القرآن.(

ونكتفي بهذا القدر في هذه المحاضرة وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المحاضرة الخامسة

مناسبات الآيات والسور (٢)

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد :

ففي هذه المحاضرة نستكمل حديثنا عن علم مناسبات السور والآيات وسيكون ذلك عن أهمية هذا العلم وأقوال العلماء فيه واختلافهم حوله وبيان الراجح:

مكانة علم المناسبات وأهميته.

يُمثل القرآن الكريم منبعاً ثرّياً، وفيضاً غزيراً لفنون وعلوم وفتوح انبثَّت في نظمه، وهديه ورسمه، ليبقى المعجزة الخالدة الدالة على الحق، والمدد الأسمى لمن أخلص الطلب، وتجرد للفهم والعمل؛ في ثناياه جلال من كل وجه، وفي منحه عطاءات لكلّ عصر، ولعل من أدق علومه علم المناسبات القرآنية، ذلك العلم الذي يربط بين السور، والآيات، والكلمات؛ فإذا هي حبات عقد واحد، وأعضاء كائن حي، وأجزاء بنيان متصل؛ فعليه يتوقف إدراك الهدايات في أعلى صورها.

فالعلم بالمناسبات بين الآيات القرآنية في السورة الواحدة، وبين السور في الكتاب كله أمر ذو خطر عظيم لما له من شأن كبير في الدلالة على تفسير النَّظْم الحكيم تفسيراً موضوعياً.

يقول الغُماري الحسني:

علم التناسب للسور	علم جليل ذو خطر
قد قلّ فيه الكاتبو	ن كما قد عز المستطر

ولما كان هذا العلم دقيق المسالك خفي المدراك احتاج الباحث فيه إلى استفراغ الجهد بغية الاستقصاء اللغوي لدلالات الكلمات القرآنية، والإحاطة بأسباب النزول والقراءات، والتوسع في أفانين علوم النحو والمعاني والبيان والبديع، مع حسٍ مرهف، ونفس شفافة، والتقاط سريع، وألمعية وافرة، وسلامة في القصد؛ ليدرك سر اللُّحمة بين لطائف الآيات القرآنية ومراد الله– تعالى –من ترتيب كلامه على هذه الصفة، فتبدو له أوجه المناسبات في النَّظْم الحكيم.

قال الزركشي :اعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول.

وقال ابن العربي في" سراج المريدين :"ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه .

وقال الإمام الرازي في سورة البقرة :ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك .

وقال بعض الأئمة" :من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعا، وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم وفوائده غزيرة."

وقال البقاعي ..." :وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللب، وذلك لأنّه يكشف أن للإعجاز طريقين :

أحدهما :نظم كل جملة على حيالها، بحسب التركيب.

والثاني :نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب.

والأول أقرب تناولا وأسهل ذوقا؛ فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتز لمعانيه، ويحصل له عند سماعه روعة بنشاط، ورهبة مع انبساط، لا تحصل عند سماع غيره، وكلما دقق النظر في المعنى عظم عنده موقع الإعجاز، ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها خفي عليه وجه ذلك، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متباينة المقاصد؛ فظن أنّها متنافرة، فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما كان حصل له بالسماع من الهز والبسط، فربما شككه ذلك، وتزلزل إيمانه، وزحزح إيقانه. وربما وقف كثير من أذكياء المخالفين عن الدخول في هذا الدين، بعدما وضحت إليه دلائله، وبرزت له من جمالها دقائقه وجلائله لحكمة أرادها منزله، وأحكمها بجمله ومفصله، فإذا استعان الله، وأدام الطرق لباب الفرج بإنعام التأمل وإظهار العجز، والوثوق بأنّه في الذروة من إحكام الربط، كما في الأوج من حسن المعنى واللفظ، لكونه من جلّ عن شوائب النقص، وحاز صفات الكمال إيمانا بالغيب، وتصديقا بالرب، قائلا ما قال الراسخون في العلم} :رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ{، فانفتح له ذلك الباب ولاحت

له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار، رقص الفكر فيه طربا، وسكر والله استغرابا وعجبا، وطاش لعظمة ذلك جنانه، فرسخ من غير ريبة إيمانه، ورأى أن المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف بديعة الرصف، عليَّة الأمر، عظيمة القدر، مباعدة لمعاني الكلام على أنّها منها أخذت، فسبحان من أنزله وأحكمه وفصله، وغطّاه وجلاّه، وبينه غاية البيان وأخفاه، وبذلك أيضا يوقف على الحق من معاني آيات حار فيها المفسرون لتضييع هذا الباب من غير ارتياب ...

وبه تتبين لك أسرار القصص المكررات، وأنّ كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى أدعى في تلك السورة استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذي سيقت له في السورة الثانية السابقة، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض، وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم، والإيجاز والتطويل، مع أنّه لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى الذي تكونت به القصة، وعلى قدر غموض تلك المناسبات يكون وضوحها بعد انكشافها."

قال البقاعي" :هذا؛ وإن العلم الذي أفاض الله– وله الحمد –عليّ، أصله: بذل الرقة والانكسار، والتضرع والافتقار لأدق العلوم أمراً، وأخفاها سراً، وأعلاها قدراً؛ لأنه في الحقيقة إظهار البلاغة من الكتاب العزيز، وبيان ذلك في كل جملة من جمله؛ فإن البلاغة مناسبة المقال لمقتضى الحال. وهذا الكتاب لبيان الداعي إلى وضع كل جملة في مكانها، وإقامة حجتها في ذلك وبرهانها؛ لأن هذا العلم تعرف منه علل الترتيب.

وجعل اسم كتابه" :مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور"، دالاً عليه، فقال: "فتعريف هذا العلم هو اسم هذا الكتاب المصنف فيه علم يعرف منه مقاصد السور. وموضوعه: آيات السور، كل سورة على حالها. وغايته: معرفة الحق من تفسيره كالآية من تلك السور . ومنفعته: التبحر في علم التفسير؛ فإنه يثمر التسهيل له والتيسير ونوعه: التفسير، ورتبته: أوله، فيشتغل به قبل الشروع فيه؛ فإنه كالمقدمة له من حيث إنه كالتعريف؛ لأنه معرفة تفسير كل سورة إجمالاً. وأقسامه: السور. وطريقة السلوك في تحصيله: جمع جميع فنون العلم "

قال الغماري في كلامه عن المسألة الثالثة قال" :المناسبة علم شريف عزيز، قلَّ اعتناء المفسرين به لدقته واحتياجه إلى مزيد فكر وتأمل .

وقد اعتبر السيوطي مناسبة آيات القرآن وسوره، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، وجهًا من وجوه إعجاز القرآن .وقال إن من فوائده: "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حالته حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء ."

ومن المحدثين الذين تنبّهوا إلى قيمة هذا العلم الجليل الشيخ الزرقاني، يقول" :إن القرآن تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكّك ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقًا لأوله، وبدا أوله مواتيًا لآخره ."

ويصف الأستاذ مصطفي صادق الرافعي هذا الأسلوب القرآني العجيب، قائلاً" :وبالجملة فإن هذا الإعجاز في معاني القرآن وارتباطها أمر لا ريب فيه وهو أبلغ في معناه الإلهي إذا انتبهت إلى أن السور لم تنزل على هذا الترتيب. فكان الأحرى أن لا تلتئم وأن لا يناسب بعضها بعضًا وأن تذهب آياتها في الخلاف كل مذهب. ولكنه روح من أمر الله: تفرّق معجزًا، فلمّا اجتمع اجتمع له إعجاز آخر ليتذكّر أولو الألباب ."

ويقول الشيخ عبد الحميد الفراهي" :وربما يحطّ عندك قدر خطيب مصقع أتى بفنون من البلاغة وأثّر في النفوس بخلابة بيانه لمحض أنه ذهل عن ربط الكلام فهام من وادٍ إلى واد، مع أنه معذور لأنه ألقى خطبته ارتجالاً ولم يُعمل فيها النظر والروية، وما مؤاخذاتك لذلك الخطيب إلا لأن الكلام البليغ لا يحتمل سوء الترتيب، فإذا كان الأمر كذلك، أليس من الموقن بإعجاز القرآن أن يثبت حسن نظمه وإحكام ترتيبه وتناسق آياته وسوره"؟

ومن ثمّ، فإن في هذا الكلام من أقوال العلماء، تتلاقى بعض الفوائد الكامنة في هذا العلم الجليل، أهمّها أنه يُظهر القرآن الكريم كأنّه كلمة واحدة، ويؤكّد أن هذا الكتاب العظيم إنما قُدِّر تقديرًا محكمًا، وصُمِّم قبل نزوله بحساب دقيق ووزن حكيم، لكل حرف، وكلمة، وجملة، وآية، وسورة، ثم تمام الكتاب بشموليّته. وفي هذا تأكيد بليغ لمعنى قوله تعالى} :إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{، وردّ للشبه التي يثيرها الروافض والمستشرقون والمغرضون حول جمع

القرآن والزيادة فيه أو النقص منه، كما يزعمون! إذ هو يجعل العقل البشري ينشط في محاولة للالتفات إلى الحكمة من هذا الترتيب، والاهتمام باستخراج المعاني ولطائف النكات التي لا يُتوصّل إليها إلا بالتماس أوجه المناسبة والربط بين السور والآيات والكلمات والحروف.

في علاقة علم المناسبات بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

سبق أن أشرنا لهذه العلاقة في المحاضرة السابقة ونقول هنا إن القرآن الكريم كتاب هداية ربانية تُمثل آخر اتصال بين وحي السماء وأهل الأرض، لكونه الكتاب الإلهي الخاتم المرشد إلى الصحيح في الاعتقاد والخير في السلوك؛ فلا غرو أن تكون طريقته في التأليف مغايرة لما أَلِفه الناس، فليست سُوَره مجرد فصول من كتاب بحيث تستقل كل سورة عن غيرها، وإنما طريقة القرآن ككتاب هداية تستلزم أن يسلك طرقاً عديدة يدخل منها إلى النفس، وكما أن الهدايات تجتمع في القرآن بتمامه فإن هذه الهدايات منبثة أيضاً في سوره بصورة تجل عن الوصف، يراها من ينعم النظر فيها، فيجد لكل سورة وحدة تجتمع حولها آياتها وإن تعددت موضوعاتها، ويحس فيها روحاً تسري بين أجزائها، ووشائج تربط بينها، ومقصداً يجمعها.

وهذا النوع من الدراسة هو من تناولات التفسير الموضوعي، فدائرته تحيط بالسورة القرآنية الواحدة، وتتجلى مهمة الباحث في الكشف عن الهدف الجامع الذي تدور حوله السورة، وطريقته: أن يستوعب الباحث أهداف السورة المنبثة في أسباب نزولها وترتيبها ومكيها ومدنيها وأسمائها وعدد آيها ومقاصدها الفرعية وأساليب عرضها والمناسبات بين مقاطعها.

فالسورة في مجملها كلٌّ لا تنفصم عراه وطائفة ملتئمة من الآيات لا تحتمل تقطيعها، وإنما النظر إليها يكون في كلها لا في بعضها، ولا تتم الفائدة إلا باعتبارها كياناً حياً واحداً.

يقول الشاطبي (٧٩١هـ) في الموافقات" :اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالاقتصار على بعضها غير مفيد للمقصود منها، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها .فسورة البقرة مثلاً كلام واحد باعتبار النظم وإن احتوت على أنواع من الكلام بحسب ما ثبت فيها؛ فمنها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب. ومنها الخواتم العائدة

على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت، وما أشبه ذلك، ولا بد من تمثيل شيء من هذه الأقسام فيه يَبِين ما تقدم :

فقوله- تعالى} :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] {البقرة:١٨٣] إلى قوله- تعالى} :كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ] {البقرة:١٨٧] كلام واحد وإن نزل في أوقات شتى، وحاصله: بيان الصيام وأحكامه وكيفية آدابه وقضائه وسائر ما يتعلق به من الجلائل التي لا بد منها ولا ينبني إلا عليها."

وسورة الكوثر نازلة في قضية واحدة، وسورة العلق نازلة في قضيتين: الأولى: حتى قوله} :عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ] {العلق:٥]، والأخرى: بقية السورة، وسورة المؤمنون المكية نازلة في قضية واحدة وهي: الدعاء إلى عبادة الله تعالى؛ وإن اشتملت على ما قرره القرآن المكي في معانيه الثلاث: تقرير الوحدانية، وتقرير النبوة، وإثبات المعاد. ومن أراد الاختبار في سائر سور القرآن فالباب مفتوح.

ويدل البقاعي (ت ٨٨٥هـ) على مناسبات القرآن واتصاله بالوحدة الموضوعية في السورة القرآنية الواحدة فيقول: "فعلم مناسبات القرآن: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لمقتضى الحال. وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها."

وليس من شك في أن لكل سورة شخصيتها المستقلة وأهدافها الواضحة؛ فمن المعلوم أن السور المكية قد عرضت أسس العقيدة الإسلامية الثلاثة بشكل مفصل :الألوهية، والرسالة، والبعث بعد الموت. ويمكن للباحث أن يتناول من كل سورة مكية أحد الأسس الثلاثة بجانب اشتمال الكثير منها على أمهات الأخلاق والتنفير من مرذولها، في حين تشتمل السور المدنية على الكليات الشرعية، وتُحيل إلى الحوار وإقامة البرهان وتفنيد مزاعم المعارضين وأهل الكتاب وفضح المنافقين.

يقول البقاعي" :إن من عرف المراد من اسم السورة عرف مقصودها، ومن حقق المقصود منها عرف تناسب آيها وقصصها وجميع أجزائها... فإن كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها ويستدل عليه فيها.

ويعد هذا النوع أكثر أنواع التناول الموضوعي تطوراً وإضافة؛ فهو لا يتتبع كلمة قرآنية ليستنبط دلالاتها، ولا يعرض لموضوع قرآني فيجمع آياته ويربط بينها. كما أنه لا ينظر للسورة القرآنية الواحدة كوحدة موضوعية بالبحث عن مقصدها الأكبر الذي تدور عليه، وإنما يضيف إلى عنايته بالوحدة الموضوعية لكل سورة البحث عن آفاق العلاقة بما يجاورها من سور، فينظر في فواتح السور وخواتيمها ويربط بينها مجتمعة تارة ومتفرقة تارة أخرى جامعاً بين موضوعات السور ما استقام له الجمع، بحيث تبدو سور الكتاب وقد التقت معانيها ومقاصدها كدائرة اتصل كل مبتدأ فيها بمختتمها.

يقول الدكتور حكمت الحريري :

تبين لنا بالأدلة الوافية الانسجام التام والتناسق الكامل بين الآيات والسور فإنها وإن اشتملت على نجوم متعددة وأغراض مختلفة ومعان متنوعة، لكنها ترمي إلى هدف واحد، وتندرج تحت مقصد واحد لا تنفك عنه.

وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، ذلك بأن آيات القرآن نزلت في أوقات متباعدة، والطريقة التي اتبعت في ترتيب آياته حيث كان يقول عليه الصلاة والسلام: "ضعوا آية كذا في موضع كذا". ولو كان هذا الأمر من تأليف البشر لما خلا من تناقض واضطراب وعيب ومؤاخذة، لكنه} تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.{

تقرأ السورة الطويلة المنجمة في نزولها، فلا تحس بشيء من تناكر الأوضاع، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، فلم يكن الانتقال بين الأغراض المختلفة في السورة الواحدة أمراً اعتباطياً بلا هدف – فهذا لا يليق بكلام العقلاء من البشر فكيف بكلام أحكم الحاكمين– إنما هناك صلات وثيقة بين هذه المعاني والأغراض بحيث تتضافر جميعاً لتصل إلى الغاية القصوى والهدف العام الذي تدور حوله السورة، وهو ما يطلق عليه بعض العلماء الوحدة الموضوعية أو عمود السورة ونظامها.

وللوقوف على هذه الحقيقة ومعرفتها، لابد من تدبر القرآن، فإنها لا تظهر إلا بالتدبر والتأمل الصادق وقد وبخ سبحانه من يقرأ القرآن ولا يتدبره فقال} :أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا {فالقرآن لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الردّ.

قال تعالى} :وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] {لقمان:٢٧.[

كيف نستدل على الوحدة الموضوعية في سور القرآن؟

يستدل على الوحدة الموضوعية في السورة من خلال الأمور التالية:

-١عرض السورة عرضاً واحداً، نرسم به خط سيرها إلى غايتها، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة في الموقع المناسب لها. والسياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء وجزء منه إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون له عوناً على السير في تلك التفاصيل.

)إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها،كما لاغنى عن ذلك في أجزاء القضية.(

-٢اسم كل سورة مترجم عن مقصودها.

هنالك ارتباط وثيق بين المعاني والأغراض المختلفة التي تتعرض لها آيات السورة وبين اسم السورة الذي يحتوي على الهدف العام منها.

الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له.

قال برهان الدين البقاعي بعد أن ذكر كلام شيخه محمد البجائي :وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدالّ إجمالاً على تفصيل ما فيه؛ وذلك هو الذي أنبأ به آدم عليه الصلاة والسلام

عند العرض على الملائكة عليهم الصلاة والسلام ومقصود كل سورة هادٍ إلى تناسبها، فأذكر المقصود من كل سورة وأطبق بينه وبين اسمها.

-٣العود على البدء :

ترى في كثير من سور القرآن أن الكلام ينتقل من معنى إلى آخر ومنه إلى معنى آخر ثم يعود على ما بدأ منه ولم يكن هذا الانتقال والانجرار من معنى إلى آخر إلا لوجود رابطة مهمة تربط بين الآيات والمقاصد يقتضيها السياق .

قال الشيخ عبد الحميد الفراهي:

إني رأيت في ترتيب كلام الله وله الحمد على ما أراني أن الكلام ينجر من أمر إلى أمر وكله جدير بأن يكون مقصوداً، فيشفي الصدور ويجلو القلوب، ثم يعود إلى البدء فيصير كالحلقة.

وإن من عادة العرب وفطرة البلاغة أن ينجر الكلام من أمر إلى آخر، ثم يعود إلى الأول أو الوسط وإذا كان المخاطب عالماً بأسباب الكلام عاقلاً له بقلبه لم يشكل عليه نظمه.

إن الإقرار بوجود التناسب بين الآيات يؤدي إلى انتظامها في وحدة موضوعية معينة تحت هدف عام ومقصد معين بالرغم من تنوع أغراض السورة.

المعارضون لعلم المناسبات وبيان الراجح.

وكحال كل فن له مؤيدوه؛ فإن الضرورة تقتضي ظهور من يعارضه ممن يرون ما لا يراه الفريق الآخر، ويأتون على دعواهم بما يدل عليها، وقد يكون الخلاف بين الفريقين لفظياً، كما يكون سر الخلاف في تنزيه كل فريق لموضوع البحث عما لا يليق به بحسب زاوية رؤيته له

فكان لعلم المناسبات القرآنية معارضون، وهم وإن كانوا قلة، إلا أن رأيهم محل بحث ودرس .

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام ت٦٦٠هـ :المناسبة :علم حسن ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر قال ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصان عنه حسن الحديث فضلا عن أحسنه فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض إذ لا يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض مع اختلاف العلل والأسباب

كتصرف الملوك والحكام والمفتين وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة و متخالفة ومتضادة وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض مع اختلافها في نفسها واختلاف أوقاتها انتهى .

كما نُقل عن (الإمام أبي حيان) صاحب (البحر المحيط) كلامٌ شبيه بكلام الشيخ عز الدين عبد السلام .وأنكر أبو العلاء محمد غانم المعروف بـ"الغانمي" اشتمال القرآن الكريم على أحد أنواع الارتباط بين الآيات القرآنية وهو المسمى بـ (حسن التخلص)، وقال: إن القرآن إنما وقع على الاقتضاب الذي هو طريقة العرب في الانتقال إلى غير ملائم.

وذكر (الشوكاني) صاحب تفسير" فتح القدير "حجج المنكرين لهذا اللون من الارتباط بين الآيات، ونحا نحوهم، وضرب على بعض الأمثلة. فعند تفسيره لقوله- تعالى} :يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ {البقرة:٤٠]، يقول: اعلم أن كثيراً من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله تعالى، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف؛ فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب- سبحانه -حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الأهم من التأليف كما في تفسيره ."

إلا أن أوسع مقال في الرد على أصحاب المناسبات ما كتبه الشيخ محمد الغزنوي حيث قال: "اعلم أن كثيراً من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه؛ وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاءوا بتكلفات يتبرأ منها الإنصاف ويتنزه عنه كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الأهم من التأليف كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه ومن تأخر عنه. وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقاً على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحي على رسول الله –صلى الله عليه وسلم –إلى أن قبضه الله– عز وجل –إليه، وكل عاقل لا يشك

أن هذه الحوادث المقتضية لنزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها، بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالاً، وتحليل أمر كان حراماً، وإثبات أمر لشخص أو أشخاص تناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، وتارة يكون الكلام مع المسلمين وتارة مع الكافرين وتارة مع من مضى وحضر، وحيناً في عبادة وحيناً في معاملة، ووقتاً في ترغيب ووقتاً في ترهيب، وآونة بشارة وآونة نذارة وطوراً في أمر دنيا وتارة في أمر آخرة، ومرة في تكاليف آتية ومرة في أقاصيص ماضية وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف الذي لا يتيسر معه الائتلاف؛ فالقرآن النازل فيها باعتبار نفسه مختلف كاختلافها . فكيف يطلب العاقل المناسبة بين العنب والتوت، والماء والنار، والملاَّح والحادي؟ وهل هذا إلاّ مِنْ فتح أبواب الشك وتوسيع دائرة الريب على من كان في قلبه مرض أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور؟ فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون في التناسب بين جميع آي القرآن، تقرر عنده أن هذا الأمر لا بد منه، وأنه لا يكون القرآن بليغاً معجزاً إلا إذا ظهر الوجه المقتضي للمناسبة. فإن وَجَد الاختلاف بين الآيات انقدح في قلبه ما كان عليه في عافية وسلامة، هذا على فرض أن نزول القرآن كان مرتباً على هذا الترتيب الكائن في المصحف؛ فكيف وكل من له أدنى علم بالكتاب يعلم علماِ يقيناً أنه لم يكن كذلك، ومن شك في هذا رجع إلى كلام أهل العلم العارفين بأسباب النزول المطَّلعين على حوادث النبوة؛ فإنه يثلج صدره ويزول عنه الريب بالنظر في سورة من السور المتوسطة فضلاً عن المطولة؛ فإنه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت في حوادث مختلفة لا مطابقة بين أسبابها .

بل يكفي المقصر أن يعلم أن أول ما نزل} :اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ] {العلق:١]، و} :يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ] {المدثر:١]، و} :يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ] {المزمل:١]، وينظر أي موضع هذه الآيات والسور في ترتيب المصحف. وإذا كان الأمر هكذا فأي معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعاً أنه تقدم في ترتيب المصحف ما أنزل الله متأخراً أو تأخر ما أنزل الله متقدماً. وما أقل نفع مثل هذا، بل هو عند من يفهم تضييع للأوقات في أمر لا يعود بنفع على فاعله ولا على من يقف عليه، وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجل من البلغاء من خطبه ورسائله، وإلى ما قاله شاعر من القصائد التي تكون تارة مدحاً وأخرى هجاء، وحيناً تشبباً وحيناً رثاء، وغير ذلك، فعمد هذا المتصدي إلى ذلك المجموع فناسب

بين فقره ومقاطعه، ثم تكلف تكلفاً آخر فناسب بين الخطبة التي خطبها في الحج والخطبة التي خطبها في النكاح ونحو ذلك، وناسب بين الإنشاء في العزا والإنشاء في الهنا، لعُدَّ هذا المتصدي لمثل هذا مصاباً في عقله عابثاً بعمره الذي هو رأس ماله،وإذا كان مثل هذا بهذه المنزلة في كلام البشر؛ فكيف تراه يكون في كلام الله سبحانه . الذي أعجزت بلاغته بلغاء العرب...؟

وقد علم كل مقصر وكامل أن الله- سبحانه -وصف هذا القرآن بأنه عربي، فأنزله بلغتهم وسلك فيه مسالكهم في الكلام، وجرى فيه مجاريهم في الخطاب، وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتي بفنون مختلفة وطرائق متباينة وكذلك شاعرهم. ولْنكتفِ بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي يعثر في ساحتها كثير من المحققين."

إن ما ذهب إليه العز بن عبد السلام وأبو حيان والغانمي والشوكاني والغزنوي هو مما فيه بعض عذر؛ فقد ضربوا أمثلة على تمحُّل القائلين بالمناسبة في القرآن، وأن اشتراط ذلك لا يليق لوقوع السور والآيات على أسباب وأزمان مختلفة يتأتى فيها تغاير الدواعي والعلل، وأن من سعى إلى البحث عن ذلك التناسب فقد تكلف ما لا يطيق، وإن قدر فهي مقدرة تؤدي إلى ربط ركيك يصان عنه كلام رب العالمين

والواقع أن ما ساقوه من دوافع ومسوِّغات هو مما يقبل إثبات العكس؛ فالثابت أن للقرآن الكريم نوعين من التنزلات: أحدهما :نزولي على حسب الوقائع، والآخر :مصحفي على حسب الترتيب المنقول إلينا بالتواتر جيلاً عن جيل وإن من يمعن في النظر يجد في كل واحد من التنزيلين نوع لُحْمة وانتماء وتناسب واتصال بين الآيات وبين السور على السواء؛ حدث أولاً عند نزولها بحسب الوقائع، ثم حدث ثانياً عند ترتيبها مصحفياً.

وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ففي ذلك علم جم وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له .

وإذا جاز ارتفاع حد التناسب عن كلام البشر وأفعالهم لاختلاف الحوادث والأزمان فإن ذلك لا يرتفع في كلام رب العالمين الموصوف بالإعجاز، وصدق الله؛ إذ يقول} :الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] {هود:١]. ثم إنه قد حُفظ عن الشوكاني عند ترجمته للبقاعي في كتابه (البدر الطالع) قوله" :إنه من الأئمة المتقنين المتبحرين في جميع المعارف". ووصف تفسيره (نظم الدرر) بقوله: "ومن أمعن النظر في كتاب له في التفسير الذي جعله في المناسبة بين الآي والسور علم أنه من أوعية العلم المفرطين في الذكاء الجامعين بين علميّ المعقول والمنقول، وكثيراً ما يشكل عليّ شيء في الكتاب العزيز وأرجع إلى مطولات التفسير ومختصراتها فلا أجد ما يشفي غليلي، وأرجع إلى هذا الكتاب فأجد ما يفيد."

كما أن أهل العلم قد خالفوا من أنكر القول بالمناسبات القرآنية ووهّموه، فقال الشيخ ولي الدين الملوي: "قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً؛ مرتبةُ سوره كلها وآياته بالتوقيف. وحافظ القرآن لو استفتي في أحكام متعددة أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سُئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتلُ كما أفتى ولا كما نزل مفرقاً، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة.

ثم زاد: "والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيءٍ عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جَمٌّ، وهكذا في السور يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له". ووافقه غير واحد الأئمة في ذلك.

المحاضرة السادسة

مناسبات الآيات والسور (٣)

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد:

ففي هذه المحاضرة نتحدث عن فرع من فروع علم المناسبات وهو :

التناسب بين الآية والتي تليها.

قال الزركشي: الذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة.

ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم.

قال السيوطي: وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء.

فنقول :ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلم بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح ، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل وهذا القسم لا كلام فيه.

وإما ألا يظهر الارتباط بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى وأنها خلاف النوع المبدوء به؛ فإما أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشركة في الحكم أو لا.

القسم الأول: أن تكون معطوفة:

ولا بد أن تكون بينهما جهة جامعة:

كقوله تعالى} :يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا{، وقوله} :وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.{

للتضاد بين القبض والبسط والولوج والخروج والنزول والعروج وشبه التضاد بين السماء والأرض، وفائدة العطف جعلهما كالنظيرين والشريكين.

ومن أمثلة علاقة المضادة :ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة، وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا ليكون ذلك باعثا على العمل بما سبق.

ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه ليعلم عظم الآمر والناهى.

وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك.

وبتأمل أمثلة التناسب بين الآيات يظهر اشتمال القرآن العظيم على النوع المسمى بالتخلص وقد أنكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي وقال: ليس في القرآن الكريم منه شيء لما فيه من التكلف وقال: إن القرآن إنما ورد على الاقتضاب الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم.

قال الزركشي: وليس كما قال.

وقال السيوطي: قد غلط في قوله... وليس كما قال ففيه من التخلصات العجيبة ما يحير العقول.

وانظر إلى سورة الأعراف كيف ذكر فيها الأنبياء والقرون الماضية والأمم السالفة، ثم ذكر موسى إلى أن قص حكاية السبعين رجلا ودعائه لهم ولسائر أمته بقوله واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة وجوابه تعالى عنه ثم تخلص بمناقب سيد المرسلين بعد تخلصه لأمته بقوله } :قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ {من صفاتهم كيت وكيت وهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي وأخذ في صفاته الكريمة وفضائله وهو من بديع التخلص.

وفي سورة الشعراء حكى قول إبراهيم} :وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ {فتخلص منه إلى وصف المعاد بقوله} :يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ {الخ، وقد تخلص من قصة إبراهيم وقومه إلى تمني الكفار في الدار الآخرة الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسل في قوله} :فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {وهذا تخلص عجيب.

وفي سورة الكهف حكى قول ذي القرنين في السد بعد دكه الذي هو من أشراط الساعة ثم النفخ في الصور وذكر الحشر ووصف مآل الكفار والمؤمنين.

وقال بعضهم: الفرق بين التخلص والاستطراد أنك في التخلص تركت ما كنت فيه بالكلية وأقبلت على ما تخلصت إليه وفي الاستطراد تمر بذكر الأمر الذي استطردت إليه مرورا كالبرق الخاطف ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصده وإنما عرض عروضا.

قيل: وبهذا يظهر أن ما في سورتي الأعراف والشعراء من باب الاستطراد لا التخلص لعوده في الأعراف إلى قصة موسى بقوله} :وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ {إلى آخره وفي الشعراء إلى ذكر الأنبياء والأمم.

قلت: سيأتي ذكر الاستطراد في القسم الذي لا عطف فيه ويلاحظ أن أمثلة التخلص فيها مالا عطف فيه أيضا مما يعني أن التخلص والاستطراد كليهما من أسباب التناسب بين الآيات سواء أكانت معطوفة أم غير معطوفة.

ومن أحسن أمثلة التخلص :

قوله تعالى } :اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ {الآية فإن فيها خمس تخلصات وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها ثم رجع إلى ذكر النور والزيت يستمد منه ثم تخلص منه إلى ذكر الشجرة ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء.

ومنه قوله تعالى } :سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ {الآية فإنه سبحانه ذكر أولا عذاب الكفار وأن لا دافع له من الله ثم تخلص إلى قوله} :تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ {بوصف الله ذي المعارج.

وقوله} :قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ {وذلك أنه لما أراد الانتقال من أحوال أصنامهم إلى ذكر صفات الله قال: إن أولئك لي أعداء إلا الله فانتقل بطريق الاستثناء المنفصل.

وقوله تعالى } :إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ * أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.{

وقوله تعالى في سورة الصافات} :أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ {وهذا من بديع التخلص فإنه سبحانه خلص من وصف المخلصين وما أعد لهم إلى وصف الظالمين وما أعد لهم .

واعلم أنه حيث قصد التخلص فلا بد من التوطئة له.

ومن بديعه :قوله تعالى } :نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ { يشير إلى قصة يوسف عليه السلام فوطأ بهذه الجملة إلى ذكر القصة يشير إليها بهذه النكتة من باب الوحي والرمز وكقوله سبحانه موطئا للتخلص إلى ذكر مبتدأ خلق المسيح عليه السلام} :إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً {الآية.

ومنها قوله تعالى} :وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ {فإنه قد يقال ما وجه اتصاله بما قبله وهو قوله} :وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا {الآية؟.

قال الشيخ أبو محمد الجويني في تفسيره سمعت أبا الحسين الدهان يقول وجه اتصالها هو أن ذكر تخريب بيت المقدس قد سبق أي فلا يجرمنكم ذلك واستقبلوها فإن لله المشرق والمغرب.

ومنها قوله } :أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ {الآية فإنه يقال ما وجه الجمع بين الإبل والسماء والجبال والأرض في هذه الآية؟.

والجواب :أنه جمع بينها على مجرى الإلف والعادة بالنسبة إلى أهل الوبر فإن كل انتفاعهم في معايشهم من الإبل فتكون عنايتهم مصروفة إليها ولا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب وذلك بنزول المطر وهو سبب تقلب وجوههم في السماء ثم لا بد لهم من مأوى يؤويهم وحصن يتحصنون به ولا شيء في ذلك كالجبال ثم لا غنى لهم لتعذر طول مكثهم في منزل عن التنقل من أرض إلى سواها فإذا نظر البدوي في خياله وجد صورة هذه الأشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور.

ومنها قوله تعالى } :أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ {يقال أي ارتباط بينهما؟.

وجوابه :أن المبتدأ وهو من خبره محذوف أي أفمن هو قائم على كل نفس تترك عبادته أو معادل الهمزة تقديره أفمن هو قائم على كل نفس كمن ليس بقائم؟.

ووجه العطف على التقديرين واضح ؛ أما الأول: فالمعنى أتترك عبادة من هو قائم على كل نفس ولم يكف الترك حتى جعلوا له شركاء؟.

وأما على الثاني: فالمعنى إذا انتفت المساواة بينهما فكيف تجعلون لغير المساوي حكم المساوي.

ومنها قوله تعالى } :أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ { إلى قوله} :والله لا يهدي القوم الظالمين * وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.{

عطف قصة على قصة مع أن شرط العطف المشاكلة فلا يحسن في نظير الآية} :أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ} {أَوْ كَالَّذِي}.

ووجه ما بينهما من المشابهة أن} :أَلَمْ تَرَ { بمنزلة هل رأيت كالذي حاج إبراهيم وإنما كانت بمنزلتها لأن} أَلَمْ تَرَ { مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي، ولذلك يجاب ببلى والاستفهام يعطي النفي، إذ حقيقة المستفهم عنه غير ثابتة عند المستفهم، ومن ثم جاء حرف الاستفهام مكان حرف النفي، ونفي النفي إيجاب، فصار بمثابة رأيت غير أنه مقصود به الاستفهام ولم يمكن أن يؤتى بحرفه لوجوده في اللفظ فلذلك أعطي معنى هل رأيت.

فإن قلت من أين جاءت إلى ورأيت يتعدى بنفسه أجيب لتضمنه معنى تنظر.

هذا القسم الأول حيث تكون الآية الثانية معطوفة على الأولى.

والقسم الثاني: ألا تكون معطوفة:

وهنا لا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام وهى قرائن معنوية مؤذنة بالربط.

والقسم الأول مزج لفظي

وهذا القسم مزج معنوي تنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثاني.

وله أسباب:

أحدها: التنظير؛ فإن إلحاق النظير بالنظير من دأب العقلاء ومن أمثلته:

قوله تعالى} :كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ {عقب قوله} :أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ. {

فإن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضى لأمره في الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير أو للقتال وهم كارهون وذلك أنهم اختلفوا في القتال يوم بدر في الأنفال وحاجوا النبي –صلى الله عليه وسلم– وجادلوه فكره كثير منهم ما كان من فعل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في النفل فأنزل الله هذه الآية وأنفذ أمره بها وأمرهم أن يتقوا الله ويطيعوه ولا يعترضوا عليه فيما يفعله من شيء ما بعد أن كانوا مؤمنين ووصف

المؤمنين ثم قال} :كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ { يريد أن كراهيتهم لما فعلته من الغنائم ككراهتهم للخروج معك.

والقصد أن كراهتهم لما فعله من قسمة الغنائم ككراهتهم للخروج وقد تبين في الخروج الخير من الظفر والنصر والغنيمة وعز الإسلام فكذا يكون فيما فعله في القسمة فليطيعوا ما أمروا به ويتركوا هوى أنفسهم .

فشبه كراهتهم ما جرى من أمر الأنفال وقسمتها بالكراهة في مخرجه من بيته وكل ما لا يتم الكلام إلا به من صفة وصلة فهو من نفس الكلام.

وقيل معناه: أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق كقوله تعالى : }فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ.{

وقيل الكاف صفة لفعل مضمر وتأويله افعل في الأنفال كما فعلت في الخروج إلى بدر وإن كره القوم ذلك.

ونظيره قوله تعالى} :كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ {معناه كما أنعمنا عليكم بإرسال رسول من أنفسكم فكذلك أتم نعمتي عليكم.

وأما قوله تعالى} :كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ {بعد قوله} :وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ {فإن فيه محذوفا كأنه قال أنا النذير المبين عقوبة أو عذابا مثل ما أنزلنا على المقتسمين.

السبب الثاني: المضادة: ومن أمثلته:

قوله تعالى في سورة البقرة} :إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ {الآية فإن أول السورة كان حديثا عن القرآن الكريم وأن من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان فلما أكمل وصف المؤمنين عقب بحديث الكافرين فبينهما جامع وهمي بالتضاد من هذا الوجه وحكمته التشويق والثبوت على الأول. كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

فإن قيل: هذا جامع بعيد لأن كونه حديثا عن المؤمنين؛ بالعرض لا بالذات والمقصود بالذات الذي هو مساق الكلام إنما هو الحديث عن الكتاب لأنه مفتتح القول.

قلنا: لا يشترط في الجامع ذلك، بل يكفى التعلق على أي وجه كان.

ويكفى في وجه الربط ما ذكرنا لأن القصد تأكيد أمر القرآن والعمل به والحث على الإيمان به ولهذا لما فرغ من ذلك قال} :وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا {الآية فرجع إلى الأول.

السبب الثالث: الاستطراد:

كقوله تعالى} :يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُون.{

قال الزمخشري: هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها إظهارا للمنة فيما خلق الله من اللباس ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة وإشعارا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى .

قال السيوطي: وقد خرجت على الاستطراد قوله تعالى} :لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ {فإن أول الكلام ذكر للرد على النصارى الزاعمين نبوة المسيح ثم استطرد للرد على العرب الزاعمين بنوة الملائكة.

وجعل القاضي أبو بكر في كتاب إعجاز القرآن من الاستطراد قوله تعالى } :أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. {

وقال كأن المراد أن يجري بالقول الأول إلى الإخبار عن أن كل شيء يسجد لله عز وجل وإن كان ابتداء الكلام في أمر خاص. انتهى.

قال الزركشي: وفيه نظر.

قال السيوطي: ويقرب من الاستطراد حتى لا يكادان يفترقان حسن التخلص وهو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاسا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما.

قلت: سبق أن حسن التخلص متعلق بالقسم الأول حيث تكون الآية الثانية معطوفة على الأولى وإن كانت بعض أمثلته لا عطف فيها كما ذكر السيوطي -رحمه الله.-

السبب الرابع: الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطا للسامع وهو قريب من التخلص:

كقوله تعالى في سورة ص بعد ذكر الأنبياء} :هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ {فإن هذا القرآن نوع من الذكر لما انتهى ذكر الأنبياء وهو نوع من التنزيل أراد أن يذكر نوعا آخر وهو ذكر الجنة وأهلها فقال} :هَذَا ذِكْرٌ {فأكد تلك الإخبارات باسم الإشارة.

كما تقول: أشير عليك بكذا ثم تقول بعده هذا الذي عندي والأمر إليك.

وقال} :وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ {كما يقول المصنف هذا باب ثم يشرع في باب آخر ولذلك لما فرغ من ذكر أهل الجنة قال} :هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ {فذكر النار وأهلها .

قال ابن الأثير: هذا في هذا المقام ؛ من الفصل الذي هو أحسن من الوصل وهي علاقة أكيدة بين الخروج من كلام إلى آخر.

ويقرب منه أيضا ما يسمى: حسن المطلب:

قال الزنجاني والطيبي: وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة كقوله} :إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ {

قال الطيبي: ومما اجتمع فيه حسن التخلص والمطلب معا قوله تعالى حكاية عن إبراهيم } : فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ {إلى قوله} :رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ.{

نكتفي بهذا القدر في هذه المحاضرة وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المحاضرة السابعة

مناسبات الآيات والسور (٤)

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد:

تكملة الحديث عن التناسب بين الآية والتي تليها.

فنقول: هناك آيات أشكلت مناسبتها لما قبلها فقد تأتى الجملة معطوفة على ما قبلها ويشكل وجه الارتباط؛ فتحتاج إلى شرح ونذكر من ذلك صورا يلتحق بها ما هو في معناها:

من ذلك قوله تعالى في سورة القيامة} :لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ {الآيات فإن وجه مناسبتها لأول السورة وآخرها عسر جدا فإن السورة كلها في أحوال القيامة حتى زعم بعض الرافضة أنه سقط من السورة شيء وحتى ذهب القفال فيما حكاه الفخر الرازي أنها نزلت في الإنسان المذكور قبل في قوله } :يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ {قال يعرض عليه كتابه فإذا أخذ في القراءة تلجلج خوفا فأسرع في القراءة فيقال له} لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ { إن علينا أن نجمع عملك وأن نقرأ عليك} فَإِذَا قَرَأْنَاهُ {عليك} فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ {بالإقرار بأنك فعلت ثم إن علينا بيان أمر الإنسان وما يتعلق بعقوبته. انتهى

قال السيوطي: وهذا يخالف ما ثبت في الصحيح أنها نزلت في تحريك النبي –صلى الله عليه وسلم– لسانه حالة نزول الوحي عليه.

وقد ذكر الأئمة لها مناسبات:

قال الزركشي: وأما قوله تعالى} :لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ {وقد اكتنفه من جانبيه قوله : }بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ {وقوله } :كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ { فهذا من باب قولك للرجل وأنت تحدثه بحديث فينتقل عنك ويقبل على شيء آخر: أقبل علي واسمع ما أقول وافهم عنى ونحو هذا الكلام، ثم تصل حديثك. فلا يكون بذلك خارجا عن الكلام الأول قاطعا له، وإنما يكون به مشوقا للكلام.

وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم –أميا لا يقرأ ولا يكتب وكان إذا نزل عليه الوحي وسمع القرآن حرك لسانه بذكر الله، فقيل له: تدبر ما يوحى إليك ولا تتلقفه بلسانك فإنما نجمعه لك ونحفظه عليك .

ونظيره قوله في سورة المائدة} :يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ {إلى قوله } :وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً {فإن الكلام بعد ذلك متصل بقوله أولا} :ذَلِكُمْ فِسْقٌ {ووسط هذه الجملة بين الكلامين ترغيبا في قبول هذه الأحكام والعمل بها والحث على مخالفة الكفار وموت كلمتهم وإكمال الدين.

ويدل على اتصال} فَمَنِ اضْطُرَّ} بقوله {ذَلِكُمْ فِسْقٌ} آية الأنعام} قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ.{

والمقصود أن أول السورة لما نزل إلى} :وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ {صادف أنه –صلى الله عليه وسلم– في تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل وحرك به لسانه من عجلته خشية من تفلته فنزل} :لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ {إلى قوله} :ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ {ثم عاد إلى الكلام إلى تكملة ما ابتدئ به.

قال الفخر الرازي: ونحوه ما لو ألقى المدرس على الطالب مثلا مسألة فتشاغل الطالب بشيء عرض له فقال له ألق إلي بالك وتفهم ما أقول ثم كمل المسألة فمن لا يعرف السبب يقول ليس هذا الكلام مناسبا للمسألة بخلاف من عرف ذلك.

ومنها أيضا أي مما قيل في المناسبة:

أنه تعالى لما ذكر القيامة وكان من شأن من يقصر عن العمل لها حب العاجلة وكان من أصل الدين أن المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة فنبه على أنه قد يعترض على هذا المطلوب ما هو أجل منه وهو الإصغاء إلى الوحي وتفهم ما يرد منه والتشاغل بالحفظ قد يصد عن ذلك فأمر بألا يبادر إلى التحفظ لأن تحفيظه مضمون على ربه وليصغ إلى ما يرد عليه إلى أن ينقضي فيتبع ما اشتمل عليه، ثم لما انقضت الجملة المعترضة رجع الكلام إلى ما يتعلق بالإنسان المبتدأ بذكره ومن هو من جنسه فقال كلا وهي كلمة ردع كأنه قال بل أنتم يا بني آدم لكونكم خلقتم من عجل تعجلون في كل شيء ومن ثم تحبون العاجلة .

ومنها: أن عادة القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملا وتركا كما قال في الكهف} :وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ {إلى أن قال : }وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ {الآية، وقال في سبحان} فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ {إلى أن قال} :وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ {الآية.

وقال في طه} :يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً {إلى أن قال} :فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ .{

ومنها أن النفس لما تقدم ذكرها في أول السورة عدل إلى ذكر نفس المصطفى كأنه قيل هذا شأن النفوس وأنت يا محمد نفسك أشرف النفوس فلتأخذ بأكمل الأحوال.

ومما أشكل أيضا:

قوله تعالى} :يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا {الآية.

عن ابن عباس قال: سأل الناس رسول الله– صلى الله عليه وسلم– عن الأهلة، فنزلت هذه الآية. وقال أبو العالية: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله! لِمَ خُلقت الأهلة؟ فأنزل الله : }يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ{، وقوله –تعالى} :–وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا {وأخرج البخاري عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله الآية.

قال الرازي: «قول أكثر المفسرين حَمْل الآية على هذه الأحوال التي رويناها في سبب النزول، إلا أنه على هذا التقدير يصعب الكلام في نظمها؛ فإن القوم سألوا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن الحكمة في تغير نور القمر، فذكر الله —تعالى–الحكمة في ذلك بقوله} :قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ{، فأي تعلُّق بين بيان الحكمة في اختلاف نور القمر وبين هذه القصة؟.

أي ما هو الرابط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيان البيوت؟.

والجواب من وجوه:

أحدها :كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكمة في تمام الأهلة ونقصانها :

معلوم أن كل ما يفعله الله فيه حكمة ظاهرة ومصلحة لعباده فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برا.

الثانى :أنه من باب الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج وكان هذا من أفعالهم في الحج ففي الحديث أن ناسا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولا دارا ولا فسطاطا من باب فإن كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلما يصعد به وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء فقيل لهم ليس البر بتحرجكم من دخول الباب لكن البر بر من اتقى ما حرم الله وكان من حقهم السؤال عن هذا وتركهم السؤال عن الأهلة.

ونظيره في الزيادة على الجواب قوله- صلى الله عليه وسلم- لما سئل عن المتوضئ بماء البحر فقال)) :هو الطهور ماؤه الحل ميتته.((

الثالث :أنه من قبيل التمثيل لما هم عليه من تعكيسهم في سؤالهم وأن مثلهم كمثل من يترك بابا ويدخل من ظهر البيت فقيل لهم ليس البر ما أنتم عليه من تعكيس الأسئلة ولكن البر من اتقى ذلك ثم قال الله سبحانه} :وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا {أي باشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا.

والمراد أن يصمم القلب على أن جميع أفعال الله حكمة منه وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فإن في السؤال اتهاما.

وقال الرازي: جعل –سبحانه وتعالى- إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم .

أي أن سؤالهم عن حادثة فلكية دقيقة قبل تعاطيهم أسباب علم الفلك ووسائل معرفته كمن يأتي البيت من ظهوره؛ وذلك بلا شك مناقض للحكمة والبر، ولذلك ختم سبحانه الآية بقوله} :وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.{

يقول ابن سعدي: كل من سلك طريقاً أو عمل عملاً، فأتاه من طرقه وأبوابه فلا بد أن يفلح ويصل إلى غايته، كما قال –تعالى} :-وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا{، وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعيّن البحث التام عن أمثل الطرق الموصلة إليه.

ومنها كذلك:

قوله سبحانه وتعالى } :سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى {إلى أن قال} :وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ{، فإنه قد يقال: أي رابط بين الإسراء و }وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ{؟

ووجه اتصالها بما قبلها أن التقدير أطلعناه على الغيب عيانا وأخبرناه بوقائع من سلف بيانا لتقوم أخباره على معجزته برهانا أي سبحان الذي أطلعك على بعض آياته لتقصها ذكرا وأخبرك بما جرى لموسى وقومه في الكرتين لتكون قصتهما آية أخرى.

أو أنه أسرى بمحمد –صلى الله عليه وسلم- إلى ربه كما أسرى بموسى من مصر حين خرج منها خائفا يترقب.

ثم ذكر بعده} ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً {ليتذكر بنو إسرائيل نعمة الله عليهم قديما حيث نجاهم من الغرق إذ لو لم ينج أباهم من أبناء نوح لما وجدوا وأخبرهم أن نوحا كان عبدا شكورا وهم ذريته والولد سر أبيه فيجب أن يكونوا شاكرين كأبيهم لأنه يجب أن يسيروا سيرته فيشكروا.

وتأمل كيف أثنى عليه وكيف تليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بها مع خروجها مخرج المرور عن الكلام الأول إلى ذكره ومدحه بشكره وأن يعتقدوا تعظيم تخليصه إياهم من الطوفان بما حملهم عليه ونجاهم منه حين أهلك من عداهم وقد عرفهم أنه إنما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم فيما سلط عليهم من قتلهم.

ثم عاد عليهم بالإحسان والإفضال كي يتذكروا ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم وعلى نوح الذي ولدهم وهم ذريته فلما صاروا إلى جهالتهم وتمردوا عاد عليهم التعذيب.

ثم ذكر تعالى في ثلاث آيات بعد ذلك معنى هذه القصة بكلمات قليلة العدد كثيرة الفوائد لا يمكن شرحها إلا بالتفصيل الكثير والكلام الطويل مع ما اشتمل عليه من التدريج العجيب والموعظة العظيمة بقوله } :إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا.{

ولم ينقطع بذلك نظام الكلام إلى أن خرج إلى قوله} :عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا {يعنى إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى العفو ثم خرج خروجا آخر إلى حكمة القرآن لأنه الآية الكبرى وعلى هذا فقس الانتقال من مقام إلى مقام حتى ينقطع الكلام.

ومن ذلك أيضا:

قوله تعالى} :وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ {الآية فقد يقال ما وجه اتصاله بما قبله وهو قوله : }وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ {الآية؟.

قال الشيخ أبو محمد الجويني في تفسيره: سمعت أبا الحسن الدهان بقول وجه اتصاله هو أن ذكر تخريب بيت المقدس قد سبق أي فلا يجرمنكم ذلك واستقبلوه فإن لله المشرق والمغرب.

فصل

في اتصال اللفظ والمعنى على خلاف:

قال الزركشي:

وقد يكون اللفظ متصلا بالآخر والمعنى على خلافه كقوله تعالى} :وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ {فقوله} :كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ {منظوم بقوله} :قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ {لأنه موضع الشماتة.

وقوله} :كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ {فإنه متصل بقوله} :وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ.{

وقوله} :وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ {جواب الشرط قوله تعالى} :تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ {وقوله} :قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ {داخل في الشرط.

وقوله} :وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ {إلى قوله} :إِلا قَلِيلاً {فقوله : }إِلا قَلِيلاً {متصل بقوله} :لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ.{

ومثل بقوله} :وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ {على تأويل} :وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} { إِلا قَلِيلاً { ممن لم يدخله في رحمته واتبعوا الشيطان لا تبعتم الشيطان.

ومما يحتمل الاتصال والانقطاع قوله تعالى} :فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ { يحتمل أن يكون متصلا بقوله} :فِيهَا مِصْبَاحٌ {أي المصباح في بيوت ويكون تمامه على قوله : }وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ {و} يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ {صفة للبيوت ويحتمل أن يكون منقطعا خبرا لقوله} :رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ.{

ومما يتعين أن يكون منقطعا قوله} :وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ { مستأنف لأنه لو جعل متصلا بيعزب لاختل المعنى إذ يصير على حد قولك ما يعزب عن ذهني إلا في كتاب أي استدراكه.

وقوله} :فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ {منهم من قضى باستئنافه على أنه مبتدأ وخبر، ومنهم من قضى بجعل فيه خبر لا و هدى نصب على الحال في تقدير هاديا.

ولا يخفى انقطاع} الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ {عن قوله} :أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ.{

وكذا} فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ {عن قوله سبحانه} :إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ.{

وكذلك قوله} :فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ {عن قوله} :مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ.{

قاعدة في معرفة المناسبات:

قال المشدالي المغربي :

الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن فإذا فعلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة.

وقد اعتبر بعضهم ما لاحظه جماعة من أهل العلم حول الأسلوب القرآني قواعد وضوابط لمعرفة المناسبات ومن ذلك ما قدمناه فيما سبق من محاضرات مثل:قول البقاعي: "تتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها.

و قول الزركشي: "وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً؛ ليكون ذلك باعثاً على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه؛ ليُعلم عظم الآمر والناهي.

وقول السيوطي: إن عادة القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد؛ حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً.

نكتفي بهذا القدر في هذه المحاضرة وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المحاضرة الثامنة

مناسبات الآيات والسور (٥)

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

ففي هذه المحاضرة نستكمل حديثنا عن:

تناسب السور والآيات.

وأول موضوعاتنا اليوم عن :

التناسب بين فواتح وخواتم كل سورة.

يقول السيوطي -رحمه الله:-

من هذا النوع مناسبة فواتح السور وخواتمها وقد أفردت فيه جزءا لطيفا سميته مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع.

وقال الزركشي:

ومن أسراره مناسبة فواتح السور وخواتمها وتأمل سورة القصص وبداءتها بقصة مبدأ أمر موسى ونصرته وقوله} :فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ {وخروجه من وطنه ونصرته وإسعافه بالمكالمة وختمها بأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بألا يكون ظهيرا للكافرين وتسليته بخروجه من مكة والوعد بعوده إليها بقوله} :إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ .{ لقوله في أول السورة} :إِنَّا رَادُّوهُ.{

وفي سورة ص بدأها بالذكر وختمها به في قوله} :إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ.{

وفي سورة ن بدأها بقوله} :مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ {وختمها بقوله} :إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ.{

وفي أول سورة البقرة} :الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ{، ثم قال في آخر السورة} :آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ {فهو في أول السورة يذكر صفات المتقين التي يتميزون بها وفي آخر السورة يبين أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- والذين آمنوا معه قد امتثلوا تلك الصفات وتحلوا بها.

ومن أمثلته أيضا سورة الممتحنة حيث بدئت بقوله تعالى} :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ {وختمت بقوله تعالى} :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ.{

وسورة الحشر بدئت بقوله تعالى} :سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {وختمت بقوله تعالى} :يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.{

وسورة المؤمنون بدئت بقوله تعالى} :قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ {وختمت بقوله} :إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ {وغيرها من السور.

قال الزمخشري: وقد جعل الله فاتحة سورة} قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ {وأورد في خاتمتها} إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ {فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة.

وذكر الكرماني في العجائب مثله.

ويلاحظ أن الوحدة الموضوعية في الممتحنة تدور حول البراءة من أعداء الله وعدم موالاتهم، والوحدة الموضوعية في سورة المؤمنون حول صفات المؤمنين المفلحين، وأوصاف الكافرين الخائبين .

وسيأتي الكلام عن الوحدة الموضوعية في نهاية هذه المحاضرة بإذن الله تعالى.

الموضوع الثاني في محاضرة اليوم هو :التناسب بين السورة والتي تليها.

وينقسم إلى أقسام:

الأول: التناسب بين فاتحة السورة وخاتمة التي قبلها.

فمن أسرار علم تناسب السور مناسبة فاتحة السورة بخاتمة التي قبلها حتى إن منها ما يظهر تعلقها به لفظا كما قيل في} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} {لإِيلافِ قُرَيْشٍ.{

فقد قال الأخفش اتصالها بها من باب فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا.

وقال بعضهم: إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ثم هو يخفي تارة ويظهر أخرى كافتتاح سورة الأنعام بالحمد فإنه مناسب لختام المائدة من فصل القضاء كما قال تعالى} :وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.{

ولما ختم سبحانه سورة النساء آمرا بالتوحيد والعدل بين العباد أكد ذلك بقوله في أول سورة المائدة} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ.{

وفي آخر سورة الإسراء قال تعالى} :وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً{، وفي أول سورة الكهف التي تليها قال} :الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا.{

و في آخر سورة الطور قال: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}، وفي أول سورة النجم قال : }وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى.{

وكافتتاح سورة فاطر بالحمد لله فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله} :وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ {كما قال تعالى} :فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.{

وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح فإنه مناسب لختام سورة الواقعة بالأمر به.

وكافتتاح سورة البقرة بقوله} :الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ { فإنه إشارة إلى الصراط في قوله} :اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ {كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة.

وكافتتاح البقرة بقوله} :الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ {إشارة إلى الصراط في قوله} :اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ {كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب.

وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة.

وقال أبو جعفر بن الزبير حكى الخطابي أن الصحابة لما اجتمعوا على القرآن وضعوا سورة القدر عقب العلق استدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية في قوله} :إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ {الإشارة إلى قوله} :اقْرَأْ {قال القاضي أبو بكر ابن العربي وهذا بديع جدا.

قال الزركشي:

وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له.

قال: وهو مبنى على أن ترتيب السور توقيفي وهذا الراجح كما سيأتي.

قلت: وهو كما قال –رحمه الله– ولذلك محاضرة مستقلة.

الثاني: التناسب بين فواتح السورة وفواتح التي تليها:

مثل مناسبة فاتحة سورة الإسراء بالتسبيح وسورة الكهف بالتحميد لأن التسبيح حيث جاء مقدم على التحميد يقال سبحان الله والحمد لله.

وذكر الشيخ كمال الدين الزملكانى فى بعض دروسه مناسبة استفتاحها بذلك ما ملخصه إن سورة بنى إسرائيل افتتحت بحديث الإسراء وهو من الخوارق الدالة على صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وأنه رسول من عند الله، والمشركون كذبوا ذلك وقالوا كيف يسير في ليلة من مكة إلى بيت المقدس وعاندوا وتعنتوا وقالوا صف لنا بيت المقدس فرفع له حتى وصفه لهم... قال: فافتتحت بالتسبيح تصديقا لنبيه فيما ادعاه لأن تكذيبهم له تكذيب عناد فنزه نفسه قبل الإخبار بهذا الذي كذبوه أما الكهف فإنه لما احتبس الوحي وأرجف الكفار بسبب ذلك أنزلها الله ردا عليهم وأنه لم يقطع نعمه عن نبيه –صلى الله عليه وسلم– بل أتم عليه بإنزال الكتاب فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السور فما ظنك بالآيات وتعلق بعضها ببعض بل عند التأمل يظهر أن القرآن كله كالكلمة الواحدة.

الثالث: التناسب بين مضمون السورة ومضمون التي تليها:

ومن لطائف ذلك وجه المناسبة بين سورتي الماعون والكوثر .قيل: "هي كالمقابلة للتي قبلها، لأن السابقة وصف الله فيها المنافقين بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة. فذكر في هذه السورة في مقابلة البخل} :إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ {أي: الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة: فَصَلِّ أي: دُم عليها، وفي مقابلة الرياء} :لِرَبِّكَ {أي: لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون} :وَانْحَرْ{، ويدخل فيه التصدّق من لحوم الأضاحي."

ومثاله أيضا: في سورة الضحى ذكرٌ للنعم الحسية على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ، وفي سورة الشرح ذكر للنعم المعنوية عليه.

مثال آخر: في سورة البقرة ذكر للطوائف الثلاث: المنعم عليهم ويمثلهم المسلمون، والمغضوب عليهم ويمثلهم اليهود، والضالون ويمثلهم النصارى. وقد ذكر في سورة البقرة الطائفتين الأوليين بما هو ظاهر، وفي سورة آل عمران ذكر الطائفة الثالثة فيما يزيد على "١٢٠" آية من أولها.

وقال بعضهم لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم.

أحدها :بحسب الحروف كما في الحواميم

الثاني :لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة.

الثالث :للتوازن في اللفظ كآخر تبت وأول الإخلاص.
الرابع :لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى كالضحى وألم نشرح.
قال بعض الأئمة وسورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية والالتجاء إليه في دين الإسلام والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين وآل عمران مكملة لمقصودها فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم ولهذا ورد فيها ذكر المتشابه لما تمسك به النصارى.
وأوجب الحج في آل عمران وأما في البقرة فذكر أنه مشروع وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه وكان خطاب النصارى في آل عمران أكثر كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر لأن التوراة أصل والإنجيل فرع لها والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم وكان جهاده للنصارى في آخر الأمر كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذي اتفق عليه الأنبياء فخوطب به جميع الناس والسور المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين فخوطبوا ب}يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} {يَا بَنِي إِسْرائيلَ} {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.{
وأما سورة النساء فتضمنت أحكام الأسباب التي بين الناس وهي نوعان مخلوقة لله ومقدورة لهم كالنسب والصهر ولهذا افتتحت بقوله} :اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا {ثم قال} :وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ {فانظر هذه المناسبة العجيبة في الافتتاح وبراعة الاستهلال حيث تضمنت الآية المفتتح بها ما أكثر السورة في أحكامه من نكاح النساء ومحرماته والمواريث المتعلقة بالأرحام وأن ابتداء هذا الأمر كان بخلق آدم ثم خلق زوجه منه ثم بث منهما رجالا ونساء في غاية الكثرة.
وأما المائدة فسورة العقود تضمنت بيان تمام الشرائع ومكملات الدين والوفاء بعهود الرسل وما أخذ على الأمة وبها تم الدين فهي سورة التكميل لأن فيها تحريم الصيد على المحرم الذي هو من تمام الإحرام وتحريم الخمر الذي هو من تمام حفظ العقل والدين وعقوبة المعتدين من السراق والمحاربين الذي هو من تمام حفظ الدماء والأموال وإحلال الطيبات الذي هو من تمام عبادة الله تعالى ولهذا ذكر فيها ما يختص بشريعة محمد -صلى الله عليه وسلم- كالوضوء والتيمم والحكم بالقرآن على كل دين ولهذا كثر فيها من لفظ الإكمال والإتمام وذكر فيها أن

من ارتد عوض الله خير منه ولا يزال هذا الدين كاملا ولهذا ورد أنها آخر ما نزل لما فيها من إشارات الختم والتمام.

وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيات من أحسن الترتيب.

وسيأتي الحديث عن موضوع ترتيب السور والآيات في محاضرة خاصة إن شاء الله تعالى.

بقي في تعليّقات القرآن أنواع من المناسبات نذكر منها :

أولا: المناسبة بين حكمين في الآيات أو الآية:

وذلك كما في آيات الاستئذان حين أعقبها بالأمر بغض البصر؛ فإن الاستئذان إنما جعل من أجل أن لا يقع بصر المستأذن على عورة، ولو صادف أن وقع فإن على المستأذن أن يغض البصر، ثم إن العلاقة بين الحكمين بيّنة؛ إذ فيهما ذكر ما تكون به العفة وحفظ العورات في المجتمع المسلم.

والمناسبة بين الأمر بحفظ الفرج والأمر بغض البصر وهما حكمان في آية واحدة.

ثانيا: مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له:

ومن أمثلة ذلك سورة النساء فإن الكثير من آياتها إنما يتكلم عن العلاقات الأسرية ومسائل النكاح وأمر النساء وما يتعلق بهن فناسب ذلك افتتاح مطلعها بذكر أصل الخليقة وأول تزاوج حصل في تاريخ البشرية وقد تقدم الإشارة لذلك.

ثالثا: المناسبة بين اسم السورة ومضمونها:

مثاله: المناسبة بين مضمون سورة الكهف واسمها؛ فإن السورة قد ذكرت أنواع الفتن التي تمر بالمرء؛ إذ ذكرت فيها الفتنة في الدين في قصة الفتية، وفتنة الجلساء في قوله} :وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ{، وفتنة المال في قصة صاحب الجنتين، وفتنة العلم في قصة موسى والخضر، وفتنة السلطان في قصة ذي القرنين، وفتنة القوة والكثرة في خبر يأجوج ومأجوج، وذكرت هذه السورة المخرج من كل واحدة من هذه الفتن؛ فكأنها كهف لمن اعتصم بها من الفتن، وقد قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال.((

رابعا: المناسبات العامة :

وهي المناسبات التي يذكرها العلماء مطلقة في القرآن وهي كثيرة ومن ذلك:

-افتُتحت سورتان بقوله: يا أيها الناس وهما: سورتا النساء، والحج، وذكر في الأولى بدء الخلق والحياة للإنسان} :يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً{، وفي سورة الحج ذكر لنهاية هذه الحياة وبداية حياة أخرى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ.{

ونخلص من هذا المثال إلى الحديث عن الوحدة الموضوعية في القرآن التي وعدنا بأن نعرج عليها لارتباطها بعلم المناسبات العامة فنقول:

من الشواهد على الوحدة الموضوعية والترابط بين آيات السورة الواحدة تكرار بعض الآيات أو معانيها في السورة: تكررت في بعض السور الآيات مرات عديدة، مثل سورة المرسلات، وسورة الرحمن، وسورة هود، وسورة القمر ...

والآيات التي تكرر ذكرها قوله تعالى} :فبأي آلاء ربكما تكذبان {وقوله تعالى} :وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ {وقولهِ تعالى} :وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ {وقوله تعالى} :فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ.{

فتكرار الآيات في السورة الواحدة، رغم أنها تتطرق لعدة معان وتنجر من غرض إلى آخر، لكن هذا التكرار يدل على وحدة الموضوع الذي تدور حوله آيات السورة والهدف العام الذي تقصده.

ومما أجمع عليه أهل التأويل من السلف والخلف أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وأنه أوثق تعويلاً وأحسن تأويلاً، فإن أصح طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر.

فالله سبحانه وتعالى يقول} :اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ.{

فمعنى قوله متشابهاً: أي يشبهُ بعضه بعضاً، مثاني: ثنيت موضوعاته مرة بعد مرة، وهذا يقودنا إلى القول بوجود الوحدة الموضوعية في القرآن كله.

فسورة الفاتحة جامعة كالديباجة، ففيها مفاتيح لجميع ما في القرآن، ولذلك كان من أسمائها:أم القرآن وأم الكتاب والأساس .

وفي الحديث عن أبي هريرة قال: خرج إلينا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال)) :أقرأ عليكم ثلث القرآن فقرأ قل هو الله أحد الله الصمد حتى ختمها.((

قال النووي في شرح الحديث:قال المازري، قيل: معناه أن القرآن على ثلاثة أنحاء: قصص وأحكام وصفات لله تعالى، وقل هو الله أحد متضمنة للصفات فهي ثلث وجزء من ثلاثة أجزاء.

وقال ابن حجر: هي ثلث باعتبار معاني القرآن، لأنه أحكام وأخبار وتوحيد، وقد اشتملت هي على القسم الثالث فكانت ثلثاً بهذا الاعتبار.

ثم تأمل في بعض سور القرآن كيف تثنى موضوعاتها مرة بعد مرة، فتجد المعنى واحداً ولكن يختلف الأسلوب وطريقة السياق، ولا شك أن هذا مؤداه إلى القول بالوحدة الموضوعية.

اقرأ مثلاً بتدبر وتأمل سورة البقرة وهي أطول سور القرآن الكريم، ثم اقرأ بالطريقة نفسها سورة لقمان كيف تكررت المعاني مع اختلاف الأسلوب وطريقة السياق، فالمعاني نفسها التي وردت في البقرة جاءت بطريقة مختصرة في سورة لقمان، لقد اتحدت السورتان في افتتاحيتيهما }ألم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ.{

}ألم ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ{، ثم جاء في سورة البقرة قوله تعالى} :يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً.{

وجاء في سورة لقمان قوله تعالى} :وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ{، وقوله تعالى} :فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى .{

وفي لقمان} :وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ.{

واقرأ أيضاً سورة التوبة كيف افتتحت بالأمر بالبراءة من المشركين، قال تعالى} :بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {وقال تعالى في سورة الممتحنة} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ.{

فقد جاءت سورة الممتحنة كخلاصة لسورة براءة، ثم إن هاتين السورتين أوجزتا في سورة (الكافرون).

ثم تدبر سورة (العصر) فقد أوجزت فيها مضامين أربع سور :البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، فقد احتوت على أربع صفات:

-الذين آمنوا – وعملوا الصالحات.

-وتواصوا بالحق – وتواصوا بالصبر.

فسورة البقرة وسورة آل عمران تضمنتا الإسلام والإيمان، حيث تضمنت معظم الأحكام الشرعية المفصلة في سورة البقرة، ولذا فقد أوجزت بقوله تعالى} :إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ {وسورة النساء فصلت حقوق الأرحام والأمر بالقسط وإيفاء الحقوق، ولذا أوجزت بقوله تعالى في العصر} وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ.{

وسورة المائدة سورة العقود عقود الحل والحرمة والأمر بالوفاء بالعقود، والتزام الحلال واجتناب الحرام ولذا أوجزت بقوله تعالى} :وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ {فالحرص على الحلال واجتناب الحرام يحتاج إلى الصبر.

ونختتم كلامنا عن المناسبات بكلمة الشيخ محمد عبد الله دراز –رحمه الله– حول تنزيل القرآن مفرقا وتأثير ذلك في علم المناسبات قال: "إن كانت بعد تنزيلها جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع ، كمثل بنيان كان قائماً على قواعده فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته ثم فُرِّق أنقاضاً، فلم تلبث كل لبنة أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشد بعضه بعضاً كهيئته أول مرة.

نكتفي بهذا القدر في محاضرة اليوم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المحاضرة التاسعة

نزول القرآن (١)

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد:

ففي هذه المحاضرة نتكلم عن:

نزول القرآن.

وهو مبحث مهم في علوم القرآن بل هو أهم مباحثه جميعا لأن العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن وأنه كلام الله وأساس للتصديق بنبوة الرسول –صلى الله عليه وسلم.–

–١معنى نزول القرآن :

جاء التعبير بمادة نزول القرآن وما تصرف منها في الكتاب والسنة ومن أمثلته قوله سبحانه في سورة الإسراء} :وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ {وقوله –صلى الله عليه وسلم)) :–إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ((وهو حديث مشهور بل قيل فيه بالتواتر كما سيأتي لكن النزول في استعمال اللغة يطلق ويراد به الحلول في مكان والأوي به ومنه قولهم نزل الأمير المدينة والمتعدي منه وهو الإنزال يكون معناه إحلال الغير في مكان وإيواءه به ومنه قوله جل ذكره : }رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ {ويطلق النزول إطلاقا آخر في اللغة على انحدار الشيء من علو إلى سفل نحو نزل فلان من الجبل والمتعدي منه يكون معناه تحريك الشيء من علو إلى أسفل ومنه قوله سبحانه} :أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً.{

وسوف يتبين عندما نتكلم عن أنواع تنزلات القرآن الرابط بين المعنى اللغوي للإنزال وبين قولنا نزول القرآن.

وليس هناك حاجة في التذرع بالمجاز في ذلك الأمر كما ذهب بعض أهل العلم.

–٢تنزلات القرآن:

شرف الله هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزلات.

١-التنزل الأول إلى اللوح المحفوظ ودليله قول سبحانه} :بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ {وكان هذا الوجود في اللوح بطريقة وفي وقت لا يعلمهما إلا الله تعالى ومن أطلعه على غيبه وكان جملة لا مفرقا.

وحكمة هذا النزول ترجع إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه وإقامته سجلا جامعا لكل ما قضى الله وقدر وكل ما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين فهو شاهد ناطق ومظهر من أروع المظاهر الدالة على عظمة الله وعلمه وإرادته وحكمته وواسع سلطانه وقدرته.

ولا ريب أن الإيمان به يقوي إيمان العبد بربه من هذه النواحي ويبعث الطمأنينة إلى نفسه والثقة بكل ما يظهره الله لخلقه من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أقضيته وشؤونه في عباده كما يحمل الناس على السكون والرضا تحت سلطان القدر والقضاء.

ومن هنا تهون عليهم الحياة بضرائها وسرائها كما قال جل شأنه} :مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {وللإيمان باللوح وبالكتابة فيه أثر صالح في استقامة المؤمن على الجادة وتفانيه في طاعة الله ومراضيه وبعده عن مساخطه ومعاصيه لاعتقاده أنها مسطورة عند الله في لوحه مسجلة لديه في كتابه كما قال جل ذكره} :وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ. {

التنزل الثاني للقرآن:

كان هذا التنزل الثاني إلى بيت العزة في السماء الدنيا والدليل عليه قوله سبحانه في سورة الدخان} :إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ {وفي سورة القدر} :إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ {وفي سورة البقرة} :شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ. {

دلت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة توصف بأنها مباركة أخذا من آية الدخان وتسمى ليلة القدر أخذا من آية سورة القدر وهي من ليالي شهر رمضان أخذا من آية البقرة وإنما قلنا ذلك جمعا بين هذه النصوص في العمل بها ودفعا للتعارض فيما بينها ومعلوم بالأدلة القاطعة كما يأتي أن القرآن أنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- مفرقا لا في ليلة واحدة بل في مدى سنين عددا فتعين أن يكون هذا النزول الذي نوهت به هذه

الآيات الثلاث نزولا آخر غير النزول على النبي –صلى الله عليه وسلم– وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة لمكان هذا النزول وأنه في بيت العزة من السماء الدنيا

قال السيوطي: اختلف في كيفية إنزاله من اللوح المحفوظ على ثلاثة أقوال: أحدها وهو الأصح الأشهر: أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ثم نزل بعد ذلك منجماً في عشرين سنة أو ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين على حسب الخلاف في مدة إقامته –صلى الله عليه وسلم– بمكة بعد البعثة.

أخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما عن ابن عباس قال: أنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى سماء الدنيا وكان بمواقع النجوم وكان الله ينزله على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعضه في أثر بعض.

وأخرج الحاكم والبيهقي والنسائي عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة ثم قرأ } وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً {. } وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا{.

وأخرجه ابن أبي حاتم وفي آخره: فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً.

وأخرج الحاكم وابن أبي شيبة عن ابن عباس قال: فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي –صلى الله عليه وسلم.–

قال السيوطي: أسانيدها كلها صحيحة.

وأخرج الطبراني من وجه آخر عن ابن عباس قال: أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى سماء الدنيا ليلة واحدة ثم أنزل نجوماً.

قال السيوطي: إسناده لا بأس به.

وأخرج الطبراني والبزار من وجه آخر عنه قال: أنزل القرآن جملة واحدة حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا ونزله جبريل على محمد –صلى الله عليه وسلم– بجواب كلام العباد وأعمالهم.

وأخرج ابن أبي شيبة في فضائل القرآن من وجه آخر عنه: دفع إلى جبريل في ليلة القدر جملة واحدة فوضعه في بيت العزة ثم جعل ينزله تنزيلاً.

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات أن عطية بن الأسود سأل ابن عباس فقال: أوقع في قلبي الشك قوله تعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن وقوله } إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ { وهذا أنزل في شوال وفي ذي العقدة وذي الحجة وفي المحرم وصفر وشهر ربيع فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام.

قال أبو شامة: قوله رسلاً: أي رفقاً وعلى مواقع النجوم: أي على مثل مساقطها.

يريد أنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم مفرقا يتلو بعضه بعضا على تؤدة ورفق.

وهذه الأحاديث موقوفة على ابن عباس غير أن لها حكم المرفوع إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– لما هو مقرر من أن قول الصحابي مما لا مجال للرأي فيه إذ الم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات حكمه حكم المرفوع ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تعرف إلا من المعصوم وهذا متعلق بنزول القرآن الكريم فلا مجال لأن يكون من الإسرائيليات مع ما عرف من تحذير ابن عباس من الأخذ عن أهل الكتاب فثبت الاحتجاج بها .

القول الثاني: أنه نزل إلى سماء الدنيا في عشرين ليلة قدر وثلاث وعشرين أو خمس وعشرين في كل ليلة ما يقدر الله إنزاله في كل السنة ثم أنزل بعد ذلك منجماً في جميع السنة.

وهذا القول ذكره الإمام فخر الدين الرازي بحثاً فقال: يحتمل أنه كان ينزل في كل ليلة قدر ما يحتاج الناس إلى إنزاله إلى مثلها من اللوح إلى السماء الدنيا ثم توقف هل هذا أولى أو الأول.

قال ابن كثير: وهذا الذي جعله احتمالاً نقله القرطبي عن مقاتل بن حيان وحكى الإجماع على أنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

قال السيوطي : وممن قال بقول مقاتل الحليمي والماوردي ويوافقه قول ابن شهاب آخر القرآن عهداً بالعرش آية الدين.

قلت: أثر ابن شهاب ليس موافقا لذلك ومراده أنها آخر ما نزل.

القول الثالث: أنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات وبه قال الشعبي.

قال ابن حجر في شرح البخاري: والأول هو الصحيح المعتمد.

قال: وقد حكى الماوردي قولاً رابعاً أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة وأن الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة وأن جبريل نجمه على النبي –صلى الله عليه وسلم– في عشرين سنة وهذا أيضاً غريب.

والمعتمد أن جبريل كان يعارضه في رمضان بما ينزل به في طول السنة.

وقال أبو شامة: كأن صاحب هذا القول أراد الجمع بين القولين الأول والثاني.

قال السيوطي : هذا الذي حكاه الماوردي أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: نزل القرآن جملة واحدة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا فنجمته السفرة على جبريل عشرين ليلة ونجمه جبريل على النبي –صلى الله عليه وسلم– عشرين سنة.

قال الزرقاني: ولكن هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة بمعزل عن التحقيق وهي محجوجة بالأدلة التي سقناها بين يديك تأييدا للقول الأول.

تنبيهات:

الأول :قيل السر في إنزاله جملة إلى السماء تفخيم أمره وأمر من نزل عليه وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قربناه إليهم لننزله عليهم ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله ولكن الله باين بينه وبينها فجعل له الأمرين إنزاله جملة ثم إنزاله تشريفاً للمنزل عليه.

ذكر ذلك أبو شامة في المرشد الوجيز.

وقال الحكيم الترمذي: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا تسليماً منه للأمة ما كان أبرز لهم من الحظ بمبعث محمد –صلى الله عليه وسلم– وذلك أن بعثة محمد –صلى الله عليه وسلم– كانت رحمة فلما خرجت الرحمة بفتح الباب جاءت بمحمد –صلى الله عليه وسلم– وبالقرآن فوضع القرآن ببيت العزة في السماء الدنيا ليدخل في حد الدنيا ووضعت النبوة في قبل محمد وجاء جبريل بالرسالة ثم الوحي كأنه أراد تعالى أن يسلم هذه الرحمة التي كانت حظ هذه الأمة من الله إلى الأمة.

وقال السخاوي في جمال القراء: في نزوله إلى السماء جملة تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة وتعريفهم عناية الله بهم ورحمته لهم ولهذا المعنى أمر سبعين ألفاً من الملائكة أن تشيع سورة الأنعام وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السفرة الكرام وإنساخهم إياه وتلاوتهم له.

قال: وفيه أيضاً التسوية بين نبينا –صلى الله عليه وسلم –وبين موسى عليه السلام في إنزاله كتابه جملة والتفضيل لمحمد في إنزاله عليه منجماً ليحفظه.

وذكر بعضهم أن النزول إلى السماء الدنيا إلهاب لشوق النبي– صلى الله عليه وسلم– إليه على حد قول القائل:

وأعظم ما يكون الشوق يوما	إذا دنت الخيام من الخيام

قال الزرقاني: وفي تعدد النزول وأماكنه مرة في اللوح وأخرى في بيت العزة وثالثة على قلب النبي –صلى الله عليه وسلم –في ذلك التعدد مبالغة في نفي الشك عن القرآن وزيادة للإيمان وباعث على الثقة فيه لأن الكلام إذا سجل في سجلات متعددة وصحت له وجودات كثيرة كان ذلك أنفى للريب عنه وأدعى إلى تسليم ثبوته وأدنى إلى وفرة الإيقان به مما لو سجل في سجل واحد أو كان له وجود واحد.

وقال أبو شامة: فإن قلت: فقوله تعالى} :إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} من جملة القرآن الذي نزل جملة أم لا فإن لم يكن منه فما نزل جملة وإن كان منه فما وجه صحة هذه العبارة قلت: وجهان.

أحدهما: أن يكون معنى الكلام أنا حكمنا بإنزاله في ليلة القدر وقضيناه وقدرناه في الأزل.

والثاني أن لفظه لفظ الماضي ومعناه الاستقبال: أي ننزله جملة في ليلة القدر انتهى.

الثاني: قال أبو شامة أيضاً: الظاهر أن نزوله جملة إلى سماء الدنيا قبل ظهور نبوته –صلى الله عليه وسلم–.

قال: ويحتمل أن يكون بعدها.

قال السيوطي : الظاهر هو الثاني وسياق الآثار السابقة عن ابن عباس صريح فيه.

وقال ابن حجر في شرح البخاري: قد خرج أحمد والبيهقي في الشعب عن واثلة بن الأسقع أن النبي –صلى الله عليه وسلم –قال)) :أنزلت التوراة لست مضين من رمضان والإنجيل

لثلاث عشر خلت منه والزبور لثمان عشرة خلت منه والقرآن لأربع وعشرين خلت منه ((
وفي رواية)) :وصحف إبراهيم لأول ليلة.((

قلت: وهو حديث صحيح تكلمنا عنه في غير هذه المحاضرة وفصلت القول فيه في صحيح السيرة النبوية.

قال السيوطي: وهذا الحديث مطابق لقوله تعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ولقوله : }إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} فيحتمل أن يكون ليلة القدر في تلك السنة كانت تلك الليلة فأنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا ثم أنزل في اليوم الرابع والعشرين إلى الأرض أول} اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ {قلت: لكن يشكل على هذا ما اشتهر من أنه –صلى الله عليه وسلم– بعث في شهر ربيع.

ويجاب عن هذا بما ذكروه أنه نبي أولاً بالرؤيا في شهر مولده ثم كانت مدتها ستة أشهر ثم أوحى إليه في اليقظة.

ذكره البيهقي وغيره: نعم يشكل على الحديث السابق ما أخرجه ابن أبي شيبة في فضائل القرآن عن أبي قلابة قال: أنزلت الكتب كاملة ليلة أربع وعشرين من رمضان.

قلت: هو حديث مرسل لا يثبت ومعارض للصحيح الثابت فلا التفات له.

ونكتفي بهذا القدر في هذه المحاضرة وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المحاضرة العاشرة

نزول القرآن (٢)

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فما زال حديثنا في نزول القرآن وفي هذه المحاضرة نتكلم عن :

التنزيل الثالث للقرآن.

فنقول:

قال الزرقاني: التنزل الثالث للقرآن هو واسطة عقد التنزلات لأنه المرحلة الأخيرة التي منها شع النور على العالم ووصلت هداية الله إلى الخلق وكان هذا النزول بوساطة أمين الوحي جبريل يهبط به على قلب النبي –صلى الله عليه وسلم– ودليله قول الله تعالى في سورة الشعراء مخاطبا لرسوله –عليه الصلاة والسلام} :–نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ.{

وقد قدمنا في محاضرة الوحي تفصيل نزول جبريل على النبي– صلى الله عليه وسلم– وبماذا نزل وتوقيت هذا النزول وما سبقه من الرؤيا وما إلى ذلك مما يغني عن إعادته هنا ولكننا نعرج على بعض المباحث التي لم تأخذ حقها هناك مما يتعلق بالتنزيل ومن ذلك:

كيفية أخذ جبريل للقرآن وعمن أخذ:

قال الزرقاني: هذا من أنباء الغيب فلا يطمئن الإنسان إلى رأي فيه إلا إن ورد بدليل صحيح عن المعصوم.

وفي ذلك أقوال:

أولها :قال الطيبي: لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقفه تلقفا روحانيا أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به على النبي –صلى الله عليه وسلم –فيلقيه إليه. اهـ.

وأنت خبير بأن كلمة لعل هنا لا تشفي غليلا ولا تهدينا إلى المقصود سبيلا ولا نستطيع أن نأخذ منها دليلا.

ثانيها :حكى الماوردي أن الحفظة نجمت القرآن على جبريل في عشرين ليلة وأن جبريل نجمه على النبي –صلى الله عليه وسلم– في عشرين سنة. اهـ .

ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الحفظة نجوما عشرين ولكنا لا نعرف لصاحب هذا الرأي دليلا ولا شبه دليل .

ثالثها :أن جبريل أخذ القرآن عن الله سماعا وهذا هو القول الصحيح كما سيأتي بيانه.

قال الأصفهاني أوائل تفسيره: اتفق أهل السنة والجماعة على أن كلام الله منزل واختلفوا في معنى الإنزال.

فمنهم من قال: إظهار القراءة.

ومنهم من قال: إن الله تعالى ألهم كلامه جبريل وهو في السماء وهو عال من المكان وعلمه قراءته ثم جبريل أداه في الأرض وهو يهبط في المكان.

وفي التنزيل طريقان:

أحدهما: أن النبي –صلى الله عليه وسلم– انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل.

والثاني: أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه والأول أصعب الحالين انتهى.

قلت: سبق في محاضرة الوحي التفصيل لطرق الوحي فلينظر هناك.

وقال القطب الرازي في حواشي الكشاف: والإنزال لغة بمعنى الإيواء وبمعنى تحريك الشيء من العلو إلى أسفل وكلاهما يتحققان في الكلام فهو مستعمل فيه في معنى مجازي فمن قال: القرآن معنى قائم بذات الله تعالى فإنزاله أن يوجد الكلمات والحروف الدالة على ذلك المعنى ويثبتها في اللوح المحفوظ.

ومن قال: القرآن هو الألفاظ فإنزاله مجرد إثباته في اللوح المحفوظ وهذا المعنى مناسب لكونه منقولاً عن المعنيين اللغويين.

ويمكن أن يكون المراد بإنزاله إثباته في السماء الدنيا بعد الإثبات في اللوح المحفوظ وهذا مناسب للمعنى الثاني.

والمراد بإنزال الكتب على الرسل أن يتلقفها الملك من الله تلقفاً روحانياً أو يحفظها من اللوح المحفوظ وينزل بها فيلقيها عليهم اهـ.

وقال غيره: في المنزل على النبي- صلى الله عليه وسلم- ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه اللفظ والمعنى وأن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به.

وذكر بعضهم أن أحرف القرآن في اللوح المحفوظ كل حرف منها بقدر جبل قاف وأن تحت كل حرف منها معاني لا يحيط بها إلا الله.

والثاني: أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة وأنه -صلى الله عليه وسلم- علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى نزل به الروح الأمين على قلبك.

والثالث: أن جبريل ألقى عليه المعنى وأنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب وأن أهل السماء يقرءونه بالعربية ثم إنه نزل به كذلك بعد ذلك.

والخلاف في ذلك مترتب على المذاهب الكلامية في كلام الله عز وجل فنتج عن ذلك أقوال ثلاثة :

الأول :أن جبريل تلقفه سماعا من الله تعالى بلفظه المخصوص.

الثاني :أن جبريل حفظه من اللوح المحفوظ أو قرأه نقلا عن بيت العزة في السماء الدنيا.

الثالث :أن جبريل ألقي إليه المعنى والألفاظ لجبريل أو للنبي -صلى الله عليه وسلم.-

والثالث من أبطل الباطل لأنه معارض لظاهر آيات القرآن بل يوافق في وجه منه كلام المشركين.

والثاني إنما هو هروب من إثبات صفة الكلام لله تعالى. ولا شك في وجود القرآن في اللوح المحفوظ كسائر ما هو فيه ولا في نزول القرآن إلى بيت العزة في السماء الدنيا كما تقدم عند كلامنا عن نزول القرآن ولكن ذلك لا يعني نفي سماع جبريل له من الله .

قال البيهقي في معنى قوله تعالى} :إنا أنزلناه في إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ {يريد والله أعلم إنا أسمعنا الملك وأفهمناه إياه وأنزلناه بما سمع فيكون الملك منتقلا به من علو إلى أسفل

قال أبو شامة: هذا المعنى مطرد في جميع ألفاظ الإنزال المضافة إلى القرآن أو إلى شيء منه يحتاج إليه أهل السنة المعتقدون قدم القرآن وأنه صفة قائمة بذات الله تعالى.

ولقد نسب الله القرآن إلى نفسه في عدة آيات منها} :وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ {وقوله تعالى} :وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِيَن اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ الله.{

قال السيوطي: ويؤيد أن جبريل تلقفه سماعا من الله تعالى ما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سمعان مرفوعا إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا وخروا سجدا فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد فينتهي به على الملائكة فكلما مر بسماء سأله أهلها ماذا قال ربنا قال الحق فينتهي به حيث أمر.

وأخرج ابن مردويه من حديث ابن مسعود رفعه إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان فيفزعون ويرون أنه من أمر الساعة وأصل هذا الحديث في الصحيح

وقال بعضهم: إن جبريل حفظ القرآن عن الله وغشي على أهل السموات من هيبة كلام الله فمر بهم جبريل وقد أفاقوا فقالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق يعني القرآن وهو معنى قوله} :حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ {فأتى به جبريل إلى بيت العزة فأملاه على السفرة الكتبة يعني الملائكة وهو معنى قوله تعالى}:بِأَيْدِي سَفَرَةٍ *كِرَامٍ بَرَرَةٍ.{

وقال الجويني: كلام الله المنزل قسمان قسم قال الله لجبريل قل للنبي الذي أنت مرسل إليه إن الله يقول افعل كذا وكذا وأمر بكذا وكذا ففهم جبريل ما قاله ربه ثم نزل على ذلك النبي وقال له ما قاله ربه ولم تكن العبارة تلك العبارة كما يقول الملك لمن يثق به قل لفلان يقول لك الملك اجتهد في الخدمة واجمع جندك للقتال فإن قال الرسول يقول الملك لا تتهاون في خدمتي ولا تترك الجند تتفرق وحثهم على المقاتلة لا ينسب إلى كذب ولا تقصير في أداء الرسالة.

وقسم آخر قال الله لجبريل اقرأ على النبي هذا الكتاب فنزل جبريل بكلمة من الله من غير تغيير كما يكتب الملك كتابا ويسلمه إلى أمين ويقول اقرأه على فلان فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفا انتهى.

قال السيوطي: القرآن هو القسم الثاني والقسم الأول هو السنة كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى لأن جبريل أداه بالمعنى ولم تجز القراءة بالمعنى لأن جبريل أداه باللفظ ولم يبح له إيحاءه بالمعنى والسر في ذلك أن المقصود منه التعبد بلفظه والإعجاز به فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه وإن تحت كل حرف منه

معاني لا يحاط بها كثرة فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه والتخفيف على الأمة حيث جعل المنزل إليهم على قسمين قسم يروونه بلفظه الموحى به وقسم يروونه بالمعنى ولو جعل كله مما يروى باللفظ لشق أو بالمعنى لم يؤمن التبديل والتحريف فتأمل .

وقد رأيت عن السلف ما يعضد كلام الجويني.

أخرج ابن أبي حاتم عن الزهري أنه سئل عن الوحي فقال: الوحي ما يوحى إلى نبي من الأنبياء فيثبته فيقلبه فيتكلم به ويكتبه وهو كلام الله، ومنه ما لا يتكلم به ولا يكتبه لأحد ولا يأمر بكتابته ولكنه يحدث به الناس حديثاً ويبين لهم أن الله أمره أن يبينه للناس ويبلغهم إياه.

قلت: سبق أن ذكرنا كلام الجويني وكلام السيوطي في محاضرة الوحي ولم نتعقبه هناك وهو حري بالتعقب لأن ظاهر كلام الجويني نفي تكلم الله بالقرآن وأن الله تعالى قد دفع إلى جبريل كتابه ليبلغ ما فيه للنبي –صلى الله عليه وسلم –فأخذه باصطلاح أهل الحديث مناولة وليس سماعا وتأييد السيوطي له بقوله: والقسم الثاني هو القرآن، بناء على هذا الفهم متناقض مع ما قرره من سماع جبريل القرآن من الله تعالى. ومذهب أهل السنة والجماعة الذي دلت عليه النصوص هو ما قررناه والله أعلم.

قال الزرقاني:

ولتعلم في هذا المقام أن الذي نزل به جبريل على النبي –صلى الله عليه وسلم– هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس وتلك الألفاظ هي كلام الله وحده لا دخل لجبريل ولا لمحمد –صلى الله عليه وسلم– في إنشائها وترتيبها بل الذي رتبها أولا هو الله سبحانه وتعالى ولذلك تنسب له دون سواه وإن نطق بها جبريل ومحمد –صلى الله عليه وسلم– وملايين الخلق من بعد جبريل ومحمد –صلى الله عليه وسلم– من لدن نزول القرآن إلى يوم الساعة وذلك كما ينسب الكلام البشري إلى من أنشأه ورتبه في نفسه أولا دون غيره ولو نطق به آلاف الخلائق في آلاف الأيام والسنين إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وقد أسف بعض الناس فزعم أن جبريل كان ينزل على النبي –صلى الله عليه وسلم– بمعاني القرآن والرسول يعبر عنها بلغة العرب وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل وأن الله كان يوحي إليه المعنى فقط وكلاهما قول باطل أثيم مصادم لصريح الكتاب والسنة والإجماع.

والحق أنه ليس لجبريل في هذا القرآن سوى حكايته للرسول- صلى الله عليه وسلم- وإيحائه إليه وليس للرسول -صلى الله عليه وسلم- في هذا القرآن سوى وعيه وحفظه ثم حكايته وتبليغه ثم بيانه وتفسيره ثم تطبيقه وتنفيذه.

نقرأ في القرآن نفسه أنه ليس من إنشاء جبريل ولا محمد -صلى الله عليه وسلم- نحو } : وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ { ونحو } :وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي { ونحو} :وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ { ونحو } :وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ.{

فرع:

الذي استقرئ من الأحاديث الصحيحة وغيرها أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة وصح نزول عشر آيات من أول المؤمنين جملة وصح نزول } غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} وحدها وهي بعض آية.

وكذا قوله } وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً{ إلى آخر الآية نزلت بعد نزول أول الآية كما حررناه في أسباب النزول وذلك بعض آية.

وأخرج ابن أشتة في كتاب المصاحف عن عكرمة في قوله {بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ { قال: أنزل الله القرآن نجوماً ثلاث آيات وأربع آيات وخمس آيات.

وقال النكزاوي في كتاب الوقف: كان القرآن ينزل مفرقاً الآية والآيتين والثلاث والأربع وأكثر من ذلك.

وما أخرجه ابن عساكر من طريق أبي نضرة قال: كان أبوسعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة وخمس آيات بالعشي ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات.

وما أخرجه البيهقي في الشعب من طريق أبي خلدة عن عمر قال: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي -صلى الله عليه وسلم- خمساً خمساً.

ومن طريق ضعيف عن علي قال: أنزل القرآن خمساً خمساً إلا سورة الأنعام ومن حفظ خمساً خمساً لم ينسه.

فالجواب أن معناه إن صح إلقاؤه إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– هذا القدر حتى يحفظه ثم يلقي إليه الباقي لا إنزاله بهذا القدر خاصة.

ويوضح ذلك ما أخرجه البيهقي أيضاً عن خالد بن دينار قال: قال لنا أبو العالية: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً.

دليل تنجيم هذا النزول.

والدليل على تفرق هذا النزول وتنجيمه قول الله تعالت حكمته في سورة الإسراء} وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً {وقوله في سورة الفرقان} :وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً {روي أن الكفار من يهود ومشركين عابوا على النبي –صلى الله عليه وسلم– نزول القرآن مفرقا واقترحوا عليه أن ينزل جملة فأنزل الله هاتين الآيتين ردا عليهم وهذا الرد يدل على أمرين:

أحدهما: أن القرآن نزل مفرقا على النبي –صلى الله عليه وسلم.–

والثاني أن الكتب السماوية من قبله نزلت جملة كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعا.

قال السيوطي: وقد رأيت بعض فضلاء العصر أنكر ذلك وقال: إنه لا دليل عليه بل الصواب أنها نزلت مفرقة كالقرآن.

قال : قلت: والصواب الأول .

ومن الأدلة على ذلك آية الفرقان السابقة.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قالت اليهود: يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى فنزلت.

وأخرجه من وجه آخر عنه بلفظ: قال المشركون.

وأخرج نحوه عن قتادة والسدي.

فإن قلت: ليس في القرآن التصريح بذلك وإنما هو على تقدير ثبوته قول الكفار.

قلت: سكوته تعالى عن الرد عليهم في ذلك وعدوله إلى بيان حكمته دليل على صحته ولو كانت الكتب كلها نزلت مفرقة لكان يكفي في الرد عليهم أن يقول: إن ذلك سنة الله في الكتب التي أنزلها على الرسل السابقة كما أجاب بمثل ذلك قولهم {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ { فقال: } وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ { وقولهم } أبعث الله بشراً رسولاً { فقال } وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ { وقولهم كيف يكون رسولاً ولا هم له إلا النساء فقال } وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً { إلى غير ذلك.

ومن الأدلة على ذلك أيضاً قوله تعالى في إنزاله التوراة على موسى يوم الصعقة} وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ} {وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ} {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ { {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ { فهذه الآيات كلها دالة على إتيانه التوراة جملة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أعطى موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد فيها تبيان لكل شيء وموعظة فلما جاء بها فرأى بني إسرائيل عكوفاً على عبادة العجل رمى بالتوراة من يده فتحطمت فرفع الله منها ستة أسباع وأبقى منها سبعاً.

وأخرج من طريق جعفر بن محمد عن أبيه عن جده رفعه قال: الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثني عشر ذراعاً .

وأخرج النسائي وغيره عن ابن عباس في حديث الفتون قال: أخذ موسى الألواح بعد ما سكت عنه الغضب فأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأقروا بها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ثابت بن الحجاج قال: جاءتهم التوراة جملة واحدة فكبر عليهم فأبوا أن يأخذوه حتى ظلل الله عليهم الجبل فأخذوه عند ذلك.

فهذه آثار صحيحة صريحة في إنزال التوراة جملة.

المحاضرة الحادية عشرة

الحكم والأسرار في تنجيم القرآن

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد:

فما زال حديثنا في نزول القرآن وفي هذه المحاضرة نتكلم عن الحكم والأسرار في تنجيم القرآن.

قال أبو شامة : فإن قيل: ما السر في نزوله منجماً وهلا أنزل كسائر الكتب جملة؟

قلنا: هذا سؤال قد تولى الله جوابه فقال تعالى وقال الذين كفروا لولا أنزل الله عليه القرآن جملة واحدة يعنون كما أنزل على من قبله من الرسل فأجابهم تعالى بقوله} :كَذَلِكَ { أي : أنزلناه كذلك مفرقاً } لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ { أي: لنقوي به قلبك فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب وأشد عناية بالمرسل إليه ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل.

وقيل: معنى لنثبت به فؤادك: أي لتحفظه فإنه عليه الصلاة والسلام كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ففرق عليه ليثبت عنده حفظه بخلاف غيره من الأنبياء فإنه كان كاتباً قارئاً فيمكنه حفظ الجميع.

فإن قلت: كان في القدرة إذا نزل جملة أن يحفظه النبي —صلى الله عليه وسلم– دفعة.

قلت: ليس كل ممكن لازم الوقوع. وهناك حكم أخرى سوف تفتقد لو حصل ذلك منها ما تقدم وما سيأتي.

وقال ابن فورك: قيل أنزلت التوراة جملة لأنها نزلت على نبي يكتب ويقرأ وهو موسى وأنزل الله القرآن مفرقاً لأنه أنزل غير مكتوب على نبي أميّ.

وقال غيره: إنما لم ينزل جملة واحدة لأن منه الناسخ والمنسوخ ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقاً.

ومنه ما هو جواب لسؤال ومنه ما هو إنكار على قول قيل أو فعل فعل وقد جاء ذلك في قول ابن عباس: ونزله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم وفسر به قوله:} وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ { أخرجه عنه ابن أبي حاتم.

فالحاصل أن الآية تضمنت حكمتين لإنزاله مفرقاً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ثابت بن الحجاج قال: جاءتهم التوراة جملة واحدة فكبر عليهم فأبوا أن يأخذوه حتى ظلل الله عليهم الجبل فأخذوه عند ذلك.

ويؤخذ من هذا الأثر حكمة أخرى لإنزال القرآن مفرقاً فإنه أدعى إلى قبوله إذا نزل على التدريج بخلاف ما لو نزل جملة واحدة فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهي.

ويوضح ذلك ما أخرجه البخاري عن عائشة قالت: إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنى أبداً.

قال السيوطي: رأيت هذه الحكمة مصرحاً بها في الناسخ والمنسوخ لمكي.

وقد فصل الزرقاني هذه الحكم تفصيلا رائعا فقال –رحمه الله– لتنجيم نزول القرآن الكريم أسرار عدة وحكم كثيرة نستطيع أن نجملها في أربع حكم رئيسية:

الحكمة الأولى: تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه، وذلك من وجوه خمسة:

الوجه الأول :أن في تجدد الوحي وتكرار نزول الملك به من جانب الحق إلى رسوله –صلى الله عليه وسلم– سرورا يملأ قلب الرسول –صلى الله عليه وسلم– وغبطة تشرح صدره وكلاهما يتجدد عليه بسبب ما يشعر به من هذه العناية الإلهية وتعهد مولاه إياه في كل نوبة من نوبات هذا النزول.

الوجه الثاني :أن في التنجيم تيسيرا عليه من الله في حفظه وفهمه ومعرفة أحكامه وحكمه وذلك مطمئن له على وعي ما يوحى إليه حفظا وفهما وحكاما كما أن فيه تقوية لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كله .

الوجه الثالث :أن في كل نوبة من نوبات هذا النزول المنجم معجزة جديدة غالبا حيث تحداهم كل مرة أن يأتوا بمثل نوبة من نوب التنزيل فظهر عجزهم عن المعارضة وضاقت عليهم

الأرض بما رحبت ولا شك أن المعجزة تشد أزره وترهف عزمه باعتبارها مؤيدة له ولحزبه خاذلة لأعدائه ولخصمه .

الوجه الرابع :أن في تأييد حقه ودحض باطل عدوه المرة بعد الأخرى تكرارا للذة فوزه وفلجه بالحق والصواب وشهوده لضحايا الباطل في كل مهبط للوحي والكتاب وإن كل ذلك إلا مشجع للنفس مقو للقلب والفؤاد، والفرق بين هذا الوجه والذي قبله هو الفرق بين الشيء وأثره أو الملزوم ولازمه فالمعجزة من حيث إنها قوة للرسول ومؤيدة له مطمئنة له ومثبتة لفؤاده بقطع النظر عن أثر انتصاره وهزيمة خصمه بها ثم إن هذا الأثر العظيم وحده مطمئن لقلبه الكريم ومثبت لفؤاده أيضا أشبه شيء بالسلاح وجوده في يد الإنسان مطمئن له ولو لم يستعمله في خصمه ثم انتصار الإنسان وهزيمة خصمه به إذا أعمل فيه مطمئن للفؤاد مريح للقلب مرة أخرى.

الوجه الخامس :تعهد الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يهون عليه هذه الشدائد ولا ريب أن تلك الشدائد كانت تحدث في أوقات متعددة فلا جرم كانت التسلية تحدث هي الأخرى في مرات متكافئة فكلما أحرجه خصمه سلاه ربه وتجيء تلك التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين التي لها في القرآن عرض طويل وفيها يقول الله تعالى : }وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ{، وتارة تجيء التسلية عن طريق وعد الله لرسوله بالنصر والتأييد والحفظ كما في قوله سبحانه في سورة الطور} :وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا{، وقوله في سورة المائدة} :وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ{، ونحو ما في سورتي الضحى وألم نشرح من الوعود الكريمة والعطايا العظيمة وطورا تأتيه التسلية عن طريق إبعاد أعدائه وإنذارهم نحو قوله تعالى في سورة القمر} :سيهزم الجمع ويولون الدبر{، وقوله سبحانه في سورة فصلت} :فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ {وطورا آخر ترد التسلية في صورة الأمر الصريح بالصبر نحو قوله جل شأنه في سورة الأحقاف : }فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ {أو في صورة النهي عن التفجع عليهم والحزن منهم نحو قول الله في سورة فاطر} :فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ { ونحو قوله سبحانه في خواتم سورة النحل} :وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ {ومن موارد تسلية الله لرسوله أن يخوفه عواقب حزنه من كفر أعدائه

نحو} :لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ {في فاتحة سورة الشعراء ومنها أن يؤيسه منهم ليستريح ويتسلى عنهم نحو} :وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ{، ويمكن أن تندرج هذه الحكمة بوجوهها الخمسة تحت قول الله في بيان الحكمة من تنجيم القرآن : }كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا.{

الحكمة الثانية: التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة علما وعملا وينضوي تحت هذا الإجمال، أمور خمسة أيضا:

أولها :تيسير حفظ القرآن على الأمة العربية وهي كما علمت كانت أمة أمية وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم وكانت مشتغلة بمصالحها المعاشية وبالدفاع عن دينها الجديد بالحديد والدم فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه فاقتضت الحكمة العليا أن ينزله الله إليهم مفرقا ليسهل عليهم حفظه ويتهيأ لهم استظهاره.

ثانيها :تسهيل فهمه عليهم كذلك مثل ما سبق في توجيه التيسير في حفظه.

ثالثها :التمهيد لكمال تخليهم عن عقائدهم الباطلة وعباداتهم الفاسدة وعاداتهم المرذولة وذلك بأن يراضوا على هذا التخلي شيئا فشيئا بسبب نزول القرآن عليهم كذلك شيئا فشيئا فكلما نجح الإسلام معهم في هدم باطل انتقل بهم إلى هدم آخر وهكذا يبدأ بالأهم ثم بالمهم حتى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلها فطهرهم منها وهم لا يشعرون بعنت ولا حرج وفطمهم عنها دون أن يرتكسوا في سابق فتنة أو عادة وكانت هذه سياسة رشيدة لا بد منها في تربية هذه الأمة المجيدة لا سيما أنها كانت أبية معاندة تتحمس لموروثاتها وتستميت في الدفاع عما تعتقده من شرفها وتتهور في سفك الدماء وشن الغارات لأتفه الأسباب .

رابعها :التمهيد لكمال تحليهم بالعقائد الحقة والعبادات الصحيحة والأخلاق الفاضلة بمثل تلك السياسة الرشيدة السابقة ولهذا بدأ الإسلام بفطامهم عن الشرك والإباحة وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء من جراء ما فتح عيونهم عليه من أدلة التوحيد وبراهين البعث بعد الموت وحجج الحساب والمسؤولية والجزاء ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات فبدأهم بفرضية الصلاة قبل الهجرة وثنى بالزكاة وبالصوم في السنة الثانية من الهجرة وختم بالحج في

السنة السادسة منها وكذلك كان الشأن في العادات زجرهم عن الكبائر وشدد النكير عليهم فيها ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق وتدرج في تحريم ما كان مستأصلا فيهم كالخمر تدرجا حكيما حقق الغاية وأنقذهم من كابوسها في النهاية وكان الإسلام في انتهاج هذه الخطة المثلى أبعد نظرا وأهدى سبيلا وأنجح تشريعا وأنجع سياسة من تلكم الأمم المتمدينة المتحضرة التي أفلست في تحريم الخمر على شعوبها أفظع إفلاس وفشلت أمر فشل وما عهد أمريكا في مهزلة تحريمها الخمر ببعيد أليس ذلك إعجازا للإسلام في سياسة الشعوب وتهذيب الجماعات وتربية الأمم؟؟ بلى والتاريخ على ذلك من الشاهدين.

خامسها :تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين بسبب ما كان يقصه القرآن عليهم الفينة بعد الفينة والحين بعد الحين من قصص الأنبياء والمرسلين وما كان لهم ولأتباعهم مع الأعداء والمخالفين وما وعد الله به عباده الصالحين من النصر والأجر والتأييد والتمكين والآيات في ذلك كثيرة حسبك منها قول العلي الكبير في سورة النور} :وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{، وقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده} فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.{

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثانية بما انضوى تحتها في قول الله تعالى في سورة الإسراء }وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً.{

كما يمكن أن يفسر بها قوله تعالى في سورة الفرقان في بيان أسرار التنجيم} :وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً { باعتبار أن التنوين للتعظيم إشارة إلى المعاني المنطوية تحت هذا الترتيل.

الحكمة الثالثة :مسايرة الحوادث والطوارئ في تجددها وتفرقها فكلما جد منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه وفصل الله لهم من أحكامه ما يوافقه وتنتظم هذه الحكمة أمورا أربعة :

أولها :إجابة السائلين على أسئلتهم عندما يوجهونها إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- سواء أكانت تلك الأسئلة لغرض التثبت من رسالته كما قال الله تعالى في جواب سؤال أعدائه إياه} :وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً{، وقوله} :وَيَسْأَلونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً {لخ الآيات في هذا الموضوع

من سورة الكهف، أم كانت لغرض التنور ومعرفة حكم الله كقوله تعالى في سورة البقرة : }وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ{،} وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ{، ولا ريب أن تلك الأسئلة كانت ترفع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- في أوقات مختلفة وعلى نوبات متعددة حاكية أنهم سألوا ولا يزالون يسألون فلا بدع أن ينزل الجواب عليها كذلك في أوقاتها المختلفة ونوباتها المتعددة.

ثانيها :مجاراة الأقضية والوقائع في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها ومعلوم أن تلك الأقضية والوقائع لم تقع جملة بل وقعت تفصيلا وتدريجا فلا مناص إذن من فصل الله فيها بنزول القرآن على طبقها تفصيلا وتدريجا والأمثلة على هذا كثيرة منها قوله سبحانه في سورة النور} :إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْأِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ {إلى قوله سبحانه} :أُولَئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ {وهن عشر آيات نزلن في حادث من أروع الحوادث هو اتهام السيدة الجليلة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بالإفك وفيها دروس اجتماعية لا تزال تقرأ على الناس كما لا تزال تسجل براءة الحصان الطاهرة من فوق سبع سموات ومن الأمثلة قوله تعالى في مفتتح سورة المجادلة} :قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ {إلى قوله تعالى} :وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ {وهن ثلاث آيات نزلن عندما رفعت خولة بنت ثعلبة شكواها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أن زوجها أوس بن الصامت ظاهر منها وجادلت الرسول بأن معها صبية صغارا إن ضمتهم إلى زوجها ضاعوا وإن ضمتهم إليها جاعوا.

ثالثها :لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التي يخطئون فيها وإرشادهم إلى شاكلة الصواب في الوقت نفسه ولا ريب أن تلك الأغلاط كانت في أزمان متفرقة فمن الحكمة أن يكون القرآن النازل في إصلاحها متكافئا معها في زمانها اقرأ إن شئت قوله سبحانه في سورة آل عمران} :وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ{، إلى آيات كثيرة بعدها وكلها نزلت في غزوة أحد إرشادا للمسلمين إلى مواضع أخطائهم في هذا الموقف الرهيب والمأزق العصيب وكذلك اقرأ قوله سبحانه في سورة التوبة} :وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ{، وهي آيات تردع المؤمنين عن رذيلة الإعجاب والاغترار في يوم من أيام الله وتلفت نظرهم إلى مقدار تدارك الله لهم في شدتهم وإلى وجوب أن يثوبوا إلى رشدهم ويتوبوا إلى ربهم.

رابعها :كشف حال أعداء الله المنافقين وهتك أستارهم وسرائرهم للنبي –صلى الله عليه وسلم –والمسلمين كيما يأخذوا منهم حذرهم فيأمنوا شرهم وحتى يتوب من شاء منهم اقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة البقرة} :وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ{، إلى قوله} :إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {وهن ثلاث عشرة آية فضحت المنافقين كما فضحتهم سورة التوبة في كثير من الآيات وكما كشف القرآن أستارهم في كثير من المناسبات ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثالثة بمضامينها الأربعة في قول الله تعالى في تلك الآية من سورة الفرقان} :وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً. {

الحكمة الرابعة :الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه كلام الله وحده وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد –صلى الله عليه وسلم– ولا كلام مخلوق سواه وبيان ذلك أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد دقيق السبك متين الأسلوب قوي الاتصال آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار نظمت حروفه وكلماته ونسقت جمله وآياته وجاء آخره مساوقا لأوله وبدا أوله مواتيا لآخره .

وهنا نتساءل كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز وكيف استقام له هذا التناسق المدهش على حين أنه لم يتنزل جملة واحدة بل تنزل آحادا مفرقة تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عاما؟

الجواب :أننا نلمح هنا سرا جديدا من أسرار الإعجاز ونشهد سمة فذة من سمات الربوبية ونقرأ دليلا ساطعا على مصدر القرآن وأنه كلام الواحد الديان} وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً{، وإلا فحدثني بربك كيف تستطيع أنت أم كيف يستطيع الخلق جميعا أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط متين النسج والسرد متآلف البدايات والنهايات مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر وهي وقائع الزمن وأحداثه التي

يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعا لها ومتحدثا عنها سببا بعد سبب وداعية إثر داعية مع اختلاف ما بين هذه الدواعي وتغاير ما بين تلك الأسباب ومع تراخي زمان هذا التأليف وتطاول آماد هذه النجوم إلى أكثر من عشرين عاما؟ لا ريب أن هذا الانفصال الزماني وذاك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي يستلزمان في مجرى العادة التفكك والانحلال ولا يدعان مجالا للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام.

أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضا نزل مفرقا منجما ولكنه تم مترابطا محكما وتفرقت نجومه تفرق الأسباب ولكن اجتمع نظمه اجتماع شمل الأحباب ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاما ولكن تكامل انسجامه بداية وختاما أليس ذلك برهانا ساطعا على أنه كلام خالق القوى والقدر ومالك الأسباب والمسببات ومدبر الخلق والكائنات وقيوم الأرض والسموات العليم بما كان وما سيكون الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون .

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا نزلت عليه آية أو آيات قال ضعوها في مكان كذا من سورة كذا وهو بشر لا يدري طبعا ما ستجيء به الأيام ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث فضلا عما سينزل من الله فيها وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول -صلى الله عليه وسلم- على هذا العهد يأتيه الوحي بالقرآن نجما بعد نجم وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم وينتظم ويتآخى ويأتلف ويلتئم ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت بل يعجز الخلق طرا بما فيه من انسجام ووحدة وترابط } .كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ.{

وإنه ليستبين لك سر هذا الإعجاز إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الإتساق والانسجام لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن ولا على قريب من هذا النمط لا في كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا كلام غيره من البلغاء وغير البلغاء خذ مثلا حديث النبي صلى الله عليه وسلم وهو ما هو في روعته وبلاغته وطهره وسموه لقد قاله الرسول -صلى الله عليه وسلم- في مناسبات مختلفة لدواع متباينة في أزمان متطاولة فهل في مكنتك ومكنة البشر معك أن ينظموا من هذا السرد الشتيت وحدة كتابا واحدا يصقله الاسترسال والوحدة من غير أن ينقصوا منه أو يتزيدوا عليه أو يتصرفوا فيه ذلك ما لن يكون ولا يمكن أن يكون

ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث ويخرج للناس بثوب مرقع وكلام ملفق ينقصه الترابط والانسجام وتعوزه الوحدة والاسترسال وتمجه الأسماع والأفهام .

إذن فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجما بأنه كلام الله وحده وتلك حكمة جليلة الشأن تدل الخلق على الحق في مصدر القرآن} قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً.{

تتمة:

كان بين أول نزول القرآن وآخره عشرون أو ثلاث وعشرون أو خمس وعشرون سنة وهو مبنى على الخلاف في مدة إقامته بمكة بعد النبوة فقيل عشر وقيل ثلاث عشرة وقيل خمس عشرة والصواب على ما قررناه في صحيح السيرة أنها ثلاث عشرة سنة منها ثلاث سنوات في الدعوة السرية وعشر سنوات في الدعوة الجهرية ولم يختلف في مدة إقامته بالمدينة أنها عشر وكان كلما أنزل عليه شيء من القرآن أمر بكتابته ويقول في مفترقات الآيات ضعوا هذه الآية في موضع كذا وكذا من سورة كذا. وكان يعارضه جبريل في شهر رمضان كل عام مرة وعام مات مرتين.

وفي صحيح البخارى قال مسروق عن عائشة عن فاطمة –رضى الله عنهما– أسر النبي –صلى الله عليه وسلم– إلي أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضور أجلى.

نكتفي بهذا القدر في هذه المحاضرة وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المحاضرة الثانية عشرة

الأحرف السبعة التي نزل القرآن عليها

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فما زال حديثنا في نزول القرآن.

ورد حديث نزل القرآن على سبعة أحرف من رواية جمع من الصحابة: أبيّ بن كعب وأنس وحذيفة بن اليمان وزيد بن أرقم وسمرة بن جندب وسلمان ابن صرد وابن عباس وابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وعمر بن الخطاب وعمرو بن أبي سلمة وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل وهشام بن حكيم وأبي بكرة وأبي جهم وأبي سعيد الخدري وأبي طلحة الأنصاري وأبي هريرة وأبي أيوب فهؤلاء أحد وعشرون صحابياً وقد نص أبو عبيد على تواتره.

وأخرج أبو يعلى في مسنده أن عثمان قال على المنبر: أذكر الله رجلاً سمع النبي –صلى الله عليه وسلم– قال)) :إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف لما قام((، فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا بذلك فقال: وأنا أشهد معهم.

وسأسوق من رواتهم ما يحتاج إليه.

فأقول: اختلف في معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولاً:

أحدها: أنه من المشكل الذي لا يدري معناه لأن الحرف يصدق لغة على حرف الهجاء وعلى الكلمة وعلى المعنى وعلى الجهة قاله ابن سعدان النحوي.

الثاني: أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بل المراد التيسير والتسهيل والسعة ولفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد كما يطلق السبعون في العشرات والسبعمائة في المئين ولا يراد العدد المعين وإلى هذا جنح عياض ومن تبعه.

ويرده ما في حديث ابن عباس في الصحيحين أن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– قال :))أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف ((وفي حديث أبيّ عند مسلم)) :إن ربي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن

هون على أمتي فأرسل إلي أن أقرأه على حرفين فرددت إليه أن هون على أمتي فأرسل إلي أن أقرأه على سبعة أحرف((.

وفي لفظ عنه عند النسائي)) :إن جبريل وميكائيل أتياني فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف فقال ميكائيل: استزده حتى بلغ سبعة أحرف.((

وفي حديث أبي بكرة اقرأه فنظرت إلى ميكائيل فسكت فعلمت أنه قد انتهت العدة.

فهذا يدل على إرادة حقيقية العدد وانحصاره.

الثالث: أن المراد بها سبع قراءات وتعقب بأنه لا يوجد في القرآن كلمة تقرأ على سبعة أوجه إلا القليل مثل: } عبد الطاغوت { و} لا تقل لهما أف { وأجيب بأن المراد أن كل كلمة تقرأ بوجه أو وجهين أو ثلاثة أو أكثر إلى سبعة.

ويشكل على هذا أن في الكلمات ما قرئ على أكثر وهذا يصلح أن يكون قولاً رابعاً.

الخامس: أن المراد بها الأوجه التي يقع بها التغاير ذكره ابن قتيبة قال:

فأولها :ما يتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل: ولا يضار كاتب بالفتح والرفع .

وثانيهما: ما يتغير بالفعل مثل بعد وباعد بلفظ الطلب والماضي.

وثالثها: ما يتغير باللفظ مثل ننشرها .

ورابعها: ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل طلح منضود وطلع .

وخامسها: ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل وجاءت سكرة الموت بالحق وسكرة الحق بالموت.

وسادسها: ما يتغير بزيادة أو نقصان مثل الذكر والأنثى } وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى .{

وسابعها: ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى مثل كالعهن المنفوش وكالصوف المنفوش. وتعقب هذا قاسم بن ثابت بأن الرخصة وقعت وأكثرهم يومئذ لا يكتب ولا يعرف الرسم وإنما كانوا يعرفون الحروف ومخارجها.

وأجيب بأنه لا يلزم من ذلك توهين ما قاله ابن قتيبة لاحتمال أن يكون الانحصار المذكور في ذلك وقع اتفاقاً وإنما اطلع عليه بالاستقراء.

قلت: أين التيسير على الأمة في ذلك؟ ظاهر الأحاديث الواردة يصطدم تماما مع هذا القول كما أن بعض وجوهه لا يوجد فيها قراءة متواترة ولذا أعوز صاحب هذا القول المثال فجاء بقراءات شاذة. وأيضا يمكن لمن أراد هنا أن يزيد في الاختلافات عن السبعة أن يزيد فيضيف

مثلا ما يتغير بالنطق ولا يتغير لفظه ولا صورته ولا معناه فيدخل المدغم والممال ونحو ذلك والمتأمل لما يأتي في قولي الرازي وابن الجزري وغيرهما يرى ذلك وما ذكرته رد عليها جميعا وما في معناها .

قال أبو الفضل الرازي في اللوائح: الكلام لا يخرج عن سبعة أوجه في الاختلاف:

الأول: اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث.

والثاني: اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر.

الثالث: وجوه الإعراب.

الرابع: النقص والزيادة.

الخامس: التقديم والتأخير.

السادس: الإبدال.

السابع: اختلاف اللغات كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والإدغام والإظهار ونحو ذلك، وهذا هو القول السادس.

وقال بعضهم: المراد بها كيفية النطق بالتلاوة من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق وإمالة وإشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف وتليين وتحقيق، وهذا هو القول السابع.

وقال ابن الجزري: قد تتبعت صحيح القراءات وشاذها وضعيفها ومنكرها فإذا هي يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه لا يخرج عنها وذلك إما في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة نحو البخل بأربعة ويحسب بوجهين أو متغير في المعنى فقط نحو فتلقى آدم من ربه كلمات وإما في الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو تبلو وتتلو وعكس ذلك نحو الصراط والسراط أو بتغيرهما نحو فامضوا فاسعوا وإما في التقديم والتأخير نحو فيقتلون ويقتلون أوفي الزيادة والنقصان نحو أوصى ووصى فهذه سبعة لا يخرج الاختلاف عنها.

قال: وأما نحو اختلاف الإظهار والإدغام والروم والإشمام والتخفيف والتسهيل والنقل والإبدال فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع في اللفظ والمعنى لأن هذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً انتهى. وهذا هو القول الثامن.

قال السيوطي : ومن أمثلة التقديم والتأخير قراءة الجمهور} كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ { وقرأ ابن مسعود على قلب كل متكبر.

التاسع: أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتفقة بألفاظ مختلفة نحو أقبل وتعال وعلم وعجل وأسرع وإلى هذا ذهب سفيان بن عيينة وابن جرير وابن وهب وخلائق ونسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء ويدل له ما أخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي بكرة أن جبريل قال: يا محمد اقرأ القرآن على حرف قال ميكائيل: استزده حتى بلغ سبعة أحرف قال: كل شاف كاف ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو رحمة بعذاب نحو قولك تعال وأقبل وهلم واذهب وأسرع وعجل هذا اللفظ رواية أحمد وإسناده جيد.

وأخرج أحمد والطبراني أيضاً عن ابن مسعود نحوه.

وعند أبي داود عن أبيّ قلت: سميعاً عليماً عزيزاً حكيماً ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو رحمة بعذاب.

وعند أحمد من حديث أبي هريرة)) :أنزل القرآن على سبعة أحرف عليماً حكيماً غفوراً رحيماً ((وعنده أيضاً من حديث عمر بأن القرآن كله صواب ما لم تجعل مغفرة عذاباً وعذاباً مغفرة أسانيدها جياد.

قال ابن عبد البر: إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها أنها معان متفق مفهومها مختلف مسموعها لا يكون في شيء منها معنى وضده ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ينفيه ويضاده كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده.

ثم أسند عن أبيّ بن كعب أنه كان يقرأ: كلما أضاء لهم مشوا فيه مروا فيه سعوا فيه.

وكان ابن مسعود يقرأ: للذين آمنوا انظرونا أمهلونا أخرونا.

قال الطحاوي: وإنما كان ذلك رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ ثم نسخ بزوال العذر وتيسر الكتابة والحفظ وكذا قال ابن عبد البر والباقلاني وآخرون.

وفي فضائل أبي عبيد من طريق عون بن عبد الله أن ابن مسعود اقرأ رجلاً: إن شجرة الزقوم طعام الأثيم فقال الرجل: طعام اليتيم فردها عليه فلم يستقم بها لسانه فقال: أتستطيع أن تقول طعام الفاجر قال نعم قال: فافعل.

قلت: هذا القول في أسانيده بعض مقال وعلى افتراض صحته لا يتوجه إلا على القول بنسخ تلك القراءات ورفع هذا التيسير وحصره في نطاق ضيق جدا فلم يستفد منه إلا بعض

المسلمين في عهده -صلى الله عليه وسلم-. ويشكل عليه أنه ليس عندنا دليل على النسخ ولكن لا يعرف أحد من أهل العلم يرخص في قراءة القرآن بالمعنى.

كما أن التيسير في تلك القراءات محدود جدا لأنه مجرد استبدال كلمة بكلمة أخرى فما هو وجهه للشيخ الفاني والمرأة والرجل الذي لم يقرأ كتابا قط كما في بعض ألفاظ الحديث.

والذي يظهر لي أن ما ذكر في هذه الروايات إنما هو لتقريب معنى الأحرف لا للتمثيل والمراد أنها غالبا لا تؤثر في المعنى كاختلاف المترادفات والله أعلم .

القول العاشر: أن المراد سبع لغات وإلى هذا ذهب أبو عبيد وثعلب والزهري وآخرون واختاره ابن عطية وصححه البيهقي في الشعب.

وتعقب بأن لغات العرب أكثر من سبعة.

وأجيب بأن المراد أفصحها فجاء عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العجز من الهوازن.

قال: والعجز سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف وهؤلاء كلهم من هوازن ويقال لهم علي هوازن.

ولهذا قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب علي هوازن وسفلي تميم: يعني بني دارم.

وأخرج أبو عبيد من وجه آخر عن ابن عباس قال: نزل القرآن بلغة الكعبين: كعب قريش وكعب خزاعة قيل: وكيف ذاك قال: لأن الدار واحدة: يعني أن خزاعة كانوا جيران قريش فسهلت عليهم لغتهم.

وقال أبوحاتم السجستاني: نزل بلغة قريش وهزيل وتميم والأزد وربيعة وهوازن وسعد بن بكر واستنكر ذلك ابن قتيبة وقال: لم ينزل القرآن إلا بلغة قريش ورده بقوله تعالى: } وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ { فعلى هذا تكون اللغات السبع في بطون قريش وبذلك جزم أبو علي الأهوازي.

وقال أبو عبيد: ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات بل اللغات السبع مفرقة فيه فبعضه بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة اليمن وغيرهم.

قال: وبعض اللغات أسعد به من بعض وأكثر نصيباً.

وقيل: نزل بلغة مضر خاصة لقول عمر: نزل القرآن بلغة مضر.

وعين بعضهم فيما حكاه ابن عبد البر السبع من مضر أنهم هذيل وكنانة وقيس وضبة وتيم الرباب وأسد بن خزيمة وقريش فهذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات.

ونقل أبو شامة عن بعض الشيوخ أنه قال: أنزل القرآن أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء ثم أبيح للعرب أن يقرؤوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها عن اختلافهم في الألفاظ والإعراب ولم يكلف أحداً منهم الانتقال عن لغته إلى لغة أخرى للمشقة ولما كان فيهم من الحمية ولطلب تسهيل فهم المراد.

وزاد غيره أن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي بأن يغير كل أحد الكلمة بمرادفها في لغته بل المرعي في ذلك السماع من النبي -صلى الله عليه وسلم-.

واستشكل بعضهم هذا بأنه يلزم عليه أن جبريل كان يلفظ باللفظ الواحد سبع مرات.

وأجيب بأنه يلزم هذا لو اجتمعت الأحرف السبعة في لفظ واحد ونحن قلنا: كان جبريل يأتي في كل عرضة بحرف إلى أن تمت سبعة وبعد هذا كله رد القول بأن عمر بن الخطاب وهشام ابن حكيم كلاهما قرشي من لغة واحدة وقد اختلفت قراءتهما ومحال أن ينكر عليه عمر لغته فدل على أن المراد بالأحرف السبعة غير اللغات.

وأقول: هذا هو القول الذي لا يقال بخلافه لأمور عدة:

أولها :جهة التيسير فيه واضحة جلية.

ثانيا :بقاؤه إلى وقتنا الحالي فالرخصة باقية للمسلمين عامة وهذا أصل الأمر والموافق للأدلة حيث لا نص يدلل على نسخ هذه الأحرف.

ثالثا :موافقته للواقع من أمر القراءات ففعلا القرآن به ألفاظ وطرق أداء من لغات العرب المختلفة فليس كل العرب يدغم أو يسهل أو يميل ومنهم من يستخدم بعض الكلمات دون الأخرى وهكذا.

رابعا :الاعتراضات التي عليه ردها يسير فمثلا القول بأنه نزل بلغة قريش إنما المراد به جله وهذا واضح فإذا اختلف في كلمة فليرجع للغة الأم، وقولهم بلسان قومه أي بالعربية فلا أحد يقول إن لغة قريش لسان ولغة هذيل لسان آخر، وأما قراءة هشام واختلافها عن قراءة عمر وهما قرشيان فما الإشكال هل يلزم القرشي ألا يقرأ إلا بحرف يوافق لغة قريش؟؟ نحن نقرأ القراءات وليست لغتنا لغة أي من هذه القبائل وإنما العبرة بالتلقي، فهكذا تلقى هشام من

رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بخلاف ما تلقاه عمر ولذا أنكر عليه، وكون لغات العرب أكثر من شبعة فمن الذي شرط أن ينزل القرآن بجميع لغات العرب؟ وإنما يكفي بعضها أو أشهرها ولا يحتاج الأمر حتى إلى تعيينها أو تسميتها والله أعلم.

القول الحادي عشر: أن المراد سبعة أصناف والأحاديث السابقة ترده والقائلون به اختلفوا في تعيين السبعة فقيل أمر ونهي وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال.

واحتجوا بما أخرجه الحاكم والبيهقي عن ابن مسعود عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال :))كان الكتاب الأول ينزل من باب وواحد وعلى حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب عن سبعة أحرف: زجر وأمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ((الحديث.

وقد أجاب عنه قوم بأنه ليس المراد بالأحرف السبعة التي تقدم ذكرها في الأحاديث الأخرى لأن سياق تلك الأحاديث يأبى حملها على هذا بل هي ظاهرة في أن المراد أن الكلمة تقرأ على وجهين وثلاثة إلى سبعة تيسيراً وتهويناً والشيء الواحد لا يكون حلالاً حراماً في آية واحدة.

قال البيهقي: المراد بالسبعة الأحرف هنا: الأنواع التي نزل عليها والمراد بها في تلك الأحاديث اللغات التي يقرأ بها.

وقال غيره: من أول السبعة الأحرف بهذا فهو فاسد لأنه محال أن يكون الحرف منها حراماً لا ما سواه وحلالاً ما سواه ولأنه لا يجوز أن يكون القرآن يقرأ على أنه حلال كله أو حرام كله أو أمثال كله.

وقال ابن عطية: هذا القول ضعيف لأن الإجماع على أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال ولا تحليل حرام ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة.

وقال الماوردي: هذا القول خطأ لأنه –صلى الله عليه وسلم- أشار إلى جواز القراءة بكل واحد من الحروف وإبدال حرف بحرف وقد أجمع المسلمون على تحريم إبدال آية أمثال بآية أحكام.

وقال أبو علي الأهوازي وأبو العلاء الهمذاني: قوله في الحديث زاجر وأمر إلى الخ استئناف كلام آخر: أي هو زاجر: أي القرآن ولم يرد به تفسير الأحرف السبعة وإنما توهم ذلك من جهة الاتفاق في العدد.

ويؤيده أن في بعض طرقه زجراً وأمراً بالنصب: أي نزل على هذه الصفة في الأبواب السبعة.

وقال أبو شامة: يحتمل أن يكون التفسير المذكور للأبواب لا للأحرف: أي هي سبعة أبواب من أبواب الكلام وأقسامه: أي أنزله الله على هذه الأصناف لم يقتصر منها على صنف واحد كغيره من الكتب.

وقيل المراد بها المطلق والمقيد والعام والخاص والنص والمؤول والناسخ والمنسوخ والمجمل والمفسر والاستثناء وأقسامه حكاه شيدلة عن الفقهاء.

وهذا هو القول الثاني عشر.

وقيل المراد بها الحذف والصلة والتقديم والتأخير والاستعارة والتكرار والكناية والحقيقة والمجاز والمجمل والمفسر والظاهر والغريب حكاه عن أهل اللغة.

وهذا هو القول الثلاث عشر.

وقيل المراد بها التذكير والتأنيث والشرط والجزاء والتصريف والإعراب والأقسام وجوابها والجمع والإفراد والتصغير والتعظيم واختلاف الأدوات حكاه عن النحاة.

وهذا هو الرابع عشر.

وقيل المراد بها سبعة أنواع من المعاملات: الزهد والقناعة مع اليقين والحزم والخدمة مع الحياء والكرم والفتوة مع الفقر والمجاهدة والمراقبة مع الخوف والرجاء والتضرع والاستغفار مع الرضا والشكر والصبر مع المحاسبة والمحبة والشوق مع المشاهدة حكاه عن الصوفية.

وهذا هو الخامس عشر.

وكما هو ملاحظ فيما سبق أنها كلها عجائب ممن قالها ولا تمت بصلة للحديث وقد أوصلها السيوطي إلى قرابة الأربعين قولا ما ذكرناه أحسنها.

وقال ابن حبان: فهذه خمسة وثلاثون قولاً لأهل العلم واللغة في معنى إنزال القرآن على سبعة أحرف وهي أقاويل يشبه بعضها بعضاً وكلها محتملة ويحتمل غيرها.

وقال المرسي: هذه الوجوه أكثرها متداخلة ولا أدري مستندها ولا عمن نقلت ولا أدري لم خص كل واحد منهم هذه الأحرف السبعة بما ذكر مع أن كلها موجودة في القرآن فلا أدري معنى التخصص.

ومنها الأشياء لا أفهم معناها على الحقيقة وأكثرها معارضة لحديث عمر وهشام بن حكيم الذي في الصحيح فإنهما لم يختلفا في تفسيره ولا أحكامه وإنما اختلفا في قراءة حروفه.

تنبيهان:

الأول :يظن كثير من العوام أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبعة وهو جهل قبيح.

الثاني :تنبيه اختلف هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة أم لا؟

فذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أنها مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي –صلى الله عليه وسلم– على جبريل متضمنة لها لم تترك حرفاً منها.

قال ابن الجزري: وهذا هو الذي يظهر صوابه.

وفي الحقيقة الكلام عن الحروف السبعة وما يتعلق بها يحتاج إلى إفراده بمحاضرات خاصة به إلا أن فيما ذكرناه هنا كفاية بمناسبة تعلقه بنزول القرآن.

نكتفي بهذا القدر في هذه المحاضرة وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المحاضرة الثالثة عشرة

بعض المباحث المتعلقة بنزول القرآن

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

ففي هذه المحاضرة بإذن الله تعالى سوف نختم حديثنا عن نزول القرآن ببعض المباحث المتعلقة به وهي: ما تكرر نزوله وفوائده، وما تأخر حكمه عن نزوله، وما تأخر نزوله عن حكمه، وما نزل مفرقا، وما نزل مجمعا.

بعض المباحث المتعلقة بنزول القرآن.

أولا: ما تكرر نزوله وفائدته:

صرح جماعة من المتقدمين والمتأخرين بأن من القرآن ما تكرر نزوله.

وقد تكلمنا عن طرف من ذلك في محاضرات أسباب النزول وقلنا باللجوء إلى القول بتعدد النزول عند تعذر طرق الجمع بين الأسباب.

قال ابن الحصار: قد يتكرر نزول الآية تذكيراً وموعظة وذكر من ذلك خواتيم سورة النحل .

يعني بذلك ما أخرجه البيهقي والبزار، عن أبي هريرة: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وقف على حمزة حين استشهد، وقد مُثِّلَ به، فقال)) :لأُمَثِّلَنَّ بسبعين منهم مكانك((، فنزل جبريل والنبي -صلى الله عليه وسلم- واقف، بخواتيم سورة النحل} :وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ {إلى آخر السورة، وهن ثلاث آيات .

وأخرج الترمذي والحاكم، عن أبيّ بن كعب، قال: لما كان يوم أحد، أصيب من الأنصار أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة، منهم: حمزة، فمثّلوا به. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا، لنربينّ، -أي: لنزيدنّ- عليهم. فلما كان يوم فتح مكة، أنزل الله} :وَإِنْ عَاقَبْتُمْ {الآية .

فالرواية الأولى :تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد .

والثانية :تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة، على حين أن بين غزوة أحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين؛ فبعُد أن يكون نزول الآية كان عقيبهما معاً، وإذاً لا مناص لنا من القول بتعدّد نزولها: مرة في أحد، ومرة يوم الفتح.

وقد ذهب البعض إلى: أن سورة النحل كلها مكية؛ وعليه، فتكون خواتيمها المذكورة نزلت مرة بمكة، قبل هاتيْن المرتيْن اللّتيْن في المدينة، وتكون عدة مرات نزولها :ثلاثاً.

قال ابن الحصار: ويجمع بأنها نزلت أولاً بمكة قبل الهجرة مع السورة، لأنها مكية، ثم ثانياً بأحد، ثم ثالثاً يوم الفتح، تذكيراً من الله لعباده.

وبعضهم يقول: إن سورة النحل مكية، ما عدا خواتيمها تلك، فإنها مدنية؛ وعليه فعدة مرات نزولها: اثنتان فقط .

قلت: لا يسلّم بما ذكر، فكل رواية مما سبق لا تخلو من مقال في إسنادها، والقول بأن الآيات الثلاث مكية لا حجة عليه، فهي بلا شك مدنية، والأقوى نزولها عقب أُحد لشواهده الكثيرة .

ومن ذلك أيضاً :

ما أخرجه الشيخان، عن المسيب قال: لما حضر أبا طالب الوفاة، دخل عليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: أي عمّ. قل)) :لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله .((فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب. فلم يزالا يكلّمانه حتى قال هو على ملة عبد المطلب. فقال النبي –صلى الله عليه وسلم)) :–لأستغفرنّ لك ما لم أُنه عنك((، فنزلت} :مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ {الآية .

وأخرج الترمذي وحسّنه، عن عليّ قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويْه، وهما مشركان، فقلت: تستغفر لأبويْك وهما مشركان؟ فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك. فذكرت ذلك لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فنزلت .

وأخرج الحاكم وغيره، عن ابن مسعود قال: خرج النبي –صلى الله عليه وسلم– يوماً إلى المقابر، فجلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً. ثم بكى فقال)) :إن القبر الذي جلستُ عنده

قبر أمي، وإني استأذنت ربي في الدعاء لها، فلم يأذن لي. فأنزل عليّ} :مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ .(({

قلت: ذكر هذه الآية في رواية موت أبي طالب ليس على سبيل نزولها بعد ذلك مباشرة، والذي نزل بعد موته مباشرة قوله تعالى} :إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ {الآية، وهي مدنية لاشك، بل في سورة هي من أواخر ما نزل، فأين هي من مكة؟ وقد استمر النبي –صلى الله عليه وسلم– والمؤمنون معه زماناً يستغفرون للمشركين، حتى نهوا عن ذلك بنزول هذه الآية.

وذكر ابن كثير منه آية الروح.

وقال الإمام الزركشي: وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه ... ولذلك أمثلة، منها :

ما ثبت في الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى } :وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ { أنها نزلت لما سأله اليهود عن الروح وهو في المدينة، ومعلوم أن هذه الآية في سورة " سبحان " – أي الإسراء وهي مكية بالاتفاق، فإن المشركين لما سألوه عن ذي القرنين وعن أهل الكهف قبل ذلك بمكة، وأن اليهود أمروهم أن يسألوه عن ذلك، فأنزل الله الجواب، كما سبق بيانه .

وكما ثبت في الصحيحين، عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود :أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي –صلى الله عليه وسلم– فأخبره، فأنزل الله تعالى} :وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ{، فقال الرجل: ألي هذا؟ فقال)) :بل لجميع أمّتي.((

فهذا كان في المدينة، والرجل قد ذكر الترمذي أو غيره أنه: أبو اليسر، وسورة هود مكية بالاتفاق؛ ولهذا أشكل على بعضهم هذا الحديث، مع ما ذكرنا، ولا إشكال لأنها نزلت مرة بعد مرة .

وكذلك ما ورد في} :قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{، أنها جواب للمشركين بمكة، وأنها جواب لأهل الكتاب بالمدينة .

والحكمة في هذا كله: أنه قد يحدث سبب، من سؤال أو حادثة تقتضى نزول آية، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها، فتؤدى تلك الآية بعينها إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– تذكيراً لهم

بها، وبأنها تتضمن هذه. والعالم قد يحدث له حوادث، فيتذكر أحاديث وآيات تتضمن الحكم في تلك الواقعة، وإن لم تكن خطرت له تلك الحادثة قبل مع حفظه لذلك النص .

قلت: هذه الحكمة وغيرها يكفي فيها مجرد تكرار التلاوة، لا النزول مرة أخرى.

قال السيوطي: وهذا كما قيل في الفاتحة نزلت مرتين: مرة بمكة، وأخرى بالمدينة .

قلت: قد تقدم في أول ما نزل ما يدل على أن الفاتحة قد نزلت في أوائل ما نزل بمكة وتقدم في فضائل سورة الفاتحة حديث ابن عباس وفيه قول الملك أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته.

وهذا ظاهره أنه بالمدينة ولكنه ليس صريحا في النزول وإنما هو بشارة فقط .

وكذلك حديث صلاة جبريل برسول الله –-صلى الله عليه وسلم-– بالمدينة لا يدلل على نزول الفاتحة مرة أخرى بالمدينة.

إذن فالمعتمد نزولها بمكة فقط.

وقد فصلنا القول في موضع من مواضع الخلاف وهو ما جاء في سورة الكوثر وذلك عند كلامنا عن أسباب النزول فلا نعيده هنا.

وقد جعل بعضهم من ذلك الأحرف التي تقرأ على وجهين فأكثر كما تقدم في حديثنا عن الأحرف السبعة. ودلل له بما أخرجه مسلم من حديث أبيّ إن ربي أرسل إلي أن اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هوّن على أمتي فأرسل إليّ أن أقرأه على حرفين فرددت إليه أن هوّن على أمتي فأرسل إليّ أقرأه على سبعة أحرف.

فهذا الحديث يدل على أن القرآن لم ينزل من أول وهلة بل مرة بعد أخرى.

وفي جمال القراء للسخاوي بعد أن حكى القول بنزول الفاتحة مرتين: فإن قيل ما فائدة نزولها مرة ثانية؟

قال السخاوي: قلت: يجوز أن تكون نزلت أول مرة على حرف واحد ونزلت الثانية ببقية وجوهها نحو: ملك ومالك والسراط والصراط ونحو ذلك اهـ.

وأقول: لو قيل بذلك لكان جل القرآن نزل مرات عديدة حسب وجوه القراءات ولم يقتصر ذلك على الفاتحة وغيرها وإنما الأمر في القراءات محمول على بيان الأوجه في العرضات

السنوية أو الترخيص من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لمن قرأ عليه بهذه الأوجه ومن ثم نقلت عنه لمن بعده والله أعلم.

قال السيوطي: أنكر بعضهم كون شيء من القرآن تكرر نزوله كذا رأيته في كتاب الكفيل بمعاني التنزيل.

وعلله بأن تحصيل ما هو حاصل لا فائدة فيه. قال: وهو مردود بما تقدم من فوائده.

وبأنه يلزم منه أن يكون كل ما نزل بمكة نزل بالمدينة مرة أخرى فإن جبريل كان يعارضه القرآن كل سنة.

قال: ورد بمنع الملازمة بأنه لا معنى للإنزال إلا أن جبريل كان ينزل على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بقرآن لم يكن نزل به من قبل فيقرئه إياه.

ورد بمنع اشتراط قوله لم يكن نزل به من قبل.

ثم قال: ولعلهم يعنون بنزولها مرتين أن جبريل نزل حين حولت القبلة فأخبر الرسول –صلى الله عليه وسلم– أن الفاتحة ركن في الصلاة كما كانت بمكة فظن ذلك نزولاً لها مرة أخرى أو أقرأه فيها قراءة أخرى لم يقرئها له بمكة فظن ذلك إنزالاً اهـ.

قلت: هذا القول هو الراجح ولا أرى أن يقال في شيء من القرآن: تكرر نزوله، لأنه إذا نزل وتلي، فما معنى القول بالنزول مرة ثانية، حيث إنه إذا جاء جبريل بما تقدم نزوله فإنما هو للتلاوة والتذكر، وليس إنزالاً مرة ثانية؛ وقد علمنا أنه –صلى الله عليه وسلم– لا ينطق إلا بوحي، فمعنى ذلك: أنه كلما تلا شيئاً من القرآن، قيل بنزوله مرة ثانية، وبحمد الله لا يوجد رواية صحيحة في أسباب النزول –على الرغم من التتبع الشديد– تجعلنا نقول بتعدد النزول. وما ورد مما يقال فيه ذلك، ونظر فيه نظرة فاحصة بعد جمع الطرق والشواهد، ظهر أن الخطأ فيه من بعض الرواة المتكلم في حفظهم. والله أعلم .

ثانيا: ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر نزوله عن حكمه:

قال الزركشي في البرهان: قد يكون النزول سابقاً على الحكم كقوله: } قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى { فقد روى البيهقي وغيره عن ابن عمر أنها نزلت في زكاة الفطر.

وأخرج البزار نحوه مرفوعاً.

وقال بعضهم: لا أدري ما وجه التأويل لأن السورة مكية ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة ولا صوم.

وأجاب البغوي بأنه يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم كما قال لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد فالسورة مكية وقد ظهر أثر الحل يوم فتح مكة حتى قال عليه الصلاة والسلام أحلت لي ساعة من نهار وكذلك نزلت بمكة سيهزم الجمع ويولون الدبر قال عمر بن الخطاب: فقلت أي جمع فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في آثارهم مصلتاً بالسيف يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر فكانت ليوم بدر. أخرجه الطبراني في الأوسط.

قلت: أما تفسير الآية بأنها نزلت في زكاة الفطر فليس صريحا في السببية كما بيناه في محاضرات أسباب النزول وغاية ما فيه أنه مندرج في معنى الآية فلا يقال إنه مما نزل قبل حكمه. ولا أدري ماذا فهم منها الصحابة عندما نزلت بمكة على هذا القول؟؟

وأما آية سيهزم الجمع ويولون الدبر فهذا وعد من الله بما سيحصل كوعود كثيرة في القرآن الكريم وكإخبار بأمور عديدة ستحصل في الآخرة فأين تقدم الحكم على النزول هنا؟؟

قال: وكذلك قوله : {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ { قال قتادة: وعده الله وهو يومئذ بمكة أنه سيهزم جنداً من المشركين فجاء تأويلها يوم بدر.أخرجه ابن أبي حاتم.

قلت: وهذا كسابقه.

ومثله أيضاً قوله تعالى قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود ما أخرجه الشيخان من حديثه أيضاً قال)) :دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً فجعل يطعنها بعود كان في يده ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً وما يبدئ الباطل وما يعيد.((

قلت: هذا لا يعدو كونه قراءة لآية لمناسبة الموقف لها ومثل ذلك كثير.

وقال ابن الحصار: قد ذكر الله الزكاة في السور المكيات كثيراً تصريحاً وتعريضاً بأن الله سينجز وعده لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ويقيم دينه ويظهر حتى يفرض الصلاة والزكاة وسائر الشرائع ولم تؤخذ الزكاة إلا بالمدينة بلا خلاف وأورد من ذلك قوله تعالى وآتوا حقه يوم

حصاده وقوله في سورة المزمل وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ومن ذلك قوله فيها وآخرون يقاتلون في سبيل الله.

قلت: هذا كله من الوعد بما سيكون والإخبار بالغيب لا يطلق عليه نزول متقدم عن حكمه وإلا كان الكثير من القرآن كذلك.

قال: ومن ذلك قوله تعالى ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً فقد قالت عائشة وابن عمر وعكرمة وجماعة إنها نزلت في المؤذنين والآية مكية ولم يشرع الأذان إلا بالمدينة.

قلت: وهذا أيضا كالسابق في زكاة الفطر فإنه مما يندرج تحت الآية وليست الآية محصورة فيه، وقد كان معناها مفهوما للصحابة عند نزولها بمكة ولازال هذا المعنى كما هو مقصودا بها. ولم أقف على شيء يسلم أنه تقدم نزوله على حكمه والله أعلم.

ومن أمثلة ما تأخر نزوله عن حكمه:

آية الوضوء ففي صحيح البخاري عن عائشة قالت سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة فأناخ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ونزل فثنى رأسه في حجري راقداً وأقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة وقال: حبست الناس في قلادة ثم إن النبي –صلى الله عليه وسلم– استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد فنزلت} :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ {إلى قوله: } لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ { فالآية مدنية إجماعاً وفرض الوضوء كان بمكة مع فرض الصلاة.

قال ابن عبد البر: معلوم عند جميع أهل المغازي أنه –صلى الله عليه وسلم– لم يصلّ منذ فرضت عليه الصلاة إلا بوضوء ولا يدفع ذلك إلا جاهل أو معاند.

قال: والحكمة في نزول آية الوضوء مع تقدم العمل به ليكون فرضه متلواً بالتنزيل.

وقال غيره: يحتمل أن يكون أول الآية نزل مقدماً مع فرض الوضوء ثم نزل بقيتها وهو ذكر التيمم في هذا القصة.

قلت: يرده الإجماع على أن الآية مدنية.

ومن أمثلته أيضاً: آية الجمعة فإنها مدنية والجمعة فرضت بمكة.

وقول ابن الغرس: إن إقامة الجمعة لم تكن بمكة قط يرده ما أخرجه بن ماجة عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبي حين ذهب بصره فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة

فسمع لأذان يستغفر لأبي أمامة أسعد بن زرارة فقلت: يا أبتاه أرأيت صلاتك على أسعد بن زرارة كلما سمعت النداء بالجمعة لم هذا قال: أي بنيّ كان أول من صلى بنا الجمعة قبل مقدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من مكة.

ومن أمثلته قوله تعالى: } إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ { الآية فإنها نزلت سنة تسع وقد فرضت الزكاة قبلها في أوائل الهجرة.

قال ابن الحصار: فقد يكون مصرفها قبل ذلك معلوماً ولم يكن فيه قرآن متلو كما كان الوضوء معلوماً قبل نزول الآية ثم نزلت تلاوة القرآن تأكيداً به.

ثالثا :ما نزل مفرقاً وما نزل جمعاً:

الأول غالب القرآن.

ومن أمثلته في السور القصار:

اقرأ أول ما نزل منها إلى قوله: } مَا لَمْ يَعْلَمْ.{

والضحى أول ما نزل منها إلى قوله: } فَتَرْضَى {كما في حديث الطبراني.

ومن أمثلة الثاني: سورة الفاتحة والإخلاص والكوثر وتبت ولم يكن والنصر والمعوذتان نزلتا معاً ومنه في السور الطوال المرسلات.

ففي المستدرك عن ابن مسعود قال: كنا مع النبي –صلى الله عليه وسلم– في غار فنزلت عليه المرسلات عرفاً فأخذتها من فيه وإن فاه رطب بها فلا أدري بأيها ختم فبأي حديث بعده يؤمنون أو } وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ .{

ومنه سورة الصف.

ومنه سورة الأنعام فقد أخرج أبو عبيد والطبراني عن ابن عباس قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة حولها سبعون ألف ملك.

وأخرج الطبراني من طريق يوسف بن عطية الصفار وهو متروك عن ابن عوف عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– نزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك.

وأخرج عن مجاهد قال: نزلت الأنعام كلها جملة واحدة معها خمسمائة ملك.

وأخرج عن عطاء قال: أنزلت الأنعام جميعاً ومعها سبعون ألف ملك.

فهذه شواهد يقوي بعضها بعضاً.

وقال ابن الصلاح في فتاويه: الحديث الوارد أنها نزلت جملة رويناه من طريق أبيّ بن كعب وفي إسناده ضعف ولم نر له إسناداً صحيحاً وقد روي ما يخالفه فروي أنها لم تنزل جملة واحدة بل نزلت آيات منها بالمدينة اختلفوا في عددها فقيل ثلاث وقيل ست وقيل غير ذلك والله أعلم.

قلت: بل ثبت حديث نزولها جملة بمجموع الطرق كما قدمنا في محاضرات فضائل القرآن وقد فصلت ذلك في موسوعة فضائل سور وآيات القرآن فلينظر هناك.

نكتفي بهذا القدر في هذه المحاضرة وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المحاضرة الرابعة عشرة

جمع القرآن

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

ففي هذه المحاضرة بإذن الله تعالى نتكلم عن :جمع القرآن.

فنقول :

كلمة جمع القرآن تطلق تارة ويراد منها حفظه واستظهاره في الصدور وتطلق تارة أخرى ويراد منها كتابته كله حروفا وكلمات وآيات وسورا.

هذا جمع في الصحائف والسطور، وذاك جمع في القلوب والصدور.

ثم إن جمع القرآن حدث في الصدر الأول ثلاث مرات:

الأولى :في عهد النبي- صلى الله عليه وسلم.-

والثانية :في خلافة أبي بكر.

والثالثة :على عهد عثمان .وفي هذه المرة الأخيرة وحدها نسخت المصاحف وأرسلت إلى الآفاق.

وفي محاضرة اليوم يقتصر حديثنا إن شاء الله تعالى على المرحلة الأولى من الجمع وهي جمعه في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم.-

فنقول: أولا: جمعه بمعنى حفظه في الصدور:

لم يَحْظَ كتابٌ منذُ خَلَقَ الله السماواتِ والأرضَ بما حَظِيَ به هذا القرآنُ من الاهتمامِ والحِفْظِ والعنايةِ. وتبدأُ مظاهِرُ حفظِه منذُ وقتِ نزوله، فقد كانَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- إذا تَلَقّاه مِن جبريلَ حَرَّكَ لسانَه يَعْجَلُ به مخافةَ ألا يحفَظَه، وكان يَلقى من ذلكَ شدةً .

عن ابنِ عباسٍ -رضي الله عنهما- قال: كان رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم- يعالجُ من التنزيلِ شدةً، وكان مما يُحرِّكُ شَفَتَيْه. قال ابنُ عباس: فأنا أحَرِّكُهما لكُم كما كانَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم -يحرِّكُهما. فأنزل الله تعالى} :لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ {قال: جمعَه لكَ في صدرِكَ وتقرأه} فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ {قال: فاستَمِعْ له

وأنْصِتْ}.ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ {ثمَّ إن علينا أن تقرأه. فكان رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– بعدَ ذلك إذا أتاه جبريلُ اسْتَمَعَ، فإذا انْطَلَقَ جبريلُ، قرأهُ النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– كما قرأه .

وقال له في سورة طه} :وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً.{

ثم كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقرؤه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه ضرورة أنه نبي أمي بعثه الله في الأميين } هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ {ومن شأن الأمي أن يعول على حافظته فيما يهمه أمره ويعنيه استحضاره وجمعه خصوصا إذا أوتي من قوة الحفظ والاستظهار ما ييسر له هذا الجمع والاستحضار وكذلك كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن وهي متمتعة بخصائص منها سرعة الحفظ وسيلان الأذهان حتى كانت قلوبهم أناجيلهم وعقولهم سجلات أنسابهم وأيامهم وحوافظهم دواوين أشعارهم ومفاخرهم.

ومن هنا كان –صلى الله عليه وسلم– جامع القرآن في قلبه الشريف وسيد الحفاظ في عصره المنيف ومرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن وعلوم القرآن وكان يحيي به الليل ويزين به الصلاة حتى إنه ليقرأ في الركعة الواحدة العدد من السور الطوال .

ولزيادة التثبيت كان جبريل عليه السلام يعارضه إياه في كل عام مرة وعارضه إياه في العام الأخير مرتين قالت عائشة وفاطمة –رضي الله عنهما– سمعنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول)) :إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي.((

وقال ابن عباس –رضي الله عنهما–: كان النبي –صلى الله عليه وسلم– أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– القرآن ...

وقال أبو هريرة: كان يعرض على النبي –صلى الله عليه وسلم– القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه ...

ومن حفظه –صلى الله عليه وسلم –للقرآن ننتقل إلى حفظ صحابته الكرام:

فقد كانت طريقةُ التَّلَقي المثلى بينَ الصحابةِ هي المشافهةُ والحفظُ عن النبي –صلى الله عليه وسلم– مباشرةً.

عن ابن مسعودٍ –رضي الله عنه– قال: أخذتُ من فِي رسولِ الله –صلى الله عليه وسلم– سبعينَ سورةً ولا ينازِعُني فيها أحدٌ .

وقد توفرت للصحابة العوامل التي تجعلهم قادرين على حفظ القرآن وتسهل عليهم هذه المهمة ومن تلك العوامل :

–١قوة ذاكرتهم الفذة التي عرفوا بها واشتهروا، حتى كان الواحد منهم يحفظ القصيدة من الشعر بسماعها مرة واحدة .

–٢نزول القرآن منجماً .

–٣لزوم قراءة شيء من القرآن في الصلاة. وقد كانوا يهجرون لذة النوم وراحة الهجود إيثارا للذة القيام به في الليل والتلاوة له في الأسحار والصلاة به والناس نيام حتى لقد كان الذي يمر ببيوت الصحابة في غسق الدجى يسمع فيها دويا كدوي النحل بالقرآن وكان الرسول –صلى الله عليه وسلم –يذكي فيهم روح هذه العناية بالتنزيل يبلغهم ما أنزل إليه من ربه وكان يسمع لمسجد رسول الله –صلى الله عليه وسلم –ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا.

–٤وجوب العمل بالقرآن، فقد كان هو ينبوع عقيدتهم وعبادتهم، ووعظهم وتذكيرهم .

–٥حض النبي –صلى الله عليه وسلم– على قراءة القرآن، والترغيب بما أعد للقارئ من الثواب والأجر العظيم.

حتى غدا كتاب الله في المحل الأول من عنايتهم يتنافسون في استظهاره وحفظه ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه وربما كانت قرة عين المرأة منهم أن يكون مهرها في زواجها سورة من القرآن يعلمها إياها زوجها .

–٦تعاهد النبي –صلى الله عليه وسلم– الصحابة بتعليم القرآن: فكان الصحابة تلامذة للنبي –صلى الله عليه وسلم –يتعلمون منه القرآن، وكان النبي –صلى الله عليه وسلم – شيخهم، يتعاهدهم بتعليم القرآن، فإذا أسلم أهل أفق أو قبيله أرسل إليهم من القراء من يعلمهم القرآن، كما بعث مصعب بن عمير وابن ام مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته

يعلمانهم الإسلام ويقرئانهم القرآن وكما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتحفيظ والإقراء وإن كان في المدينة ضمه إلى حلق التعليم في جامعة القرآن النبوية .

قال عبادة بن الصامت –رضي الله عنه– كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى رجل منا يعلمه القرآن.

ومن هنا كان حفاظ القرآن في حياة الرسول –صلى الله عليه وسلم– جما غفيرا منهم الأربعة الخلفاء وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة وسالم مولى أبي حذيفة وأبو هريرة وابن عمر وابن عباس وعمرو بن العاص وابنه عبد الله ومعاوية وابن الزبير وعبد الله بن السائب وعائشة وحفصة وأم سلمة وهؤلاء كلهم من المهاجرين رضوان الله عليهم أجمعين.

وحفظ القرآن من الأنصار في حياته –صلى الله عليه وسلم –أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو الدرداء ومجمع بن حارثة وأنس بن مالك وأبو زيد الذي سئل عنه أنس فقال إنه أحد عمومتي –رضي الله عنهم– أجمعين.

وقيل إن بعض هؤلاء إنما أكمل حفظه للقرآن بعد وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم.–

وأيا ما تكن الحال فإن الذين حفظوا القرآن من الصحابة كانوا كثيرين حتى كان عدد القتلى منهم ببئر معونة ويوم اليمامة أربعين ومائة.

قال القرطبي: قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء وقتل في عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ببئر معونة مثل هذا العدد.

قال المحقق ابن الجزري: ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال إن ربي قال لي قم في قريش فأنذرهم فقلت له أي رب إذن يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة فقال إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان فابعث جندا أبعث مثلهم وقاتل بمن أطاعك من عصاك وأنفق ينفق عليك.

فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء بل يقرأ في كل حال كما جاء في صفة أمته –صلى الله عليه وسلم– أناجيلهم صدورهم وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتب ولا يقرؤونه كله إلا نظرا لا عن ظهر قلب.ا.هـ

وقد امتدح رسول الله –صلى الله عليه وسلم– جماعة من الصحابة لقوة حفظهم وشدة ضبطهم وأمر بأخذ القرآن عنهم:

روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبيّ بن كعب أي تعلموا منهم.

والأربعة المذكورون اثنان من المهاجرين وهما المبدوء بهما واثنان من الأنصار وسالم هو ابن معقل مولى أبي حذيفة ومعاذ هو ابن جبل.

قال الكرماني: يحتمل أنه –صلى الله عليه وسلم– أراد الإعلام بما يكون بعده: أي أن هؤلاء الأربعة يبقون حتى ينفردوا بذلك.

وتعقب بأنهم لم ينفردوا بل الذين مهروا في تجويد القرآن بعد العصر النبوي أضعاف المذكورين وقد قتل سالم مولى أبي حذيفة في وقعة اليمامة ومات معاذ في خلافة عمر ومات أبيّ وابن مسعود في خلافة عثمان وقد تأخر زيد بن ثابت وانتهت إليه الرياسة في القراءة وعاش بعدهم زمناً طويلاً.

فالظاهر أنه أمر بالأخذ عنهم في الوقت الذي صدر فيه ذلك القول ولا يلزم من ذلك أن لا يكون أحد في ذلك الوقت شاركهم في حفظ القرآن بل كان الذين يحفظون مثل الذين حفظوه وأزيد؛ جماعة من الصحابة.

ثانيا: جمع القرآن بمعنى كتابته في السطور، أي الصحائف التي تضم السورة والآيات جميعها . وهو لون من الحفظ يدوم مع الزمان، لا يذهب بذهاب الإنسان، فلا بد أن يتحقق ما تكفل الله بحفظه:

}إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.{

ومع أن الكتابةَ في حواضِرِ الحجازِ زَمَنَ البعثةِ لم تكنْ واسعةَ الانتشارِ، ومع أنَّ وسائلَها كانتْ بدائيةً وغيرَ ميسورةٍ؛ فإنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– كان حريصاً على تسجيلِ ما ينْزِلُ عليه من القرآنِ، حتى إنه نهى في البدايةِ عن كتابةِ شيءٍ غيرِ القرآنِ خشيةَ اختلاطِه بكتابِ الله .

عن أبي سعيدٍ الخدريّ –رضي الله عنه– أن رسولَ الله– صلى الله عليه وسلم– قال)) :لا تكتبوا عني، ومن كَتَبَ عني غيرَ القرآنِ فلْيَمْحُهْ .وحدِّثوا عني ولا حَرَجَ، ومن كَذَبَ عليَّ متعمِّداً فلْيَتبَوَّأ مقعَدَه من النار .((وكان مِنْ كَتَبتِهِ –صلى الله عليه وسلم– زيدُ بنُ ثابتٍ –رضي الله عنه.–

فاعتنى النبي –صلى الله عليه وسلم– بكتابة القرآن عناية بالغة جداً، فكان كلما نزل عليه شيء منه دعا الكُتّاب – منهم: علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان– فأملاه عليهم، فكتبوه على ما يجدونه من أدوات الكتابة حينئذ مثل: الرقاع، اللخاف، والأكتاف، والعسب.

فعنِ البراءِ –رضي الله عنه– قال: لما نَزَلَتْ} :لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ {قال النبيُّ –صلى الله عليه وسلم)) :–ادْعُ لي زيداً ولْيَجِئْ باللَّوحِ والدَّواةِ والكَتِفِ .((ثم قال)) :اكتب} :لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ (({الآية وخلفَ ظهرِ النبيِّ –صلى الله عليه وسلم– عمروُ بنُ أمِّ مكتومٍ الأعمى فقال: يا رسولَ الله، فما تأمُرُني؟ فإني رجلٌ ضريرُ البَصَرِ، فنزَلَتْ مكانَها: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله .

وأوصلَ البعضُ كُتّابَ النبيِّ –صلى الله عليه وسلم –إلى ثلاثةِ وأربعينَ كاتباً .

وقد نصَّ العلماءُ على أنَّ القرآنَ كلَّه قَدْ كُتِبَ على عهدِ رسولِ الله –صلى الله عليه وسلم– في الصُّحُفِ والألواحِ والعُسُبِ، لكنه لم يكن مجموعاً في موضِعٍ واحدٍ، ولا مُرَتَّبَ السُّوَرِ.

قال الديرعاقولي في فوائده بإسناده عن زيد بن ثابت قال: قبض النبي –صلى الله عليه وسلم– ولم يكن القرآن جمع في شيء.

قال السيوطي: أما ما أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن ((الحديث فلا ينافي ذلك لأن الكلام في كتابة مخصوصة على صفة مخصوصة وقد كان القرآن كتب كله في عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور.

وقال الحاكم في المستدرك: جمع القرآن ثلاث مرات.

إحداها: بحضرة النبي- صلى الله عليه وسلم-.
ثم أخرج بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت قال كنا عند رسول الله صلى اله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع ...الحديث.
وقال البيهقي: يشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي -صلى الله عليه وسلم-.
يقول الزرقاني: قلنا إن همة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه كان منصرفة أول الأمر إلى جمع القرآن في القلوب بحفظه واستظهاره ضرورة أنه نبي أمي بعثه الله في الأميين أضف إلى ذلك أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم في ذلك العهد ومن هنا كان التعويل على الحفظ في الصدور يفوق التعويل على الحفظ بين السطور على عادة العرب أيامئذ من جعل صفحات صدورهم وقلوبهم دواوين لأشعارهم وأنسابهم ومفاخرهم وأيامهم ولكن القرآن حظي بأوفى نصيب من عناية النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره عن عنايتهم بكتابته ونقشه ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها في عصرهم فها هو ذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد اتخذ كتابا للوحي كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته مبالغة في تسجيله وتقييده وزيادة في التوثق والضبط والاحتياط في كتاب الله تعالى حتى تظاهر الكتابة الحفظ ويعاضد النقش اللفظ وكان هؤلاء الكتاب من خيرة الصحابة فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وأبان بن سعيد وخالد بن الوليد وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وثابت بن قيس وغيرهم وكان -صلى الله عليه وسلم- يدلهم على موضع المكتوب من سورته ويكتبونه فيما يسهل عليهم من العسب واللخاف والرقاع وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهكذا انقضى العهد النبوي السعيد والقرآن مجموع على هذا النمط بيد أنه لم يكتب في صحف ولا في مصاحف بل كتب منثورا كما سمعت بين الرقاع والعظام ونحوها مما ذكرنا روي عن ابن عباس أنه قال كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا وعن زيد بن ثابت قال كنا عند رسول الله- صلى الله عليه وسلم- نؤلف القرآن من الرقاع وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي -صلى الله عليه وسلم- وكان هذا

الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول ضعوا كذا في موضع كذا ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله عز وجل أما الصحابة -رضوان الله عليهم- فقد كان منهم من يكتبون القرآن ولكن فيما تيسر لهم من قرطاس أو كتف أو عظم أو نحو ذلك بالمقدار الذي يبلغ الواحد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم يلتزموا توالي السور وترتيبها وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو كتبها ثم خرج في سرية مثلا فنزلت في وقت غيابه سورة فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ثم يستدرك ما كان قد فاته في غيابه فيجمعه ويتتبعه على حسب ما يسهل له فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب جريا على عادة العرب في حفظ أنسابها واستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة.

وصفوة المقال أن القرآن كان مكتوبا كله على عهد الرسول- صلى الله عليه وسلم- وكانت كتابته ملحوظا فيها أن تشمل الأحرف السبعة التي نزل عليها غير أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة وبعض ما هو ثابت بخبر الواحد وربما كتبه غير مرتب ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعا في صحف ولا مصاحف عامة.

وهنا نطرح سؤالا: لماذا لم يجمع القرآن أيامئذ في صحف ولا مصاحف؟

قال الخطابي: إنما لم يجمع -صلى الله عليه وسلم -القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر.

ويجيب على ذلك الزرقاني رحمه الله فيقول:

إنما لم يجمع القرآن في صحف ولا مصاحف لاعتبارات كثيرة:

أولها :أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر حتى كتبه في صحف ولا مثل ما وجد على عهد عثمان حتى نسخه في مصاحف فالمسلمون وقتئذ بخير والقراء كثيرون والإسلام لم يستبحر عمرانه بعد والفتنة مأمونة والتعويل لا يزال على

الحفظ أكثر من الكتابة وأدوات الكتابة غير ميسورة وعناية الرسول باستظهار القرآن تفوق الوصف وتوفي على الغاية حتى في طريقة أدائه على حروفه السبعة التي نزل عليها.

وثانيها :أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات.

ثالثها :أن القرآن لم ينزل مرة واحدة بل نزل منجما في مدى عشرين سنة أو أكثر.

رابعها :أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله فقد علمت أن نزوله كان على حسب الأسباب أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات. وأنت خبير بأن القرآن لو جمع في صحف أو مصاحف والحال على ما شرحنا لكان عرضة لتغيير الصحف أو المصاحف كلما وقع نسخ أو حدث سبب مع أن الظروف لا تساعد وأدوات الكتابة ليست ميسورة والتعويل كان على الحفظ قبل كل شيء ولكن لما استقر الأمر بختام التنزيل ووفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأمن النسخ وتقرر الترتيب ووجد من الدواعي ما يقتضي نسخه في صحف أو مصاحف وفق الله الخلفاء الراشدين فقاموا بهذا الواجب حفظا للقرآن وحياطة لأصل التشريع الأول مصداقا لقوله سبحانه} :إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.{

نكتفي بهذا القدر في هذه المحاضرة وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المحاضرة الخامسة عشرة

حديث مشكل يتعلق بجمع القرآن

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد:

ففي هذه المحاضرة نتحدث عن :حديث مشكل يتعلق بجمع القرآن.

وهو ما جاء في صحيح البخاري عن قتادة قال : سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم–؟ فقال أربعة كلهم من الأنصار: أبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد. قلت: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي.

وأخرج البخاري أيضا عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– أنه قال مات النبي –صلى الله عليه وسلم– ولم يجمع القرآن غير أربعة أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد .

وفيه مخالفة لحديث قتادة من وجهين : أحدهما التصريح بصيغة الحصر في الأربعة والآخر ذكر أبي الدرداء بدل أبيّ بن كعب.

وقد استنكر جماعة من الأئمة الحصر في الأربعة.

فما معنى جمع القرآن في هذا الحديث وما مدلول الحصر فيه؟؟

قال القاضي أبو بكر الباقلاني: الجواب عن حديث أنس من أوجه:

أحدها: أنه لا مفهوم له فلا ينفي أن لا يكون غيرهم جمعه.

الثاني: المراد لم يجمعه على جميع الوجوه والقراءات التي نزل بها إلا أولئك.

الثالث: لم يجمع ما نسخ منه بعد تلاوته وما لم ينسخ إلا أولئك.

الرابع: أن المراد بجمعه تلقيه من في رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لا بواسطة بخلاف غيرهم فيحتمل أن يكون تلقى بعضه بالواسطة.

الخامس: أنهم تصدروا إلى إلقائه وتعليمه فاشتهروا به وخفي حال غيرهم عمن عرف حالهم فحصر ذلك فيهم بحسب علمه وليس الأمر في نفس الأمر كذلك.

السادس: المراد بالجمع الكتابة فلا ينفي أن يكون غيرهم جمعه حفظاً عن ظهر قلبه وأما هؤلاء فجمعوه كتابة وحفظوه عن ظهر قلب.

السابع: المراد أن أحداً لم يفصح بأنه جمعه بمعنى أكمل حفظه في عهد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- حين نزلت آخر آية فلعل هذه الآية الأخيرة وما أشبهها ما حضرها إلا أولئك الأربعة .

الثامن: أن المراد بجمعه السمع والطاعة له والعمل بموجبه.

وقد أخرج أحمد في الزهد من طريق أبي الزاهرية أن رجلاً أتى أبا الدرداء فقال: إن ابني جمع القرآن فقال: الهم غفراً إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع.

قال ابن حجر: وفي غالب هذه الاحتمالات تكلف ولا سيما الأخير.

قال: وقد ظهر لي احتمال آخر وهو أن المراد بإثبات ذلك للخزرج دون الأوس فقط فلا ينفي ذلك عن غير القبيلتين من المهاجرين لأنه قال ذلك في معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج كما أخرجه ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس قال: افتخر الحيان الأوس والخزرج فقال الأوس: منا أربعة: من اهتز له العرش سعد بن معاذ ومن عدلت شهادته شهادة رجلين خزيمة بن أبي ثابت ومن غسلته الملائكة حنظلة بن أبي عامر ومن حمته الدبر عاصم بن ثابت: أي ابن أبي الأقلح فقال الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم... فذكرهم.

قلت: المفاخرة كانت على سبيل العموم وليست محصورة في الحيين فمن ذكروا من الأوس قد تفردوا بذلك عن جميع المسلمين. والله أعلم.

قال: والذي يظهر من كثير من الأحاديث أن أبا بكر كان يحفظ القرآن في حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ففي الصحيح أنه بنى مسجداً بفناء داره فكان يقرأ فيه القرآن.

وهو محمول على ما كان نزل منه إذ ذاك.

قال: وهذا مما لا يرتاب فيه مع شدة حرص أبي بكر على تلقي القرآن من النبي -صلى الله عليه وسلم- وفراغ باله له وهما بمكة وكثرة ملازمة كل منهما للآخر حتى قالت عائشة: إنه -صلى الله عليه وسلم- كان يأتيهم بكرة وعشياً.

وقد صح حديث)) :يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ((وقد قدمه -صلى الله عليه وسلم- في مرضه إماماً للمهاجرين والأنصار فدل على أنه كان أقرأهم ا.هـ

وسبقه إلى نحو ذلك ابن كثير.

قال السيوطي: قلت: لكن أخرج ابن أشتة في المصاحف بسند صحيح عن محمد بن سيرين قال: مات أبو بكر ولم يجمع القرآن وقتل عمر ولم يجمع القرآن.

قال ابن أشتة: قال بعضهم: يعني لم يقرأ جميع القرآن حفظاً.

وقال بعضهم: هو جمع المصاحف.

قلت: لم يدرك ابن سيرين أبا بكر ولا عمر فالرواية فيها انقطاع.

قال ابن حجر: وقد ورد عن عليّ أنه جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبي –صلى الله عليه وسلم–. أخرجه ابن أبي داود.

قال السيوطي: وأخرج النسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو قال جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة فبلغ النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال:)) اقرأه في شهر...((الحديث.

وأخرج ابن أبي داود بسند حسن بن محمد بن كعب القرظي قال: جمع القرآن على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم –خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبيّ بن كعب وأبو الدرداء وأبو أيوب الأنصاري.

وأخرج البيهقي في المدخل عن ابن سيرين قال: جمع القرآن على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أربعة لا يختلف فيهم: معاذ بن جبل وأبيّ بن كعب وأبو زيد واختلفوا في رجلين من ثلاثة: أبي الدرداء وعثمان وقيل عثمان وتميم الداري.

وأخرج هو وابن أبي داود عن الشعبي قال: جمع القرآن في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم– ستة: أبيّ ومعاذ وأبو الدرداء وسعيد بن عبيد وأبو زيد ومجمع بن جارية وقد أخذه إلا سورتين أو ثلاثة.

وقد ذكر أبو عبيد في كتاب القراءات: القراء من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– فعد من المهاجرين الخلفاء الأربعة وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة وسالماً وأبا هريرة وعبد الله بن السائب والعبادلة وعائشة وحفصة وأم سلمة.

ومن الأنصار عبادة بن الصامت ومعاذ الذي يكنى أبا حليمة ومجمع بن جارية وفضالة بن عبيد ومسلمة بن مخلد وصرح بأن بعضهم إنما كمله بعد وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم– فلا يرد على الحصر المذكور في حديث أنس.

وعدّ ابن أبي داود منهم تميماً الداري وعقبة بن عامر.

وممن جمعه أيضاً أبو موسى الأشعري ذكره أبو عمرو الداني.

تنبيه :

أبو زيد المذكور في حديث أنس اختلف في اسمه فقيل سعد بن عبيد بن النعمان أحد بني عمرو بن عوف.

ورد بأنه أوسي وأنس خزرجي وقد قال: إنه أحد عمومته وبأن الشعبي عده هو وأبو زيد جميعاً فيمن جمع القرآن كما تقدم فدل على أنه غيره.

وقال أبو أحمد العسكري: لم يجمع القرآن من الأوس غير سعد بن عبيد.

وقال محمد بن حبيب في المحبر: سعد بن عبيد أحد من جمع القرآن على عهد النبي –صلى الله عليه وسلم–.

وقال ابن حجر: قد ذكر ابن داود فيمن جمع القرآن قيس بن أبي صعصعة وهو خزرجي يكنى أبا زيد فلعله هو .

وذكر أيضاً سعيد بن المنذر بن أوس زهير وهو خزرجي أيضاً لكن لم أر التصريح بأنه يكنى أبا زيد.

قال: ثم وجدت عند ابن أبي داود ما رفع الأشكال فإنه روى بإسناد على شرط البخاري إلى ثمامة عن أنس أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه قيس بن السكن.

قال: وكان رجلاً منا من بني عدي بن النجار أحد عمومتي ومات ولم يدع عقباً ونحن ورثناه.

قال ابن أبي داود: حدثنا أنس بن خالد الأنصاري قال: هو قيس بن السكن بن زعوراء من بني عدي بن النجار قال ابن أبي داود: مات قريباً من وفاة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فذهب علمه ولم يؤخذ عنه وكان عقبياً بدرياً.

ومن الأقوال في اسمه ثابت وأوس ومعاذ.

فائدة: قال السيوطي:

ظفرت بامرأة من الصحابيات جمعت القرآن لم يعدها أحد ممن تكلم في ذلك فأخرج ابن سعد في الطبقات: أنبأنا الفضل بن دكين حدثنا الوليد بن عبد الله بن جميع قال: حدثتني جدتي عن أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يزورها ويسميها الشهيدة وكانت قد جمعت القرآن أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حين غزا

بدراً قالت له: أتأذن لي فأخرج معك وأداوي جرحاكم وأمرض مرضاكم لعل الله يهدي لي شهادة قال: إن الله مهد لك شهادة وكان- صلى الله عليه وسلم- قد أمرها أن تؤم أهل دارها وكان لها مؤذن فغمها غلام وجارية كانت قد دبرتهما فقتلاها في إمارة عمر فقال عمر: صدق رسول الله –صلى الله عليه وسلم- كان يقول انطلقوا بنا نزور الشهيدة.

قلت: قوله غمها أي كتما أنفاسها بقطيفة، وذلك لكي يعتقا حيث دبرتهما أي أعتقتهما عن دبر أي بعد وفاتها يكونان حرين.

قال المازري: لا يلزم من قول أنس –رضي الله عنه- لم يجمعه غيرهم أن يكون الواقع كذلك في نفس الأمر لأنه لا يمكن الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم في البلاد ولا يتم له ذلك إلا إذا كان قد لقي كل واحد منهم وأخبر عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم- وهذا في غاية البعد في العادة وكيف يكون الواقع ما ذكر وقد جاء في صحيح البخاري أيضا من طريق حفص بن عمر أن النبي –صلى الله عليه وسلم- يقول)) :خذوا القرآن عن أربعة عن عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب .((والأربعة المذكورون منهم اثنان من المهاجرين وهما الأولان واثنان من الأنصار وهما الأخيران اهـ..

وقال المازري: وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ولا متمسك لهم فيه فإنا لا نسلم حمله على ظاهره.

سلمناه؛ ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر كذلك؟؟

سلمناه؛ لكن لا يلزم من كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله ألا يكون حفظ مجموعه الجم الغفير وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى. وقال القرطبي قد قتل يوم اليمامة سبعون وقتل في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم- ببئر معونة مثل هذا العدد قال وإنما خص أنس الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم دون غيرهم أو لكونهم كانوا في ذهنه دون غيرهم اهـ.

وقال الزرقاني: لا يشكلن عليك هذا الحديث لأن الحصر الذي فيه حصر نسبي وليس حصرا حقيقيا حتى ينفي أن يكون غير هؤلاء الأربعة قد جمعه على عهد رسول الله –صلى الله عليه

وسلم- والدليل على أن هذا الحصر إضافي لا حقيقي هو ما رواه البخاري عن أنس... فذكر الرواية الأخرى ثم قال:

فأنت ترى أن أنسا في هذه الرواية ذكر من الأربعة أبي بن كعب بدلا من أبي الدرداء في الرواية السابقة وهو صادق في كلتا الروايتين لأنه ليس بمعقول أن يكذب نفسه فتعين أنه يريد من الحصر الذي أورده الحصر الإضافي بأن يقال إن أنسا- رضي الله عنه- تعلق غرضه في وقت ما بأن يذكر الثلاثة ويذكر معهم أبي بن كعب دون أبي الدرداء حاصرا الجمع فيهم ثم علق غرضه في وقت آخر بأن يذكر الثلاثة ويذكر معهم أبا الدرداء دون أبي بن كعب.

وهذا التوجيه وإن كان بعيدا إلا أنه يتعين المصير إليه جمعا بين هاتين الروايتين وبينهما وبين روايات أخرى ذكرت غير هؤلاء .

قال: ثم إن ما ذكرناه في هذا المقام لا يتجاوز دائرة الصحابة الذين جمعت صدورهم كتاب الله في حياة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فقد أتم حفظ القرآن آلاف مؤلفة من الصحابة واشتهر بإقراء القرآن من بينهم سبعة عثمان وعلي وأبي بن كعب وأبو الدرداء وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري كلهم جمعوا التنزيل بين حنايا صدورهم وأقرؤوه لكثير غيرهم .

قلت: وأيا ما كان توجيه رواية أنس بن مالك -رضي الله عنه- فالمعتمد أن حفظة القرآن في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كانوا كثيرين ولا ينحصرون في هؤلاء الأربعة وإذا كان الأمر في عصورنا المتخلفة ومع غفلتنا ورقة ديننا يحفظ القرآن كاملا الأطفال في الكتاتيب فكيف بزمان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خير قرون الدهر؟؟ وقد كانت الكتاتيب في عهده -صلى الله عليه وسلم- وما تخرج زيد بن ثابت إلا منها.

فعن ابن مسعود قال قرأت من في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سبعين سورة وإن زيد بن ثابت له ذؤابة في الكتاب.

وقد ثبت في عدة روايات اهتمام الصغار بحفظ القرآن حتى غدا بعضهم إماما لمن هو أكبر منه وذلك مثل ما ورد عن سالم مولى أبي حذيفة وعمرو بن سلمة وعثمان ابن أبي العاص؛ فعن ابن عمر قال لما قدم المهاجرون الأولون العصبة موضع بقباء قبل مقدم النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة وكان أكثرهم قرآنا.

وعن عمرو بن سلمة قال كنا بماء ممر الناس وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس ما للناس ما هذا الرجل فيقولون يزعم أن الله أرسله أوحى إليه أو أوحى الله بكذا فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يقر في صدري وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح فيقولون اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبي قومي بإسلامهم فلما قدم قال جئتكم والله من عند النبي -صلى الله عليه وسلم- حقا فقال صلوا صلاة كذا في حين كذا وصلوا صلاة كذا في حين كذا فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآنا مني لما كنت أتلقى من الركبان فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين وكانت علي بردة كنت إذا سجدت تقلصت عني فقالت امرأة من الحي ألا تغطوا عنا است قارئكم فاشتروا فقطعوا لي قميصا فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص.

وعن عثمانَ بنِ أبي العاص –رضي الله عنه– قال: استعمَلني رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– وأنا أصغرُ الستةِ الذين وَفَدوا عليه من ثقيف، وذلك أني كنت قرأتُ سورةَ البقرة.

الفهرس

***